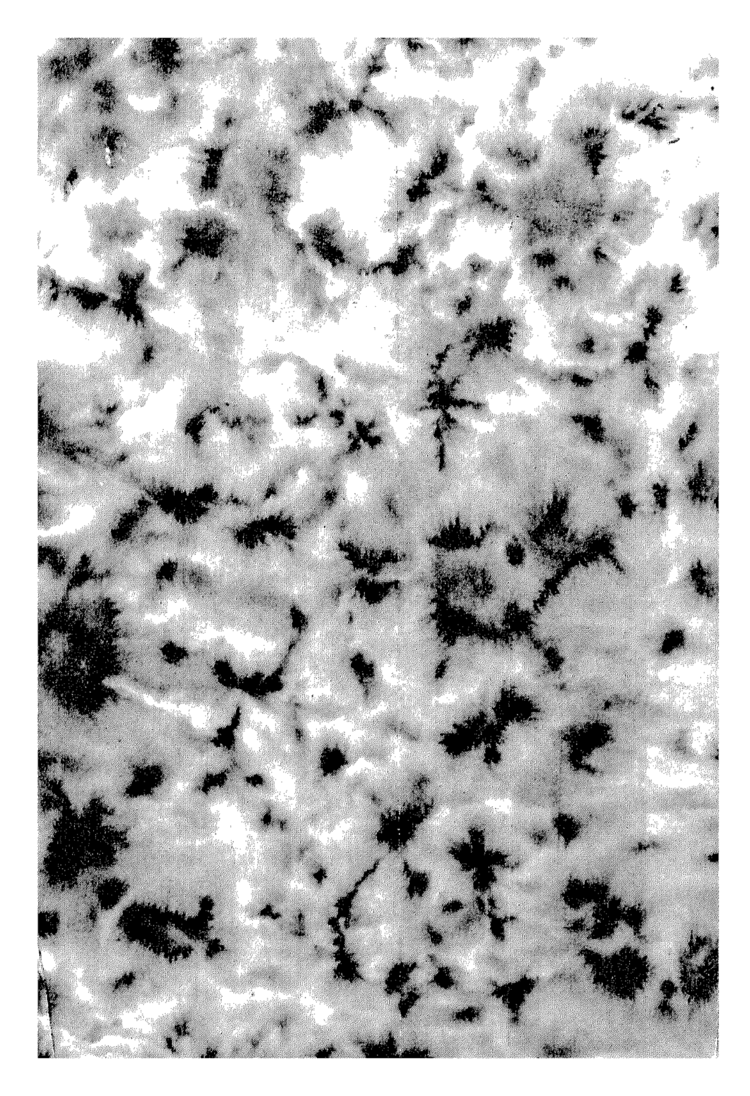






أمين واصف بك

مدير الجيزه

قررت نظارة المعارف استعمال هذا الكتاب

فى المدارس الابتدائية والثانوية

الكتاب الأول

فى الأخلاق والاجتماع

« طبعة رابعة »

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع أنبيائه وأصفيـائه

مقدمة

أساس السعادة نظام الحياة ؛ وأساس هذا النظام التعليم .

ولكن التعليم ، بلا تربية توصل أثره الى أعماق القلوب الرطبة ، كحرث الارض على عمق غير كافٍ ؛ اذا أنبتت زرعها ، خرج بين أعشاب ضارَّة بنموه او حياته .

طالما رأينا التعليم المجرد عن تهذيب النفوس ، وترقيق المشاعر ، معولاً من معاول تقويض النظام الاجتماعى .

شغلتنى هذه الفكرة اياماً ، فأجلت النظر فى كتب الأدب العربية ؛ فلم أجد فيها مع وفرتها ، ما سد طلبتى ، كما أراه عند الافرنج من تعدد الكتب الخاصة بتربية الاحداث ، المعروفة عندهم باسم :

Morale et Instruction Civique

فوضعت هذا الكتاب فى أويقات فراغى ، بمساعدة الفاضلين :

الشيخ محمد شلبى المفتش بالمعارف ، ومرسى شاكر أفندى المدرس بمدرسة بنها الابتدائية ، موقناً انهُ بمثل هذه الكتب ، ينبت الطفل نباتاً طيباً ؛ حتى اذا ما بلغ أشدّه ، أصبح واسع الادراك ، ذكى الفؤاد ، مثقف الشعور .

هذا وليذكر المعلمون ، ان ما جاء فى هذا الكتاب ، ليس الاّ مسائل مجملة . والاستاذ انما يحدث الصغير فى أرقى الموضوعات بأبسط العبارات . فعليهم — كذلك عند المطالعة — واجب البيان والتبيين ، باكثر مما جاء بهِ أستاذ الكتاب ؛ بتكرير الشواهد ، وضرب الامثال ؛ كى ترسخ هذه الحقائق فى أذهان الأطفال ، وتنقش فى مخيلتهم ثابتة كالنقش فى الحجر . وهنا حقاً ، تتفاوت قوى المعلمين . فليس المسطور فى الكتب الاّ طرقاً للارشاد ؛ وقدرة المعلم هى سر النجاح ، والافادة ، والله الموفق لما فيهِ خير عباده .

محمد أمين واصف





الباب الأول

فى الأدب

الفصل الاول — فى الحرية

« ١ — النواميس الطبيعية »

المعلم — ما الذى خطر ببالك أمس حينما شاهدت الشمس جانحة للغروب، والظلام مقبلاً ؟

التلميذ — خطر ببالى ان الشمس لن تعود ، وان هذا الظلام باق لا يتحوّل .

المعلم — وما الذى جال بخاطرك حينما شاهدت النجوم ساطعة فى السماء ؟

التلميذ — ظننت ان هذا المنظر سيدوم ، وان هذه الكواكب ستظلّ ساطعة .

المعلم — وحينما عادت الشمس و بعثت أشعتها فى الأفق ؛ واستمرت على هذه الحال ، تغيب ليلاً وتظهر نهاراً ؟

التلميذ — أيقنت انى مخطئ فيما تخيلت .

المعلم — ما الذى تستنتجه من هذه المشاهدات ؟

التلميذ — استنتج ، ان الاجرام السماوية تجرى على قوانين ثابتة لا تتغير .

المعلم — هل الاجرام السماوية وحدها ، هى التى تجرى على قوانين ثابتة ؟

التلميذ — أظن ذلك .

المعلم — كلا . . يا بنى ؛ ان الاجرام السماوية وغيرها من الكائنات ، (الحيوان والنبات والجماد) تجرى كلها على قوانين ثابتة ، ونواميس لا تتغير « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

(١) فالحجر المقذوف فى الهواء ، لا بد ان يسقط على الأرض ؛

(٢) والشجرة لا بدَّ ان تنمو ، ما لم يمنعها عن النموّ عائق ؛

(٣) والحصان مثلاً ، ينفق كسائر الحيوان ؛

(٤) والنتائج المتشابهة بالاجمال ، لا بد ان تكون اسبابها متشابهة . وهي قاعدة من القواعد الكلية التى تمثلها جميع الكائنات .

يا بنى ! ليس المراد من القانون هنا القواعد الوضعية التى تضعها الحكومات ، فى التشريع والادارة ونحوها ؛ بل المراد بالقانون النظام الإلهى ، الذى تجرى على مقتضاه الكائنات السماوية والأرضية :

(١) كجذب الاجسام بعضها بعضاً ، حتى الاجرام السماوية ؛

(٢) وجذب الكبيرة منها الصغيرة (فالحجر المقذوف الى أعلى ، لا بد من سقوطه على الأرض بقوة الجذب) ؛

(٣) والتصاق الاشياء الثقيلة بالارض بقوة الجذب العام (وهذا هو الحافظ لنظام ما على وجهها اثناء دورتها) ؛

(٤) وطفوُ الاشياء الخفيفة على سطح المـاء ، لاختلاف الثقل النوعى بينهما ؛

(٥) ومشابهة نتائج الحيوان والنبات لأمَّاتهـا فى الجنس . ألا ترى ان بيضة الحمام ، لا تفرخ الاّ حماماً ؛ والغصن المتخذ من شجرة الخوخ ، لا يثمر بعد غرسهِ الاّ خوخاً ؛ وغير ذلك من القوانين التى تحققها المشاهدة والعيان ، وان لم تدرك أسرارها . وما عدا ذلك — مما يخالف هذه القوانين الطبيعية الثابتة ونحوها — انما يجرى بمقتضى المصادفة ، والاتفاق الذى لا تتناوله الافهام .

« ٢ — النفس والارادة البشرية »

المعلم — ماذا تفعل مساءً ، بعد خروجك من المدرسة ؟

التلميذ — سألعب مع رفاقى قبل الذهاب الى المنزل .

المعلم — اذا كان ذلك فى ذهنك ؛ هل تتخيل ان هنـاك باعثاً من القوانين الثابتة التى أشرنا اليها سيصرفك عن قصد المنزل الى مرافقة أصحابك ؛ كما تتدحرج الكرة التى تصادف منحدراً ؟

التلميذ — لا ! لأن الكرة التى تصادف منحدراً ، لا بد أن تتدحرج . أما أنا ، ففى امكانى أن أتروض مع رفقائى ساعة ، وأذهب بعد الى المنزل ؛ وفى امكانى ان أذهب الى المنزل مباشرة ، أو الى أى مكان آخر ؛ كما ان رفقائى فى امكانهم ان يعملوا ما يوافق رغائبهم

المعلم — اذن ، أنت مغاير لسائر الكائنات التى تتبع قوانين الطبيعة الثابتة .

التلميذ — نعم .

المعلم — نعم . . . يا بنى ؛ انك مصيب فيما تصورت . لأن الحجر يتدحرج كغيره ، والشجرة تنبت كغيرها . ولكن كل فرد من أفراد النوع الانسانى ، يخالف الآخرين فى أشكالهم وميولهم ، حتى ان التوأمين لا يتشابهان فى الصورة والاستعداد .

ذلك لأن الحجر مجموع ذرات متماثلة فى عناصرها ، لا ارادة لها ، ولا حرية . أما الانسان ، فانهُ ليس عبارة عن مجموع أعضائه ؛ وانما هو شئ آخر خفى (وهو النفس) التى تحس اذا لابس عضواً من أعضاء الجسم ألم من الآلام ، كما انها هى التى تحرك هذه الاعضاء ، وتستخدمها فيما تشاء .

فالفرق اذن بين الانسان وسائر الكائنات ، ان للانسان ارادة تدفعه الى الاقوال والافعال ؛ وهى داع من دواعى التفاضل بين الرجال . أما سائر الكائنات ، فانهـا مجردة من تلك الارادة — ألا ترى ان البخار لا يعمل وحده ، وكذلك الماء ، والنار ، وغيرهما ؟

فالارادة البشرية أثر من آثار القوة ، ودليل من أدلة الحياة

« ٣ — الحرية »

المعلم – يا بنى ؛ صرحت بانك تذهب الى اللعب مع رفاقك بارادتك ، وانك لم تكن مجبراً ، فهل تعجب اذا نبهتك إلى أن الانسان ، لا يفعل ما يفعل بمحض إرادته ؟

التلميذ – وكيف ذلك ؟ هل الانسان خاضع لعامل آخر خارجى ؟

المعلم – لا ؛ فالانسان ليس خاضعاً لعامل خارجى ؛ ولكنهُ تحت سيطرة عقله وضميره والاَّ كان غير متمتع بالحرية التامة .

التلميذ – وما معنى القضاء والقدر ، اذا كان الانسان مخيراً لا مسيراً ؟

المعلم – [1] يظن البعض ان عقيدة القضاء والقدر ، هى القناعة بحياة يأكلون فيها ، و يشربون ، وينامون ، مسخرين كالانعام ؛ وان لا اختيار لهم فى قول أو عمل ، أو حركة أو سكون ، ولم يدروا ان فى ذلك تعطيل قواهم ، وفقدان ثمرة ما وهب الله لهم من المدارك والقوى . (هكذا ظنت طائفة من الافرنج وكثير من ضعفاء العقول فى المشرق) . لا يوجد مذهب من مذاهب المسلمين يقول بسلب الاختيار بالمرة ؛ بل الاعتقاد الدينى الصحيح ، ان للانسان جزءاً اختيارياً فى أعماله يسمى الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب ، وهذا لا يمنع الاعتقاد بأن كل شئ بيد الله ، ينقض ما يشاء ، ويبرم ما

---

(١) كلمة للامام الشيخ محمد عبده في الموضوع باختصار

يشاء . ومتى اقتضت الحكمة الإلهية والارادة الصمدانيـة ؛ كانت ارادته فوق ار دة الانسان . ان الذى يعتقد ان الأجل محدود ؛ كيف يهاب الموت فى الدفاع عن حقهِ ، واعلاء كلمة أمته أو ملته ؛ أو كيف يخشى الفقر فى بذل ماله لتعزيز الحق وتشييد المجد .

الاعتقاد بالقضاء والقدر ، تتبعه صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة . ويطبع النفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء . واعتبر ذلك فيما كان عليهِ المسلمون فى الصدر الأول . فتحوا الامصار ، ودوخوا الممالك ، ونشروا أعلام الفضيلة على ربوع الآفاق ، فى مشارق الارض ومغاربهـا ؛ واقتحموا الصعاب اجابة لنداء العزم والارادة ليس الاّ . هذه العقيدة هى التى طالما ثبتت اقدام الفئات الصغيرة من المسلمين امام الجيوش الخضارم . والمعتقد بالقضاء يفعل عظائم الأمور غير هياب ولا وجل ؛ لأنهُ يحسب نفسه بتوكله على الله ، فى أمان من كل غارة ، وانهُ لا يصيبهُ الاّ ما كتب الله له .

أتعرف يا بنى شيئاً آخر يؤثر فى ارادة الانسان ؟

التلميذ — لا !

المعلم — هل الناس متماثلو الأمزجة ؟

التلميذ — لا ؛ ان فيهم ذا المزاج الدموى ، والعصبى ، والصفراوى وغير ذلك ؛ والذى أعرفه ، ان الدموى يندفع الى الغضب والشدة ،

وان العصبي كثير الاحساس ، وان الصفراوى حزين على الدوام .

المعلم — يا بنى ؛ ان تخالف الأمزجة يؤثر فى الارادة ، فالدموى هيهات أن يضبط نفسه عند الغضب ، والعصبي قلما يلطف تأثيره ، وكذلك الصفراوى .

ولكنهم ربما استطاعوا مفارقة هذه الامراض ، ويدل على ذلك ما يلى :

حكى ان تورين (Turenne) (أحد قواد الجيوش الفرنسية في زمن لويس الرابع عشر) كان يشعر بارتجاف من دوى المدافع فى مبدئه ؛ ولكنه كان يقاوم ما يداخله بكل قواه ، وينادى صارخاً مازحاً مع أفراد جيشه اذا تزعزع (أنت تتزعزع ! أنت ترتجف !) . والخلاصة ان الارادة يمكن أن تنجو من هذه العوامل ؛ ولكن هناك عوامل قوية هيهات ألاّ تتأثر بهـا . هى العادات المألوفة التى تجعل الارادة أشبه بالأرض التى تساهل فيها صاحبها ، طوراً بالرهن ، وطوراً بغيره ، فيحرم ثمراتها . بيان ذلك ، ان الحياة عبارة عن سلسلة عادات: عادة الاكل والشرب ، والنوم والعمل وغير ذلك . وهذه العادات ، وبما تسلطت على الانسان وسلبته ارادته ؛ فما أجدرنا ان نسميها آفة الارادة . ألا ترى ان المدمنين يحاولون ان يتخلصوا من اغلال هذه العادة المرذولة ، ولكن لا يجدون الى الخلاص سبيلاً ؟ فالمرء يتعرى ازاء العادة من ارادتهِ التى وهبها له خالقه ، ويفقد حريته ، واستقلاله ؛

واذ ذاك يكون شبيهاً بالآلة الخاضعة لعوامل خارجية .

التلميذ — يا سيدى ان فى قدرة الانسان ان يجاذب العادات المرذولة ، حتى تنقطع صلته بها . يدل على ذلك ان كثيراً من المدمنين أقلعوا عن هــذه الرذيلة ، وكثيراً من المذنبين أنابوا الى الله وتابوا توبة نصوحاً ، ومن الواجب على الانسان ان يلحظ ان قيمته بارادته ، وان يحتفظ بها كل الاحتفاظ

المعلم — نعم يا بنى ؛ ان هذا الشعور أقوى باعث للحرص على الحرية ، وأعظم مسوغ لأن تجيب بهذه الجملة – أنا حرّ – من يدعى انك مقهور ؛ ولا منافاة بين توفر الارادة ، وخضوع الانسان للقضاء والقدر

الفصل الثانى — فى القانون الأدبى

« ١ — الضمير »

قد ينصرف المرء الى اللهو واللعب ولا يلتفت لأعماله الاّ اذا مست الحاجة ، ولا يؤدى ما يجب عليهِ لوالديه العاجزين عن الكسب ، اللذين أوجبت عليهِ كل الشرائع ان يعولها ويعاونهما على القيام باعباء الحياة ؛ ولا يجد من الحكومة ما يردعهُ عن مجاراة هواه ، والاستسلام لعوامل الشهوات النفسانية . لأن ما أتاه لا يعدّ جرماً فى نظرهــا ، لتمتعه بالحرية الشخصية ، وان استتبع ذلك سوء سمعته ، وانصراف

اخلائه عن مساعدته . ولا يلبث ان يسمع صوتاً قلبياً يؤنبهُ على هذه الأعمال فيخضع له أى خضوع

ما هذا الصوت المحترم ؟ ما هذا الصوت المؤثر ، ما هذا الحاكم القاهر ؛ هو الذى يشرف على المرء فى كل زمان ومكان ؛ هو الذى يؤنب المجرمين بصوته الرنان ؛ هو هو الضمير . الضمير هو الحاكم الداخلى ، الذى يوبخ الجناة على ما يجترحون ، ويبشر الهداة بنتائج ما يعملون .

الضمير هو الذى دفع قابيل بعد قتله أخاه هابيل ، ان يردد (يا ويلتى ! أعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخى!)

ما أشبه الضمائر الصحيحة بالكواكب المنيرة التى تنبعث أشعتها ؛ فتهدى أصحابها مناهج السداد ، وتصل بهم الى غاية المراد !

ان سلطان الضمائر فوق سلطان القوانين الوضعية ، وان افرغت الثانية فى قوالب الشدة ؛ وان اصواتها فوق سائر الاصوات . قال أبو نواس :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

« ٢ — المسئولية »

« الاستاذ — يا بنى ؛ أنت سنك اثنتا عشرة سنة .. فلمَ أنت صغير ؟ هذا شئ غير حسن ! »

التلميذ — يا سيدى ؛ ليس ذلك من أعمالى المبنية على ارادتى ، والاّ كنت كبيراً مثلك .

الاستاذ — لِمَ اعتلت صحتك ، فمنعت النوم الليل كله ، وحرمت شهوة الاكل . انى لست مرتاحاً لذلك !

التلميذ — يا سيدى ليس فى وسعى ان أكون على غير ما شهدت . وهل يستطيع المرء ان ينام ويأكل كما يريد ؟

الاستاذ — يا بنى ؛ انى لحظت عليك الكسل فى المدرسة أمس . فهل ذلك خارج عن ارادتك ايضاً ؟

التلميذ — لا يا سيدى ؛ ان الكسل من أعمالى المبنية على ارادتى ، ولذلك استميحك الصفح .

الاستاذ — قد صفحت عنك يا بنى ؛ ولكن أود ان تجيب عما يلى : لِمَ لم تعارضنى فى نسبة الكسل اليك ، وقد صرحت قبلاً بان انحراف الصحة والصغر ، ليسا من أعمالك الخاصة بك ؛ ولِمَ رضيت بنسبة ذلك الفعل اليك ؛ ولم ترضَ بنسبة هذين الأمرين ؟

التلميذ — يا سيدى ؛ ان أعمال الانسان متنوعة ، منها ما يصدر عن محض ارادتهِ كالكسل والاجتهاد ، والقيام والقعود ؛ ومنها ما يكون خارجاً عن ارادتهِ كالصغر ، والكبر ، والصحة ، والاعتلال .

الاستاذ — اذن انت غير مسئول عن كل ما يصدر منك !

التلميذ — لعل الاستاذ يشرح لى معنى مسئول .

الاستاذ – مسئول ، أى محاسب ؛ فأنت مسئول عن كسلك وتقصيرك فى واجباتك (أى محاسب عليهِ) ولست بمسئول عن صغرك (أى لست محاسباً عليهِ) . أفهمت ،

التلميذ – نعم ، فهمت انى مسئول عن أعمالى الصادرة بمحض ارادتى

الاستاذ – هل اذا اضطرك غيرك عمل يضاد ارادتك، تكون مسئولاً ؟

التلميذ – لا يا سيدى ؛ فاذا انصرفت الى الاستحمام فى النهر بارادتى ، اكون مسئولاً ؛ ولكن اذا زجنى امرؤ فيهِ وحملنى على ان اغوص فى الماء ، لا اكون مسئولاً ؛ لأن ذلك مخالف لارادتى .

الاستاذ – أحسنت ؛ لأن العمل فى الصورة الأولى صادر منك بارادتك ، وفى الثانية خارج عنها ؛ وقس على ذلك سائر أعمال الانسان ، ولذلك قيل: « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » . وعلى هذا المبدأ القويم، جرت المحاكم فى عقاب الجناة . فهى لا تعاقب المرء على فعله مجرداً ؛ ولكن تنظر الى ما يقارن أو يفارق العمل من النية والارادة

فاذا صوَّب انسان بندقيته الى طائر ، فاصابت رجلاً كان وراء نخلة مثلاً ، فقضت عليهِ ، لا يعاقب عقاب الجانى الذى يترصد للمجنى عليهِ ويقتله ؛ مع ان الجناية واحدة فى الصورتين

وهذا المبدأ عام يشمل الخير ، كما يتناول الشر ؛ فالمرء قد يحسن، ولا يستحق حسن الجزاء على احسانهِ . مثال ذلك . انى زرت آثاراً بمدينة (رومة) ؛ وبينا أنا أغدو وأروح مع أحد الأولاد ، اذ سمعنا

تنهداً وزفيراً ، فدنونا فوجدنا مسافراً ضالاً ، مشرفاً على الهلاك من الجوع والخوف ؛ فهديناه الطريق فنجا . فجزاء هذا الاحسان، لا يعادل جزاء الرجل الشجاع الذى يخاطر بحياته ، ويزج بنفسه فى الماء لينقذ آخر اوشك ان يغرق

وان ضمير الانسان الذى يرقبهُ فى غدواتهِ وروحاتهِ ، لا يؤاخذه الاَّ على ما يصدر منهُ بارادتهِ . وحسبنا هذه القضية ، فى اقناع الذين يزعمون ان الانسان غير حرّ

« ٣ — القانون الأدبى او قانون الأخلاق »

لئن كنا احراراً فيما نفعل ، فانا تحت مراقبة ذلك الحاكم الداخلى ؛ ألا وهو الضمير . فالحرية ليست مطلقة .

الرجل المجرد من الضمير . يجرى وراء الاهواء كما تشاء ؛ ولكن هيهات ان يوجد رجل مجردٍ من الضمير ، لأنهُ من لوازم الطبيعة البشرية .

وليس الفارق بين الانسان وسائر انواع الحيوان ، قوَّة تمييز الحق من الباطل فقط ؛ بل قوة تمييز الخير من الشر ايضاً . وهذه القوة هى الضمير الذى يرقب حريتنا ، ويهديها سبيل الرشاد .

فهو شبيه بالقاضى ، الذى تنحصر اعماله فى تطبيق القوانين على اعمال الناس ؛ ويمكن التعبير عنهُ بأنهُ قانون ، نحن خاضعون له .

ثم ليس المراد انهُ قانون مماثل لقوانين الطبيعة الثابتة التى أسلفنا الكلام عليها ؟ ولكنهُ قانون ادبى يستطيع الخاضع له ألاّ يطيعه . كالقوانين الوضعية التى تضعها الحكومات للفصل فى الخصومات أو (كأى نظام يراعيهِ الانسان أو لا يراعيهِ)

والفرق بين هذا القانون وتلك القوانين ، يظهر من هذين المثالين : اذا ألقيت حصاة وقطعة خشب فى الماء ؛ هوت الأولى فى القاع ، وطفت الأخرى ؛ ولا يحدث غير ذلك على الدوام ، لأنهُ قانون طبيعى . واذا نبه الاستاذ تلميذين الى اداء واجب من الواجبات ، فلا يسوغ ان تحكم بأن التلميذين معاً يطيعان أمره . فقد يطيعانه و يعملان الواجب ؛ وقد يطيع أحدهما ويهمل الثانى ؛ لأن الطاعة والمخالفة مبنيتان على استعدادهما ، لا على نفس أمر الاستاذ . وحينئذٍ يمكن أن يقال ان القانون الأدبى بمثابة المرشد الناصح ، وليس من لوازم المرشد اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

و بالاجمال ، أقول ان وظيفة الضمير ان يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ؛ وليس فيهِ قوّة الاكراه على الفعل أو الترك .

والانسان مفطور على أن يرتاح اذا أصاخ لصوت ضميره ، وينقبض اذا خالفهُ ، و يشعر انهُ خالف النظام ، وأخلّ بالسلام العام ، ولا يدرى من أين أتى ، ومتى يذهب . واليك شاهداً يوضح لك حالة الضمير فى المواقف الصعبة ، وقوّة تأثيره . قال جندى : بينما كنت

أتروَّض على جسر نهر السين فى يوم عاصف ، والنهر مائج ؛ اذ لمحت سفينة مشحونة رملاً أراد ملاّحها اجتياز الجسر (الكوبرى) ، فانكفأت بغتةً ، فحاول النجاة فلم يفلح . فأوحى الىَّ ضميرى ، ان ألقى بنفسى فى النهر لانجاء ذلك الغريق ؛ ولكن كهولتى صوَّرت لى المضارّ التى تنشأ من البرد القارس ، وداء المفاصل يلابسنى ، وذكرت أيضاً انتفاء المعين وندرة المساعد ؛ ففترت عزيمتى وأخذت أقدم رجلاً ، وأؤخر أخرى ؛ ثم قهرت هذه الهواجس ، وعوَّلت على مساعدة الغريق . فخطر ببالى تارة أخرى ذلك الزمن الطويل الذى لازمتُ فيهِ فراشى وأنا مريض بداء (الروماتيزم) ؛ وانهُ كان من الواجب على السفِن أن يتقن السباحة ، وانهُ هو الذى جنى على نفسهِ ؛ وكدتُ أنقاد لهذه العوامل وانصرف . فهمس الضمير فى اذنى بهذه الجملة المؤثرة : « انك جبان ! » . فاعترتنى هزة بعثت بى الى ان ألقيت بنفسى فى الماء ، وأنجيت الملاّح بلا عناء .



الفصل الثالث — فى الخير

« ١ — شرف الانسانية »

قد ظهر لنا ان الانسان مخلوق ، حرّ ، عاقل ، مسئول عما يصدر عنهُ من الأعمال المبنية على ارادتهِ ، ممتاز بمواهب محترمة تكسبهُ شرفاً

هو جدير ان يحتفظ بهِ ؛ حتى لا يندمج فى صفّ الكائنات الخاضعة لنواميس الطبيعة الثابتــة . ولذلك كان أول أمر من أوامر القانون الأدبى ، أن يحترم الانسان فى نفسهِ شرف الانسانية الذى يرجع الى ارادتهِ ؛ ولذلك ايضاً حظر عليهِ الرذائل ، وحثهُ على التمسك بالفضائل التى تغالب الشهوات النفسانية . وفضليات هذه الفضائل التى تصون شرف الانسانية ثلاث : الفطنة ، والاعتدال ، والشجاعة .

فالفطنة هى صفاء العقل ، وهى ضرورية لصحة ارادة الانسان ؛ لأن من لا يميز بين الحق والباطل ، يخشى عليهِ ألاّ يميز بين الخير والشر ؛ وان بعض الهفوات قد تمرّ بسهولة مع اعتيادها ، فتصير من اكبر الخطايا . ألا ترى تلك الاوهام المستولية على العقول — أوهام الاعتقاد بشؤم يوم الجمعة ، والعدد (١٣) ؛ ونعيق البومة — ما أقبح هذه النزعات ! وأبشع هذه الخرافات ! التى لا يمحوها الاّ نور الفطنة ، وضياء الذكاء !

وللفطنة اسمان : التعقل والتسامح ؛ وهما مرتبتان لا يستحق المرء أن يدعى بدونهما انساناً ذكياً عاقلاً .

والاعتدال — كالتعقل — مزية من أشرف المزايا الانسانية ، وليس الغرض منهُ نظام الطعام والشراب ؛ ولكن الغرض منهُ التوسط فى كل شئ .

فليس الاعتدال ان يتصلف الرجل الذى أثرى ، (وقد نشأ

فقيراً) على زملائهِ الذين لم ينجحوا مثله ؛ أو ان يحقد الرجل الفقير على جاره الغنى ، ولا يرضى بما قسم الله له .

بل من الاعتدال أيضاً ، الاعتراف بالجميل وهو من أخص فضائله . لِمَ تعترف بجميل والديك؟ لأنهما سبب حياتك ونعمتك ؛ فمكافأتك لهما ، هو هذا الاعتراف . وكذلك الرجل المعتدل . يعترف بفضل العلماء ، والمفكرين ، والباحثين ، والمخترعين ؛ ولا يجحد لأحدهم فضلاً قلّ أو كثر ، الاّ دنئ .

ما ظهر ذو رأى جديد فى العلم أو الصناعة ، الاّ وجد أمامهُ كثيراً من الحاسدين والمبغضين ؛ فانكروا جميله ، وسفهوا آراءه ؛ فلما انقرضوا حكم التاريخ بسقوطهم ، ورفعه الى ذروة المجد الخالد .

حكى ان كرستوف كولومب ، بعد اكتشافه اميركا ، وعودته لاسبانيا ؛ احتفل بهِ الشعب على اختلاف الطبقات ، ولم يعقل ذلك الاحتفاء ألسنة الحساد والمكابرين ؛ بل انطلقت بالتنديد والتعريض ، والسخرية والتسفيه . فنمى اليهِ الخبر ، فلم يحفل بهِ ؛ بل دعاهم الى وليمة ، وأتى كل واحد منهم طبقاً وبيضة وقال : الحاذق منكم مَن يجعل بيضته تقف على طرفها ؛ فحاول كلٌّ ساعة ، فلما أعجزتهم حيلته ، أخذ هو واحدة وضربها بقوة فانكسر طرفها فاستقامت ؛ فصاح الكل : « ان كان كذلك ، فالأمر هين » فقال ولكن سبقت الىَّ الفكرة قبل أن ترد على بال أحدكم . وهكذا كان استكشافى لأمريكا .

وفضيلة الاعتراف بالجميل ، هى التى وقفت بطرس الاكبر ، (قيصر الروس) على قبر ريشليو وزير الفرنسيس ليقول ليتك حىٌّ فأعطيك نصف ممالكى ، لأتعلم منك كيف أسوس النصف الآخر .

(الشجاعة) وليس من الانسانية أن يجبن الانسان ، ويستسلم لما يعتريهِ أو يعترى مواليهِ ، أو معاشريهِ ، أو معاصريهِ من مصائب الحياة ؛ لأن الحيوان والطيور ، تدافع عن أنفسها وعن أبنائها ؛ والانسان أولى منها بهذه الفضيلة .

وقد حكى ان ذئباً خاطر بنفسه ، لصيانة أولاده ، حتى اخترق الرصاص جسمه وهو ثابت لا يتحرك ، مخافة أن يزعج أولاده بأنينه وصياحه .

وقد قال شاعر فرنسى ما معناه :

ويلاه ! تفكرت بالرغم منى فى هذا الاسم العظيم ! (اسم الانسان) ولكنى خجلتُ مما شاهدت من مظاهر الضعف فى النوع البشرى ؛ كيف لا وهذه معائبه التى تعرفيَنها أيتها الوحوش الضارية .

فالبكاء والعويل ، والأنين والتضرع ؛ كل ذلك من ضروب الجبن.

أيها الانسان ، اعمل عملك الشاق بقوّة حيث ناداك حظك ؛ مثل الذئب الذى تألم حتى مات ، ولم يبدِ صيحة ولا نبأة .

قال شكسبير شاعر الانكليز : — يموت الجبان ألف مرّة ، والشجاع لا يموت غير مرّة واحدة .

وأعلى مراتب الشجاعة ، الشجاعة الأدبية ؛ وهي قول الحقّ ، والسعي وراء الحق ؛ وبها يكون الانسان أميناً مخالفاً لهوى النفس ، شديد الحرص على واجباتهِ ، مهما كانت الحوادث التي تحيط بهِ .

الرجل اذا قوي ضميره ، ظهرت عليهِ علائم الشجاعة الأدبية ، وكان أحضر جناناً ، وأربط جأشاً في أعظم المواقف . حكي ان رجلاً من أهل دمشق سعى بهِ الى أبي جعفر المنصور ، أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية ؛ فأمر باحضاره الى بغداد ، فدخل عليهِ ، وكان المنصور شديد البطش ، سريع الغضب . فقال له : رُفع الينا خبر الودائع والاموال التي عندك لبني أمية ، فأخرجها لنا . فقال يا أمير المؤمنين ؛ أوارث أنت لبني أمية ؟ قال لا . قال : أفأنتَ لهم وصي ؟ قال لا . قال : أثبتَ لك قضاء ذلك المال عندي ؟ قال لا ؟ قال : اذاً فما سبب سؤالك عما في يدي من ذلك ؟ فأطرق المنصور هنيهة ثمَّ رفع رأسه متبسماً وقال لحاجبه الربيع ، أقضِ للرجل حاجته ثم ردّه لأهله .

« ٢ — النزاهة وحبّ الذات »

ان الفضائل الثلاث التي شرحناها ، ليست كل ما يطلبهُ القانون الأدبي ؛ لأنها تختص بواجبات الانسان نحو نفسه .

والمحب لذاتة لا تعوزه مزية من هذه المزايا . مع انهُ لا يكون مثال النزاهة والفضيلة ؛ لأنهُ وان احترم مواهبه البشرية ، نسي انهُ

خلق اجتماعيًّا . والواجب أن يعمل الانسان فى الحياة على هذا المبدأ الصحيح . — أبنائى ؛ تأملوا فى هذا الفضاء ، تروا أن ليس الغرض من الحياة الحصول على مطالبنا دون سواها .

فما الأرض الاّ نقطة فى فضاء الله الواسع ، تدور حول الشمس كسائر الكواكب ؛ وكم كوكب يكوّن دنيا كهذه الدنيا ، ويدور حول كوكب آخر أعظم منهُ جرماً « ذلك تقدير العزيز العليم »

نحن وان كنا على الأرض لسنا لها بمالكين ؛ لأن حدوث أى غرق أو زلزال ، يدمر هذه الأمم أى تدمير .

واذا كانت هذه هى الحقيقة ، فكيف نعتقد ان الدنيا خلقت لنا وحدنا ، وننسى هذا النظام الالهى .

نعم يجب علينا أن نعتقد ان الانسان لم يخلق منفرداً ؛ وان من المتعيّن عليهِ أن يشترك ، ويخلص لأسرته ووطنه وللانسانية والصالح العام ، مراعاة لذلك النظام الاجتماعى .

لما آلت الخلافة لسيدنا عمر ، رضى الله عنهُ ؛ أمر بعزل خالد بن الوليد ، وهو من كبار قوّاد الجيوش الاسلامية ، التى كانت مشتغلة يومئذٍ بالفتوحات الشامية ، لأسباب اقتضت ذلك ؛ فتقبل خالد أمر عزله بالامتثال والاذعان ، وحارب جنديًّا كعامة الجند حتى تمّ فتح الشام . ففرح عمر بنصر الله ، ورضى عن خالد ، وأعاده الى القيادة ثانياً . فانظر كيف تجسمت النزاهة فى نفس خالد ، حتى انهُ لم يرَ فى عزله الاّ

حادثاً مألوفاً ، لم يثنهِ عن واجب الجهاد لاعلاء كلمة الله يوماً واحداً .

أبنائى ؛ ان مصلحة الفرد ، يجب أن تنعدم حيال مصلحة الأمة ؛ وذلك هو السرّ فى موت الجندى ، وقلبه يخفق سروراً ؛ لأنهُ يعلم انهُ يحيي بلاده بموته . وهو السرّ فى أن يواسى الانسان الفقراء ، ويعلّم الجهلاء ، ويتسهل الصعاب فى اكتشاف الحقائق التى ترقى العلم .

ان الانسان الذى يراعى المصلحة العامة ، أفضل ممن يحصر نفسه فى دائرة منافعه الشخصية ، ولا يسمو بها الى مكان أعمّ وأشرف من هذه الدائرة . ان المحبة الذاتية ، ليست مقصورة على الاستئثار بالمنافع ، والاختصاص بالملاذّ ؛ ولكنها تصل بالانسان الى حد نسيان حقوق الآخرين ، مما ينافى الفضيلة ، ويضادّ الخير على خط مستقيم .

ان رعاية المصلحة العامة هى النزاهة ؛ والنزاهة فضيلة من عقائل الفضائل التى يجب على الانسان أن يتحلى بها ، وهى الآثار الممدوحة فى الكتب السماوية ، والآثار الحكمية .

فكن نزيهاً ، ولا تكن محبًّا لنفسك ؛ واذا شرعتَ فى فعل خير ، فانظر ماذا يصيب العالم أجمع من جرّاء امتناعك اذا اقتدى بك غيرك . . . .

قال أحد الفلاسفة « اعمل دائماً بحيث يكون عملك قدوة لأبناء جنسك » مثلاً : اذا مرَّ غلام فى مزرعة فاعترضهُ صاحبها ، فأجاب الغلام بأنهُ لم يتلف شيئاً ؛ فعارضهُ الزارع بقوله : واذا تركتك

وشأنك ، ألا يعمل الناس مثلك و يقفّون على أثرك .

و بهاتين القاعدتين : (الحرص على شرف الانسانية ، ورعاية المصلحة العامة) يحوز المرء شرف الكمال .

« ٣ — خلود النفس »

الاستاذ — أتعرفون علم الحساب ؟

التلميـذ — نعم ، ونعرف قواعده .

الاستاذ — أين الحساب اذا لحظتم ان فى وسعنا أن نحرق كتبه مع بقائهِ فى أذهانكم ؟

التلميـذ — اذاً ، هو فى رءوسنا .

الاستاذ — نعم ، فى رءوسكم ، بل فى أنفسكم .

الاستاذ — اذا لحظتم ذلك ، فأين الخير الذى يأمرنا بهِ القانون الأدبى حيثما أوليتم امرأً معروفاً ماديًّا ، بأن أعطيتموه مالاً ؛ أو أدبياً ، بأن أنقذتموه من الغرق وهو مشرف عليهِ .

التلميـذ -- هو فى أنفسنا (قياساً على المثال السابق)

الاستاذ — نعم ، فى أنفسكم ، وذلك البِشر الذى يتألق فى اسرّة وجوهكم ، ناشئ من السرور الذى كافأكم بهِ الضمير ؛ وهو منشأ شعوركم بكبر قيمتكم بما أضيف الى شخصيتكم من الكمال ، باستمراركم على اسداء المعروف ، وايلاء الجميل ؛ وهو منبع ما يلابس أجسامكم

من النشاط الذى يشابه نشاط الاجسام بالرياضة البدنية .

والخير لا تزول نتائجه بزوال الجسم ؛ وهذا الاعتقاد هو الذى يدفع الانسان الى الاحسان ، ولو تخيل انهُ مشرف على موت فجائى ؛ وهو الذى يحبب الى الجندى بذل روحه فى خدمة وطنه .

نعم ، ان الاعتقاد بأن للأرواح حياة باقية ، هو الذى يبعث بالمحسنين الى بذل أموالهم فى سبيل البرّ ؛ وهو الذى يدفع دعاة الاصلاح وهداة الأمم، الى استعذاب ما يقاسون من أنواع العذاب .

وليس من المعقول أن الاخيار والاشرار متساوون بعد مماتهم ؛ وان العمر الطويل الذى يقضيه صاحبه فى اسداء الخيرات وعمل المبرات ، يكون بلا نتيجة . واذا لم يكن من المعقول ذلك ، وجب أن نسلم بخلود الروح .

والخلاصة ان الخير كامن فى النفس ، كمون النار فى الزند ؛ وان النفس خالدة لا تفنى بفناء الجسم، كما أجمعت عليهِ الشرائع السماوية كلها

قال الامام الشيخ محمد عبده :

هذا الشعور العام بحياةٍ بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشّيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضالة عقلية ، أو نزغة وهمية ؛ وانما هو من الالهامات التى اختص بها النوع الانسانى . . . اهـ

واذا لحظنا ما أثبتناه ، من أن قواعد الحساب كامنة فى النفس ،

وانها كانت موجودة قبل اتصالها بالأذهان ؛ جاز أن نحكم – قياساً على ذلك – ان الخير كامن فى النفس ، وانهُ كائن قبل اتصاله بها ؛ وان هذه الصفات المحمودة التى تندرج فى هذه الكلمة الطيبة ، — الخير — صفات شريفة ، لذات مقدسة مخالفة للحوادث ، متصفة بالوجود ، والقدم ، والبقاء ، وسائر صفات الكمال ، منزهة عن كل نقص وهى : « ذات الله سبحانهُ وتعالى »

الفصل الرابع — فى الواجب

(١) « الواجب »

الواجب هو الشعور الذى يحمل الانسان على الانقياد للقانون الادبى ، وهو يأمرنا بما يأمرنا بهِ ذلك القانون ، من اجتناب الحرص على المنفعة الذاتية ، ومطاوعة الشهوات النفسية ، التى أخصها صفتا البغض والحب .

لأن البغض شعور دنىء سافل ، لا يخامر الاَّ ذوى النفوس الصغيرة ؛ واذن ، يجدر بنا ألاَّ نسىء الى من أساء الينا ، وأن نعتبره من المنكودين الجديرين بالشفقة والاحسان .

الحب فطرى فى الأهل والأقارب والأحباء ، واذن ، لا يصح أن يكون هو قاعدة مبرَّاتنا ، ولا ان تكون مقصورة على هؤلاء ، لانسياقنا

الى مواساتهم ، ومعاونتهم بالفطرة ؛ ولكن يجب أن تكون ميولنا شاملة الاقارب والاباعد ؛ وأن نساعد البائسين ، وان كانوا بعداء ؛ وننقذ من يقعون فى مآزق الأخطار ، وان لم يكونوا من الأهل والأنصار

وعلينا بالاجمال أن نتحلى بالفضائل . ونتخلى عن الرذائل؛ وأن نقرن أعمالنا بالنية المحمودة ، لأنها أساس الثواب والعقاب ؛ وألاَّ نجعل المعروف ذريعة لنيل غرض من الأغراض ، لأن ذلك يخرجهُ من دائرة الفضيلة ، وان لم يخرجه من دائرة الاعمال الرذيلة .

حكى أن تاجراً أصيب بحريق دمر له أموالاً عظيمة؛ فاجتمع اخوانه من التجـــار ، وأظهروا أسفهم وحزنهم على ما أصاب أخاهم بخطابات طويلة عريضة؛ وكان كلٌّ يختم خطابه بقوله : اشارك أخى فى مصابهِ العظيم . الى أن قام آخر و بيده كيس نقود وقال : انى اشارك أخى فى مصابهِ العظيم بعشرة جنيهات ، ولفت نظره الى من بجواره وقال له : وأنت بكم تشاركهُ ؟ فقال بعشرة ، وفتح باب الاكتتاب ؛ فاجتمع له مال عوَّض عليهِ ما اكلهُ الحريق . فزالت نكبة الرجل بالاشتراك الفعلى فى مصابهِ «ولا خير فى قول اذا لم يكن فعلاً»

« ٢ — القانون الوضعى »

القانون الوضعى هو القانون الذى تضعهُ الحكومات ، ليكون أساساً للنظام الادارى ، وقاعدة لاستمتاع كل فرد من الافراد بحقوقهِ الفردية

والاجتماعية ؛ وهو الذى ينهى الانسان (والاَّ كان مسئولاً جنائياً أو مدنياً) عن كل قول أو عمل ينشأ عنهُ ضرر للفرد أو الأمة . وحينئذٍ ، يكون مغايراً للقانون الأدبى ، الذى يحثّنا على التمسك بالفضيلة ليس الاَّ . ومن الواجب علينا ، أن نحترم القانون الوضعى ، باعتبار انهُ قانون عام ، انبنى على آراء اللجان التشريعية ، والمجالس النيابية ؛ وروعيَت فيهِ المصلحة العامة بقدر الامكان ؛ وليس لنا أن ننتقده ولو كان فيهِ ما يستوجب الانتقاد . لأن اباحة الانتقاد للافراد ، تستتبع تعدد الآراء لاختلاف النظر ؛ والتوفيق بين الآراء المتعددة من المستحيلات .

واذا فرضنا ، ان القوانين العادلة هى القوانين الصحيحة الجديرة بالاعتبار والاحترام ، فالواجب على كل وطنى ، ان يعوّل على ضميره فيما يتعلق بحياتهِ الفردية ؛ وعلى القانون الوضعى فى حياتهِ العمومية ؛ لأنا قضاة أنفسنا ، ولسنا قضاة الهيئة الاجتماعية .

فاحترام القوانين سياج الممالك الذى يصونها من الاختلال والانحلال ؛ وهو مبدأ العقلاء الذين يحبون الخير لبلادهم . واعتبر ذلك فيما حكى من انهُ كان فى حاضرة اليونان (اثينا) منذ ثلثمائة وألفين سنة ، حكيم اسمهُ (سقراط) انصرف الى تهذيب الشبان ، وحثهم على التمسك بمبادئهِ ؛ فوجد عليهِ فريق من معاشريهِ ، فأجمعوا كيدهم ابتغاء اهلاكه ، فتقوّلوا عليهِ ، وساقوه الى محكمة فاسدة ، فحكمت عليهِ . فانبرى فريق من أشياعهِ وأنصاره الموسرين ؛ ومهدوا له سبيل الفرار

من السجن ، والتخلص من آلامهِ . فاستخف رأيهم ، فألحوا عليهِ ، فصاح فيهم قائلاً : «وقوانين الوطن» ، أيجمل بى أن أخالف القوانين وأنا أحق باتباعها واحترامها ؟ انى لأوقن اذا أجبت صوتكم ، ان ضميري يو بخنى تو بيخاً شديداً ، و ينادينى بهذه الجملة :

« أتخون بلادك يا سقراط ؟ »

لا ! لا ! ان موتى وأنا برى، مع احترام القوانين التى هى قوة الوطن وساعده ، خير مما زينتموه لى .

وليس القيام بالواجب منحصراً فى اتباع القانون الوضعى ؛ بل الواجب اتباع القانون الادبى أيضاً . لان الاول كما تقدم ، لا يتعلق الاَّ بمن ينشأ عنهُ ضرر للفرد أو الجماعة . فالرجل الكسول الجبان الجاهل ، لا يمسهُ القانون الوضعى بأذى ، ولا يعاقبه الاَّ ضميره . أى القانون الادبى الذى يحضنا على مراعاة الفضيلة فى كل زمان ومكان ، و يأمرنا بالعمل فى هذه الحياة المعتبرة ميداناً للمواهب الالهية .

(٣) « الأدب »

الاستاذ — أتعرف علم الأدب ؟

التلميذ — أسمع انهُ ينبهنا الى ما يجب فعله ، وما يجب تركه .

الاستاذ — نعم .

التلميذ — اذن ، لا داعى الى معرفة هذا العلم ، اكتفاءً بضميرنا

الذى يرشدنا الى الخير والشرّ ، والقانون الوضعى الذى يرقبنا عند فتور الضمير .

الاستاذ — هل تستطيع أن تورد مثالاً لذلك ؟

التلميذ — نعم، كفأت المحبرة أمس ، فسال مدادها على بساط . ولما شاهدتْ ذلك أمى ، استفهمت عمن كفأها ؛ فملتُ بادىء بدء الى الانكار ، واسناد ذلك الى الريح او الهرَّة او أحد الخدمة . ولكنى لم أستطع ذلك ؛ بل أصغيت لضميرى ، وجهرت بالحق بمجرَّد نظرها الىَّ

واذن ، يمكن الاستغناء عن دراسة علم الادب فى سائر المسائل قياساً على هذه المسئلة (بالضمير والقانون الوضعى)

الاستاذ - يا بنى ؛ هذا جواب صريح . ولكن — هل نما ضميرك الى هذا الحد ، بلا تعهد ولا تربية ؟

وهل تتخيل أن تكون ذا أخلاق فاضلة ومبادىء طيبة ، اذا نشأت بالاتفاق فى صحراء ، ولم يتعهدك والداك ، أو لم يدلك أحد على طرائق الخير والشرّ ؛ اذا صادفتَ أعمى مسكيناً فى طريقهِ ، وانشرح صدرك لاعطائهِ درهماً مما معك ؛ أو اذا أُعطيت كعكة أقسامها غير متساوية ، فاقتصرت على تناول الجزء الاصغر — فما الذى دفعك الى الاحسان للأعمى فى الصورة الاولى ، والى الاقتصار على الجزء الصغيرِ فى الصورة الثانية ، أيرجع ذلك الى الضمير وحده ؟ كلا ! . انما يرجع الى الضمير ، والى من ربَّاك وهذَّبك ، ونمى

فيك هذه العواطف الشريفة ، وأرشدك الى أن الاحسان فضيلة ، والاقتصار على الاصغر فصيلة .

ومن ذلك تعلم يا بنى ، ان الضمير وحده لا يكفى فى الدلالة على الخير والشر ؛ وأن لا بدَّ من تهذيب النفوس ، وتقويم الاخلاق ، وتعويد المرء ملازمة الخير ومجانبة الشرّ ، وهو عين علم الادب ؛ وذلك هو الحكم فى ارسال الرسل عليهم السلام . ولو كانت الضمائر وحدها كافية فى الارشاد ، والحث على اتباع الاوامر ، واجتناب الزواجر ؛ ما بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين . وليس علم الأدب من العلوم الصعبة المنال ، كالحساب والجبر والهندسة ونحوها ؛ ولكنهُ عبارة عن المبادئ الطيبة ، والتدرب على الأخذ بها فى القول والعمل .

وهى كما تعلم ، احترام الشرف الانسانى ، وفضيلة النزاهة ، واحترام القوانين ، وحب الوطن وما أشبه ذلك . . .

والمعلم الأول لهذا العلم أمك ، ثم أبوك ، ثم استاذك الذى يسند اليهِ اتمام تربيتك .

وكأنك يا بنى اقتنعت بأن علم الأدب مفيد ، وانهُ ليس من المستحسن ان يهمل الانسان فيشابه النبات الذى ينبت بالاتفاق فى أى مكان ، ولا ينقل لأرض خصبة ؛ وان هناك فرقاً بين ثمر الشجرة البرية ، وثمر الشجرة المغروسة التى يتعهدها غارسها بوسائط النماء .

يا بنى ؛ ان الاطفال الذين يعتنى بتربيتهم ، يحسن مآلهم ، ويجمل

مستقبلهم ؛ كما ان الاشجار التى يعتنى بها تثمر ثماراً طيبة .

واذا كانت قيمة الانسان بآدابهِ واخلاقهِ ، جاز أن نحكم بأن علم الأدب من اخص العلوم التى ترفع قيمة الشخص فى هذا العالم الانسانى .

ما وهب الله لامرئ هبة أفضل من عقله ، ومن أدبه

هما حياة الفتى ؛ فان فقدا فنقده للحيــاة أليق به

الباب الثانى

« ١ — الأسرة »

الانسان مدنى بالطبع ، لا يستطيع أن يعيش منفرداً ، لعجزه عن القيام بجميع لوازم الحياة . واذا كان لا بد من اجتماعه بالآخرين ، كان من واجبات القانون الأدبى مراعاة حقوقهم .

وأول دائرة من دوائر الاجتماع ، هى الأسرة (العائلة) التى تتركب من الأب ، والأم ، وأولادهما ؛ وهى أضيق دوائر الجمعية البشرية التى تعمل فى هذه الحياة على مبدأ التعاون والتناصر ، وأبسط الجمعيات التى يتكوّن منها المجتمع الانسانى .

والأسرة أثر من آثار النظام الطبيعى ، بدليل وجودها فى الحيوان الأعجم ؛ الاَّ ان وظائف أعضائها ، تخالف وظائف أعضاء ما عداها من الأسر . فالطيور تغذى افراخها ، وتدافع عنها ، والذكر لا يفارق أنثاه مدة الحضانة ؛ وكلاهما لا يبعد عن وكره حتى تقتدر تلك الافراخ على الطيران ، وتستقل بنفسها . ولكن ذلك كله ، لا يعادل ما يعمله الأبوان فى تربيتك بحنان ، وشفقة ، ومحبة . واذن يجب عليك أن تعرف ما لهما من الحقوق .

ورئيس الأسرة هو الأب ، وهو الذى تنسب اليه ، وهو المسئول عن معيشة أعضائها وسيرتهم ، وهو الذى يعاهد زوجته على ان تكون شريكته فى الحياة ، وان يساعدها و يرعاها وأولادها .

ما أشبه الأسرة بالجسم ، وما أشبـهُ الأب بالرأس ! وليست واجبات الأب نحو ابنائهِ ، منحصرة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ؛ ولكنها تتناول تهذيب طباعهم ؛ وتقويم أخلاقهم . واذا اقتضت الحال بُعده عن أسرتهِ ، عهد الى الأم فى القيام بتلك الواجبات .

وأما الأم ؛ فوظيفتها من أشرف الوظائف ؛ لأنها هى التى تتعهد الابناء فى أوّل عهدهم ، وتتولى تربيتهم الجسمية والنفسية فى حداثة سنهم ، وهى التى ترسخ تعاليمها فى نفوس ابنائها رسوخ النقش فى الحجر .

قيل ان ابراهيم لينكولن ، (Lincoln) رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، كان ابن رجل حطاب فقير ، وقد ترقى بجدّه واجتهاده الى أسمى مركز فى الحكومة . قال للوفود الذين وفدوا عليهِ يهنئونهُ بمنصبهِ :

« لستُ أحقّ بالمدح من والدتى التى أنا مدين لها بكل شئ »

نعم ان تعاليم الأمّ ترتسم فى مخيلة الصغار ، ارتسام النقوش فى الاحجار ؛ وهى أقدر على تهذيب الاطفال لمعرفة ما يطرأ عليهم فى مختلف أطوارهم . ولذا كانت تربية البنات اساس ارتقاء الشعوب ، لأنهنّ أعضاء المدرسة الأولى ، مدرسة المنزل التى لا تمحى آثارها على مرّ العصور .

وللأبوين كليهما رأى محترم فى الاسرة . والأم تمتاز عن الأب

بزيادة الشفقة والاستعداد لتضحية راحتها وصحتهـا ، حرصاً على راحة ابنائها .

والأب يمتاز عنها بما له من السيطرة الطبيعية على أعضاء الاسرة ، حفظاً لكيانها ، وصيانة لنظامها .

ومن الواجب عليهم ، أن يمتثلوا أوامره ، ويحترموا آراءه ؛ وللأم الحق أيضاً فى ابداء رأيها فيما يتعلق بشؤون الأسرة ؛ لأنها فى مرتبة الأب ، ودرجتها الأدبية فوق كل الدرجات .

والأم هى التى تمثل الارتباط المنزلى ، والمحبة الأهلية ، والواجبات التى تربط الرجل بمنزله ، وهى التى تهيئ أسباب السعادة والهناء .

والأب وكيل الهيئة الاجتماعية فى أسرته ، وعليهِ اداء واجباتها التى ربما اختطفت أحد أبنائهِ ، وهو قرير العين ، ناعم البال ، ليؤدى خدماً أوسع مجالاً وأسمى اعتباراً . وهو الذى يغرس فى نفس ابنهِ هذا ، وجوب انتظامه فى سلك الجند عند طلبهِ ، ليستعدّ للدفاع عن بلاده ، وليفهمهُ منذ نشأته انهُ ليس خصيصاً بأسرته ، وانَّ من الواجب عليهِ أن يستعدَّ لتضحية روحه ، اذا حلَّ خطب بالحرية أو سلامة الوطن .

وهل أتاك حديث رواية هوراس ، (Horaces) تأليف الشهير كورنيل (Corneille) ؟ وخلاصتها أن روما والألب ، كانتا مدينتين عظيمتين ، وطالما تنازعتا المركز الأوَّل بين سائر المدن ، فاتحدت

الآراء محافظة على السلم ، أن يصارع ثلاثة من الالب ، ثلاثة من روما؛ على ان يكون المركز الأول لمن يغلب مندبوها . فجرح فى المناضلة الاولى مندوبو الألب الثلاثة ، وقتل اثنان من مندبى روما وولى الثالث الأدبار ، فصاح الرومان صيحة مؤثرة انتزعت قلوبهم من صدورهم . فاسرعت (چولى) احدى قريبات (هوراس) والد مندوبى رومة الثلاثة ، واخبرته بانهزام روما ونجاة ابنه الاصغر ، وتخيلت انها حملت بشرى اليه . ولكن هوراس رأى ذلك خيانة من ابنهِ لوطنهِ ، وجهلاً بالدفاع عنهُ . فاجابت چولى بأن ابنه قاوم كل المقاومة ، واخواه حيان ؛ ولما أن رأى نفسه عاجزاً عن الدفاع امام الثلاثة الذين احاطوا به احاطة السوار بالمعصم ، تخلص بالهرب ، واسترسلت فى الدفاع عنهُ بقولها : وما الذى كان يفعله آزاء هؤلاء الخصوم الاشداء ؟ فاجابها هوراس بصوت جهورى : « كان يجب أن يموت ! »

فهذا الصوت الرهيب ، الذى انبعث من أب جعل محبة الاوطان فوق محبة الابناء ، كان له أعظم تأثير في نفوس السامعين الذين شاهدوا تمثيل هذه الراوية على أحد المراسح العمومية؛ فاستغرقوا فى البكاء زمناً طويلاً ولم تجف دموعهم ، حتى علموا ان (چولى) تعجلت باخبار (هوراس) بما يخالف الحقيقة ؛ وان ذلك الشاب احتال فى قتل خصومه الثلاثة الذين اختلفت جراحاتهم ، بحملهم بهرب على اقتفاء أثره واحداً واحداً ، وتمكنه من قتلهم على التعاقب ، والفوز بفخار

الانتصار . وما أعظم سرور ذلك الشيخ الذى أصم أذنيه عن سماع دفاع (چولى) ، وأغمض عينيه لئلا يشاهد دموع تلك الباكية !

« ٢ — واجبات الآباء للابناء »

« الاعتناء المادى »

أول الواجبات الأبوية ، العناية بتربية ابنائهم تربيــة جسمية . والآباء مدفوعون الى آداء هذا الواجب بعامل الحنان الفطرى ؛ حتى الحيوان الأعجم مطبوع أيضاً على تعهد اولاده ، وهى سنة من السنن الإلهية التى اقتضاها عمران الكون . على ان صغار الحيوان ربما استطاعت الاستقلال ، والدفاع عن نفسها بعد بضعة أيام . أما الطفل ، فانهُ محتاج الى تعهده فى جميع أطوار الطفولة .

ولا ريب ان الذى يؤدى جميع هذه الواجبات المتنوعة هى الأم ؛ فهى التى ترضعــه وترعاه ، وتتولى نظافة جسمه وثيابه ؛ وهى التى تؤثر راحته على راحتها ، وتستسهل حمله على يدها ساعة وساعات .

وهى التى ينفطر قلبها وتنسكب دموعها ، اذا اعتراه مرض من الأمراض . أما الأب ، فانهُ يصرف اوقاته فى مباشرة اعماله التى يستمد منها ما يساعده على الحياة الطيبة ؛ وصلته بالطفل منحصرة فى عطفهِ عليهِ ، والقيام بشؤونه المادية .

ومن ذلك يؤخذ أن الطفل فى عهد طفولته من اختصاص أمه .

وذلك هو السر فى هذه الشفقة التى لا تحدّ ، وذلك الارتباط المتين الذى لا ينفصم .

فيأيها الأبناء ؛ تصوّروا على الدوام شفقة أمهاتكم ، وانعطافهنّ نحوكم ، وتعهدهنّ اياكم فى جميع أحوالكم ؛ واعترفوا بفضلهنّ واحترموهنّ سرًّا وعلانية ، وسارعوا الى تحقيق مطالبهنّ . ان الذين يرعون حقوق أمهاتهم ولا ينسون فضلهنّ ، أولئك هم المفلحون .

واذا شبّ الطفل ، تجددت وتعددت واجبات أبيهِ له ، فمن ذلك ادخاله اياه المدرسة ، وتعهده بما يربى فيهِ الميول الطيبة والنظر فى مستقبله ، واختيار ما يلائمهُ من الاعمال ، واعداده للحياة الاستقلالية ، حتى اذا مات أبوه استطاع الولد أن يعيش عيشة راضية . لأنا اذا فرضنا ان الطفل يخلف أباه الفلاح فى مزرعتهِ ، فماذا يعمله اذا لم يكن أبوه قد علمه الفلاحة .

فالواجب على الطفل أن يزاول أى عمل من الاعمال ؛ حتى اذا أدى واجب الخدمة العسكرية بمعونة والديهِ ، عاد واستمرّ فى عمله الى أن تتوفر لديهِ أسباب الحياة الهنيئة ، وهنالك يتسنى له ان يكافىء أبويهِ اللذين ربياه تربية صحيحة ، وأحسنا اليهِ — وهو فى المهد — كل الاحسان . وأن يريهما من مظاهر الاخلاص ما يشرح صدرهما .

ما أجمل ذلك الحنوّ وأحلاه ! ان حنوّ الآباء ، واخلاص الابناء قوام السعادة البيتية

« الواجبات العقلية والأدبية »

من الواجبات الأبوية ، تربية الابناء تربية عقلية أدبية أيضاً ، لأن الهيئة الاجتماعية تطالب الأبوين بذلك ، ليكونوا من أعضائها الصحيحة . ولو كانت الواجبات الأبوية منحصرة فى التربية الجسمية ، لأشبه الانسان سائر أنواع الحيوان التى تربى صغارها الى أن تشبّ فتتركها وشأنها .

ومبدأ هذه التربية دور التفاهم . وقد اعتاد الأبوان أن يعهدا الطفل الى امرأة جاهلة ، لا تبث فى ذهنهِ الاَّ الخرافات ، ولا تلقى على مسمعهِ الاَّ الترهات المتعلقة بالمشعوذين والشياطين ؛ فيشب الطفل على مبادىء فاسدة .

مع ان الواجب عليهما ألاّ يسندا تربية ابنائهما الاَّ الى مربيات قادرات على غرس المبادىء الصحيحة ؛ وعليهما أن ينبها الطفل فى حداثة عهده الى أن ما نشاهده فى هذا الكون من النظام العجيب ، انما هو نتيجة جريهِ على نواميس طبيعية صحيحة ، ولا بدّ ان يكون له منظم عظيم ، هو الله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ؛ قياساً على ان هذه المصنوعات المحسوسة لم توجد بنفسها .

وعليهما ان يعوّداه احترام الحقائق التى قررها العلماء ، ويرشداه الى فوائد العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء ، وتاريخ طبيعى ، وتاريخ

بشرى ، ورياضة واقتصاد سياسى ، وأدب وغير ذلك بحالة تناسب استعداده وادراكه .

وعليهما أن يغرسا فى نفسهِ حب الوطن ، ويعلماه ما يجب عليهِ له ويفهماه ما له وما عليهِ من الحقوق الاجتماعية . كل ذلك فى أول نشأته ليمتزج بلحمه ودمه .

واذا جاء دور التعليم ، وجب على الأب ان يعلّم ابنه فى المدرسة تعليماً صحيحاً ؛ ولو كان محتاجاً الى مساعدته فى أعماله اليومية ، أو كانت الأم محتاجة لمساعدة ابنتها فى التدبير المنزلى . لأن ذلك لا يدفع مذمة التقصير .

والواجب عليهما ان يعتقدا ان لا حق لهما فى حرمان ابنائهما نعمة التعليم المفيد ، وهل يرضى الأب أن يشبّ ابنه جاهلاً عاجزاً عن الجولان فى ميدان الحياة ، فيعيش عيشة الجهلاء المنكودين الذين لا يفطنون لخداع من يحاولون الاستفادة من جهالتهم .

من العادات المضرّة أن يحرم الأب أبنه التربية رغبة ان يستعين بهِ فى أعماله ، أو ان يعهد تعليمه الى أىّ صانع ليجتنى ثمرة غرسه فى المستقبل القريب. والواجب عليه أن يعلّمه تعليماً مفيداً ، ليحيا حياة طيبة ، وليدرك معانى ما يشاهد من التقدُّم فى جميع الطبقات وجميع الصنائع .

عرفت فلاّحين كانا متجاورين ، وكان لكل منهما ابن ، وليس لأحداهما ثروة تساعدهُ على تعليم ابنه تعليماً صحيحاً . فعمد أحدهما

الى أبنه واخرجه من المدرسة ابتغاء أن يعاونه في اعماله الزراعية قبل ان يتقن القراءة والكتابة؛ فكانت النتيجة ان نسى ما تعلمهُ ، وان عكف على اللهو واللعب فى أوقات الفراغ، حتى حان ميعاد التجنيد فقضى مدته بين اهانة وعقاب ، لعدم استعداده لاداء واجباته بشكل يُرضى . وعاد الى أمه التي فقدت زوجها اثناء غيابه ، فأخذ يعملان بأجر زهيد ، وعاشا فى عسر وعناء ، ولم يتسنَّ له ان يقترن باحدى الفتيات لاعراضهنَّ عنه لسوء حالتهِ بعد كبره

أما الآخر ، فقد أهل ابنه فى المدرسة الى ان ناهز الرابعة عشرة ولما انتظم فى سلك الجند ، أدَّى واجباته بعناية ونشاط ؛ فترقى الى رتبة ملازم ومال الى الاستمرار ، فحاز رتبة عالية ، كما حاز وساماً على أثر جرحه فى أحدى الوقائع الحربية ، وعاد بعد ذلك الى أبيه وله معاش غير يسير ، وله سيرة مرضية دفعت تاجراً كان قريباً من منزله الى أن يتخذه كاتبه . ثم اقترن باحدى الفتيات المهذَّبات ، وعاش عيشة السعداء ، واستعدَّ لأن يعاون أبويهِ عند عجزهما عن فلاحة الارض . أليس ذلك دليلاً كافياً على فضل التعليم ؟

والوجب على الأب أيضاً ، أن يحبب الى ابنهِ كل فضيلة ، ويبغّض اليهِ كل رذيلة ؛ وأن يعوّده تنظيم العادات ، واحترام نفسه ومعاشريهِ

وحسب الأب الذى يقصر في تربية ابنائه ، أن يكون له

فى الجمعية البشرية أبناء أشرار .

طلب رجل من (ارستيب) الفيلسوف اليونانى ، أن يربى له ابناً ؛ فطلب الفيلسوف مالاً ثقل على الرجل فقال له : يمكننى أن أشترى بهذا المقدار عبداً . فقال نعم ، فيكون عندك عبدان !

وحسب الأب الذى يعنى بأبنائه ، ان يكون له فى المجتمع الانسانى أبناء أبرار ، لهم مكانة شماء فى نفوس معاشريهم .

حكى ان فتًى تكلم بين يدى المأمون فأحسن فى القول . فقال له : ابن من أنت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين . فقال : نعم النسب انتسبتَ اليهِ .

ولقى هارون الرشيد علىّ بن حمزة الشهير بالكسائى إمام النحاة فى عصره . فوقف بموكبه وتلطف فى السؤال عن حاله ، وكان احتجب لمرض فقال : أنا بخير يا أمير المؤمنين . ولو لم يكن من ثمرة الأدب غير ما وهب الله تعالى له من وقوف أمير المؤمنين لكفى ، ودعا له بالخير .

وليس الغرض أن يكتفى الأب بتلقين ابنائهِ المبادىء الطيبة ؛ بل الواجب ان يكون لهم قدوة حسنة ، يعطيهم دروساً عملية تهذيبية بأعماله . لأن الاطفال مطبوعون على التقليد ، ولا يتصوَّرون الاّ الكمال فى آبائهم ؛ فيندفعون بعامل فطرى الى محاكاتهم .

وقد حكى ان زعيم عصابة من اللصوص فى آخر القرن الماضى ، فى جزيرة صِقلّية ، أصبح ذا ثروة طائلة يسرت له أن يعيش عيشة

رخاء فى منزله الذى لم يستطع احد الاهتداء اليهِ ، لأنهُ فى قمة جبل شامخ . وانهُ لما مال ميزان حياته ، كفر عن سيئاته بالانابة والطاعة ؛ ولكنهُ كان على الدوام فى كدر عظيم لاعتقاده ان ابنه ريحانة فؤاده وموضع آماله ، سيقفو أثره ، ويكون من الاشرار . وقد رسخ فى نفسهِ هذا الاعتقاد بما استنتجهُ من هذه الحادثة ، اذ ضلَّ فلاح فى الجبل يوماً ، بعد ان اصطاد حيواناً لذلك الزعيم ؛ فلقيهُ ابنه وأسره لمعاقبته على جراءته . وما تنفس الصبح حتى أقبل ابن الفلاح يستعطف الزعيم ، ويرجو أن يحله محل أبيهِ ، وان يقتص منـهُ بعد كما يشاء ، لشيخوخة أبيهِ ، وعجزه عن احتمال العقاب ، وقال غير ذلك ؛ ممـا حمل الزعيم على أن يقارن بين هذه الحالة وبين حالة ابنـه الذى همَّ بقتله منذ أيام ، فسأل الفلاح عما اتخذه من الوسائط فى تربية ابنه هذه التربية التى وضعتهُ فى صفّ الاتقياء الذين يعرفون حقوق الآباء . فأجابهُ الفلاح بأنهُ كان صالحاً فاقتدى بهِ ابنه . وهنالك أدرك الزعيم، أن ابنـه سيكون من الاشرار ؛ لأنهُ هو كان من الاشرار الفجار « ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده »

« ٣ — السلطة الابوية »

الاستاذ — لِمَ تطيع والديك اذا أوصياك أن تتقن أعمالك المدرسية، وتحترم معلميك، وتراعى الآداب مع الأجانب، وتعامل

اخوانك بالوداعة ولين الجانب ، وتعطف على البائسين ، وتحسن الى الفقراء وغير ذلك من مكارم الاخلاق ؟

ولمَ تطيعهما اذا أرشداك الى مجانبة الضوضاء في الفصل ، والكذب ، وايذاء زملائك ، والاعراض عما ليس لك ، وغير ذلك من الصفات المرذولة ؟

التلميذ — لأنى أعتقد ان وصايا الأبوين ، انما ترجع الى الخير الذى يحثنى على عمله الضمير .

الاستاذ — نعم ؛ ولم تطيعهما اذا أمراك أن تعمل عملاً مباحاً ، كأن أمرك أبوك ان توصل خطاباً الى مكتب البريد ، أو أمرتك أمك أن ترقب المنزل اثناء غيابها عنهُ حتى تعود ؛ أفتطيعهما لأن فى قدرتهما أن يعاقباك ويطرداك ، كما يعاقبان ويطردان الخدمة الذين لا يفعلون ما يؤمرون .

التلميذ — كلا ؛ ان طاعتى اياهما مبنية على انهما سبب وجودى فى هذه الحياة ، وان لهما الفضل العظيم فى تربيتى تربية جسمية وعقلية .

الاستاذ — قد أصبتَ يا بنىَّ ؛ لأن من الواجب على الطفل أن يخضع لارادة والديهِ ؛ وان يعرف ان حياته مرتبطة بحياتهما ، ارتباط حياة الفرع بحياة الأصل الذى ينبت بجانبه ؛ وان يراعى ذلك الشعور الشريف الذى يدفعهما الى تعهده ، والمبادرة الى اجابة مطالبه . وتلك هى الشفقة الوافرة التى يمثلانها أجمل تمثيل اذا صادفته شائبة من

الشوائب ؛ وان يستحضر فى ذهنهِ على الدوام ، ان ليس فى معاشريهِ من يحبّ له الخير والسعادة حبًّا صحيحاً الاَّ أبواه اللذان يسعدان بسعادتهِ ، و يشقيان بشقاوتهِ .

يجب على الولد ان يفهم كل هذه المعانى ؛ وان يطيعهما اطاعة جسمية وقلبية ؛ وان يخلص لهما فى السرّ والعلن ؛ وان يعمل بنصائحهما وان يعتقد كل الاعتقاد ان الفوز والفلاح فى امتثال اوامرهما ، والخيبة والخسران فى مخالفتهما .

ولقد رأيت ولداً يتراوح سنه بين عشر سنوات ، واثنتى عشرة سنة ؛ خرج وقت الأصيل رغبة أن يلعب مع رفقائهِ فى المرج ، وخالف أمه التى أمرتهُ أن يأخذ رداءه مخافة البرد . فكانت النتيجة أنهُ مرض بعد ثلاثة أيام ، وكاد يذهب فريسة الحمى . . ؛ ولما ناهز الثالثة عشرة من عمره ، خالف أيضاً أباه الذى أراد أن يخلفه فى عمله ، وسافر الى باريس ابتغاء ان يمارس صناعة أرفع من صناعة أبيهِ ؛ فباء بعد ثلاث سنين بالخيبـــة ، وقد أضوتهُ العلل والامراض ، وأصبح محتاجاً أولاً لاكتساب الصحة التى توقف عليها شروعه فى عمل من الأعمال . هــذه نتيجة مخالفة الوالدين ، والاستخفاف بنصائحهما . فيأيها الابناء ؛ اتبعوا اوامر والديكم ، واجتنبوا نواهيهم ، واصغوا لنصائحهم ، ولا تستخفوا بآرائهم تفوزوا فوزاً عظيماً .

ولقد كان الاب معتبراً فى شريعة اليونان والرومان ، (منذ ألفى

سنة) كالمالك المطلق لابنه ؛ ولذلك كان له الحق ان يعاقبهُ بالسجن والضرب اذا وجد انهُ غير مستقيم ، وانهُ لا يستحقّ التحلى باسم أسرته ؛ بل كان له الحق بقتله فى أحوال مخصوصة . من ذلك ان القائد الرومانى مانلينس (Manlins) حكم على ابنهِ بالاعدام ، لأنهُ حارب العدوّ وخالف أمر أبيهِ ، ولم يشفع له انتصاره عليـهِ ؛ وان القنصل الرومانى بريتيس (Brutus) حكم على ابنهِ بالقتل ، لأنهُ خان الوطن . وقد صدر الحكم من الأول باعتباره قائداً . ومن الثانى باعتباره حاكماً . أما فى هذا العهد ، فللأب ان يعاقب ابنه بما لا يفضى الى اتلاف عضو من أعضائهِ ؛ وله ان يزجهُ فى سجن الأحداث وان يحبسهُ اذا لم يمتثل ، وله وحده ان يقوّم اعوجاجه

والقانون الفرنسى يعترف بالسلطة الأبوية فى احوال كثيرة أخرى .

فالوطنى فى الحادية والعشرين يكون حراً فى اعماله ؛ ولكن ليس له ان يتزوج ، قبل أن يناهز الخامسة والعشرين ، الاَّ بموافقة أبيه . فاذا ما تجاوز هذا الحد ، فلا يخضع لأبيهِ بواسطة القانون الوضعى أو الشرطة ؛ بل بشعوره النفسى الذى يصور له ما بينه وبين أبيهِ من العلائق المحترمة ، وما عليه له من الحقوق المقدسة التى لا يدركها تمام الادراك الاّ اذا صار رجلاً كاملاً .

« ٤ — احترام الولدين »

من الابناء مَن يخالف والديه ولا يحترم رأيهما ، وهو مخطئ فى ذلك خطأً عظيماً . . . لأنهُ فضلاً عن استظلاله بظلهما واستمتاعه بنعمهما ؛لا يدرك ادراكهما ، ولم يكتسب من التجارب ما اكتسبا . فالواجب اذن على الابناء ؛ أن يطيعوا والديهم ظاهراً و باطناً ، طاعة صادرة عن شعور صحيح، مقرونة بالمحبة والاحترام . ان احترام الوالدين أول شعور ينبعث فى القلب الطاهر . هل تعرف حقيقة الاحترام ؟ متى أقبل الليل وآنست ضياء الكواكب المنثور عقدها فوق رأسك التى تخرق حجاب الظلمة ، كأنها عيون ترقبك من الملأ الأعلى ؛ ومتي ساد السكون على الارض وهدأ الكون ؛ ألا تشعر بأن رعدة أخذتك . اذا فكرت فى الحياة الباقية المتعلقة بهذه الافلاك ، المعتبر كل منهـا شمساً ؛ ألا ترى نفسك صغيراً فى نهاية صغرك ، متأثراً بهذه المناظر العديدة؛ ألا تقرّ بقدرة الموجد لهذه العجائب ، ألا تكون على أهبـة الركوع على ركبتيك وعيونك مستعبرة ، خاشعاً متصدعاً من خشية الله ؟ هذا الاحترام هو الاحترام الدينى بمعناه الأدبى .

ومتى رأيت شيخاً يكسوه الوقار وتعلوه المهـابة ، وعلى صدره الوسام الأحمر ، عنوان الشرف ؛ وقيل لك هذا جندى جرح فى

حرب فى سبيل الدفاع عن بلاده ؛ او هذا طبيب يخاطر بنفسهِ فى الوباء رغبة ان ينقذ ابناء جنسهِ ؛ وعلمت ان حياة ذلك الرجل موقوفة على اسداء المبرّات لبنى الانسان ؛ ورأيتـهُ محفوفاً بصنوف التجلة والاحترام . أما تندفع بعامل نفسىّ الى احترامه والوقوف حتى يمرّ ذلك الوطنى ؟ هذا الاحترام أيضاً هو (احترام أدبى) ، يبعثه فى النفس منظر الفضيلة . وقد قال الفيلسوف كانت : (Kant) « شيئان يملآن النفس احتراماً واعجاباً ، منظر السماء ذات البروج ، والحنو الأدبى الذى يملأ النفوس سروراً وإعجاباً »

فالاحترام الواجب لوالديك ، هو الاحترام البنوى ؛ فاحمل هذين الشعورين لأبيك وأمك ، فانهما أحق بمراعاة واجب الله نحوهما ، لأنهمـا سبب الحياة ، فاكرامهما أوكد وأوجب من اكرام ذلك الجندى وذلك الطبيب ، إذ ضحيا أنفسهما اكثر من ذلك .

ان الأم التى لا تهاب المرض فى العناية بولدها ، والأب الذى يشتغل طول حيـاتهِ محبة ان يدخر لابنائهِ ما يرفّه عيشهما ، لأحق بالاحترام والاجلال من كل فرد سواه ، ولو كان جاهلاً ؛ لأن قيمتهُ ازاءك ليست مرتبطة بالعلم ، ولكنهـا مرتبطة بالعناية العظيمة التى شملك بها .

ان الابناء الذين يقابلون — بعد يسارهم — آباؤهم الشيوخ ، الذين ربوهم وأبلغوهم الى هذا الحد ، بالاساءة والاستنكار ؛ هم الابناء

اللؤماء الجبناء الذين يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

أما الابنـاء الفضلاء ؛ فانهم وان علت أقدارهم وارتفع شأنهم لا يخجلون من وكرهم الأول الذى درجوا منـهُ ؛ بل يكون قاعدة فخرهم وحجة نبوغهم يعودون الى والديهم ؛ يحملون أكاليل الشرف الأسنى التى حصلوا عليها ، فيصبح ذلك العش عامراً بالفضل ، وقد خلت منهُ القصور الشاهقات .

« ٥ — الاعتراف بجميل الوالدين »

اذا دعاك جارك للتجوال فى مزرعتهِ وأهداك من ثمارها ؛ وجب أن تشكر له حسن صنعه . واذا اعتاد ان يتحفك بالهدايا ؛ وجب ان تعترف له بالجميـل ؛ وان تعتبره ذا حق عليك ، وان توجب على نفسك اداء مطالبه ، وان تخدمهُ ولو بمنع رفاقك عن رمى أشجاره بالأحجار ؛ والاَّ اعتبرتَ فى نظر العقلاء منكراً للجميل . وانكار الجميل من الصفات المرذولة التى يجب على الانسان أن يتطهر منها . نعم ؛ لأن من الواجب على المرء ان يقابل الجميل بالجميل ، وان يعتبر نفسه مديناً لمن يسدى اليهِ معروفاً .

فاذا فرضنا ان حسيناً التاجر ، ليست أعماله منتظمة ، وان عليهِ ديوناً طائلة ، وانهُ اذا لم يدركه بالمساعدة وقع فى شدة . . . وفرضنا ان له صديقاً اسمه (على) ، أقرضهُ ألف دينار وأنجاه من تلك الشدة .

فالواجب على حسين فى هذه الصورة ، ليس منحصراً فى اداء ألف الدينار؛ بل الواجب عليهِ ان يساعد صديقه عليًّا أيضاً ، اذا صادف ما يستوجب المساعدة ؛ والاَّ كان منكراً للجميل ، آثماً فى نظر القانون الادبى، مجرماً واصًّا أمام القانون الوضعى، اذا توقف فى اداء ذلك الدين

واذا كان من الواجب الاعتراف بالجميل ، ومجازاة الاحسان بالاحسان ؛ فأجدر بالانسان ان يقابل بالاحسان احسان والديه اللذين تركا له ثمرة اقتصادهما ، وخلاصة أعمالهما فى حياتهما ؛ وان يتذكر لهما فضلهما فى تربيتهِ الجسمية والنفسية ، وارشاده الى مصاحبة الفضيلة ، ومجانبة الرذيلة ؛ وان يلهج على الدوام بحمدهما والثناء عليهما ؛ وألاّ يتأثر منهما اذا رمياه بكلمة قاسية . وليت شعرى ، مامقدار هذه الكلمة فى جانب هذه الفواضل الجزيلة ، التى أفاضاها عليهِ فى أدوار حياته .

ان الولد الذى لا يعترف بواجبات بوالديه ، ولا يندفع بشعوره الى ادائها ؛ لا يرجى منهُ خير للوطن ، ولا للهيئة الاجتماعية وهل يتصوّر ان يكون أى انسان عادلاً ، أو نافعاً ، اذا لم يكن عادلاً نحو أمه وأبيه ؟

والطاعة ، والاحترام ، والاعتراف بالجميل ؛ كل ذلك يجب ان يكون مقروناً بالمحبة القلبية ؛ على ان هذه المحبة فطرية ، تتوقف على ارادة الانسان . لأن الولد — ان لم يشعر فى دور الطفولة بأنهُ منجذب بميل طبيعى الى ذينك الثغرين الباسمين ، المملوءين عطفاً وحناناً —

لا ريب أن يشعر بذلك اذا شبّ . وكلما نما ، ازداد ادراكه بمقدار ما أولى من الاحسان ؛ حتى اذا بلغ أشدّه ، تحوّلت محبته لأهله شفقة على ابنائهِ ؛ فيعمل لسعادتهم ، كما كان أبواه يعملان لسعادتهِ .

« ٦ — واجبات الأولاد نحو أنفسهم »

الاستاذ — ألك اخوة يا حسن ؟

التلميذ — نعم ؛ لى أخ يناهز التاسعة عشرة ، وقد انتظم فى سلك البحريين المشاة هذا العام . ولى أيضاً أخت سنّها ست سنوات ، وستدخل المدرسة فى العام المقبل .

الاستاذ — أتحبهما ؟

التلميذ — نعم ؛ أحبهما حبًّا جمًّا .

الاستاذ — ولِمَ يا بنىّ ؟

التلميذ — يا سيدى ؛ هل الاخوة يتباغضون ؟

الاستاذ — نعم ؛ فى الاخوة من يتجرّد من العواطف الشريفة ، فيكون الى الوحش أقرب منهُ الى الانسان ؛ وهل تعرف منشأ تحابّ الاخوة ؟

التلميذ — لا أستطيع ان أشرح ذلك شرحاً وافياً ، وربما كان السبب انهم من أسرة واحدة .

الاستاذ — لعلك تريد انهم ولدوا من أب واحد ، وأم واحدة ،

وانهم بذلك يشابهون فروع الشجرة الواحدة ، وان ذلك يستتبع توادّهم وائتلافهم .

نعم ؛ ولكن ليس ذلك كلّ السبب ، لأن هنـاك رابطة قوية أخرى ؛ هى الرابطة القلبية المبنية على ان كلا الاخوين ، كجزء من دم الوالدين . فهى أساس ما نشاهد من تحاب الاخوة وتعاطفهم ؛ وهى مرجع ما يكون من تشابههم فى الوجوه والطباع .

وقد تختلف ميولهم فيتنافرون ؛ لأن اتحـاد الافراد فى شعورهم نحو شىء من الاشياء ، يستتبع توادّهم والعكس بالعكس .

على ان هناك داعياً آخر لتوادّ الاخوة ، وهو مراعاة احساس والديهم اللذين يحزنهما تنافر أبنائهما .

التلميـذ — يا سيدى ؛ غاب عنا شىء .

الاستاذ — ما هو ؟

التلميـذ — لمَ لا تكون القرابة وحدها ، كافية لاتحاد ابناء الأسرة الواحدة فى المشارب والميول ، لضرورة ان المخالطة والمعاشرة تستوجبان ذلك ؟

الاستاذ — هلاَّ أوردتَ مثلاً أوضح ؟

التلميـذ — اذا دخل الانسان المدرسة ، شاهد من البنين والبنات من لم يرتبط بهم قبلاً ؛ ولا يلبث قليلاً ، حتى ينجذب اليهم بمغناطيس المعاشرة ، ويرتبط بهم كل الارتبـاط ، فيداعبهم ويفاكههم ؛

فيتعاطفون ويتزاورون . واذا كان ذلك نتيجة هذه المصاحبة الموجزة ، فما أحرى ان تكون المخالطة الدائمة ، والمعاشرة المستمرة ، داعيـة لتوكيد روابط الالفة بين الاخوة .

وكيف يرتبط الانسان بالاجنبي ، برابطة المحبة ؛ ولا يرتبط بهذه الرابطة بأخيه .

الاستاذ — ما أقوى برهانك يا بنيّ ! وهل تحب أخاك الاكبر ، واختك الصغرى بمقدار واحد ؟

التلميذ — كلاّ ! أنا أصغى لصوت أخى الاكبر وسنى اثنتا عشرة سنة ؛ وأفعل ما يأمرنى بهِ ، وعندى له شيءٌ من شعور الاحترام الذى أحمله لأبى وأمى ؛ على أن ائتناسى بهِ ، اكثر من ائتناسى بوالدى . فقد أقص عليهِ ما أفعل وما أشاهد ، وأطلعهُ على أحوالى ، وأخبره بأخبارى المدرسية ، وأتلقى بالبشر نصائحه المفيدة . وأنا بالنسبة لأختى الصغرى مثله بالنسبة لى . فاذا عهدت أمى الىَّ ان اروضها توخيت أسباب رضائها وسرورها ، ووضعت نفسى موضع أبى العطوف ازائها . وهكذا يجب على الاخوة والاخوات ان يتآلفوا ويتعاطفوا ، ويتعاونوا على حسب استعدادهم وأعمارهم . فالكبار يعطفون على الصغار ، ويعاملونهم بالشفقة والرحمة ، ويتولون تربيتهم وتهذيبهم عند ممات والديهم ؛ وعلى الصغار ان يقابلوا ذلك بالشكر والمحبة والاحترام وهل فى الكبار من يختص بالرآسة بعد أبيه ، ويستأثر بالثروة ياسيدى ؟

الاستاذ — نعم يابنيّ ؛ ولكن ذلك ظلم مبين . والواجب على الأب ان يوزع على بنيه ثروته بالعدل ، سواء كانت موروثة او مكتسبة بجده وعمله . والواجب على دعاة المساواة بين النـاس فى المجتمع الانسانى ، ان يطلبوا تساوى افراد الاسرة

يجب على كبير الاسرة ان يسهر على صغارها ، ويحميهم من الاخطار المحدقة بهم ، و يسعى بالاجمال لسعادتهم فى الحال والاستقبال. وهنالك عبارة تتضمن معانى شتى مرتبطة بما رددته على سمعك ، لرجل لبث فى السجن سنين عديدة وهو برئ . وقد عرّفه سجنه قيمـة الاسرة التى حرمها (نحن أبناء أب واحد ، وأم واحدة ، وقد اتحدنا فى الدم ، وتشابهنا فى كثير من العادات ، فلِمَ لا نتآلف ونتعاطف)

كن كريماً فى علائقك الاخوية ؛ واذا اقترف أحدهم ذنباً ، فقابله بالصفح والعطف ؛ وما أحرى أن تكون شفقتك على أخوتك ، أوفر من شفقتك على الاجنبى . ان مخالطتك اخوتك لا تنافى ما يجب عليك من مراعاة الآداب معهم . فواظب على تعزيتهم وتسليتهم فى أحزانهم ، وأحسن معاملتهم . ان الذين لا يعاملون اخوتهم معاملة حسنة ، بالعطف والرحمة والحنان ، اولئك هم الخاسرون اعمالا .

« ٧ — واجبات الأطفال فى المدرسة »

ليس فى وسع الآباء ان يتعهدوا أبناءهم بالتربيـة العقلية الى ان

يكونوا رجالاً عاملين فى مجال الحياة ؛ ولذلك يدخلونهم المدرسة . وما هى المدرسة ؟

أهى المحل المقدّس الذى يستفيد الانسان فيه ما يرقيهِ ؟ أهى محل تعليم القراءة ، والكتابة ، والحساب ونحو ذلك ؟ نعم ؛ ولكن يجب تصويرها بأنها مطلع شمس الفضيلة ، ومشرق نور العرفان ، والمعهد العظيم الذى يعتبر المنزل ركناً من أركانهِ ؛ والذى تشرف فيهِ عناية المربين على الناشئين ، اشراف عناية آبائهم وأمهاتهم المربيين الاولين. هى المعهد الذى يعهد الأب فيهِ الى المعلم تربية ابنه وتهذيبهُ على قاعدة انهُ نائب عنهُ ؛ مما يجعل للابناء على المعلمين حقوقاً محترمة ، ويجعل لهؤلاء على الابناء حقوق الآباء المقدسة .

هى المعهد الذى يجتمع فيهِ الناشئون أشرف اجتماع ؛ فيمثلون الاخوة . تشملهم دار واحدة ، كأسرة واحدة .

ومن أخص واجبات المدرسة ، ان تهيئ الناشئ لأن يكون من رجال الغد الفضلاء الذين لا يجهلون ما يجب عليهم نحو أوطانهم . لأن المعلم نائب عن الأب فى تربية عواطف الشرف فى الطفل ، نائبه فى العدل ، نائبه فى الحرية .

وليس من المعقول ان تتكل المدرسة على التربية المنزلية ، أو تهمل ان تلقى الدروس التهذيبية على التلاميذ الذين سيسند اليهم فى الغد جلائل الاعمال .

وعلى المعلم ان يراعى استعداد التلاميذ ، وأخلاقهم وميولهم ؛ وان يعاملهم معاملة حسنة على قاعدة العدل والمساواة ؛ وان يتذكر على الدوام انهم ودائع الآباء ، وان الودائع جديرة بالصيانة ، خليقة بالاحتفاظ . وعليهِ أن يرفق بهم ، وان يلحظ ان تقرير السلطة الأبوية ، مبنى على وجوب استعمالها بالحكمة والاعتدال .

فاذا كان المعلمين من السلطة ما للآباء ، باعتبار انهم وكلاء ؛ فالواجب عليهم ان يتصرَّفوا فيها تصرُّفاً محموداً .

وعلى المعلم ان يجمع الى التربية العلمية ، التربية الاخلاقية ؛ وان يعتقد ان الاقتصار على الأولى ، ليس كل الواجب .

نعم ؛ عليهِ ان يغرس فى نفوسهم المبادئ الشريفة من حبّ الوطن واحترامهِ ، وحب الأسرة واحترامها ، ونحو ذلك مما يحقق رغائب آبائهم الذين وكلوا اليهِ أمر تربيتهم .

ان العلم أقوى مربٍّ للشبيبة الوطنية . فاذا راعى السادة المعلمون هذه المبادئ القويمة ، فلا ريب ان تصل مصر الى ما ترمى اليه فى المستقبل القريب .

وليس على التلاميذ للمعلم واجب الطاعة فقط ؛ بل عليهم ان يحترموه ويخلصوا له ، احترامهم واخلاصهم لآبائهم .

وليت شعرى أيها التلاميذ ، مَن أحقُّ بالاحترام والاخلاص من رجل وقف حياتهُ على تهذيبكم ، واعدادكم للدخول فى مصاف الرجال .

مَن أولى بالمحبة من ذلك الرجل الذى يكاشفكم بأسرار الحياة ، فتأمنوا مواقع الزلل — من المتعسر ان يتعلم الانسان بلا مدرسة — فما أشقى امرأً مرّت عليهِ دوائر السنين ، ولم يسترشد بعلم ؛ فهو فى الاقامة غريب ، وفى الاسفار ضال ؛ يدفعهُ جهله الى الاستفهام عن الطريق ، ويضعهُ موضع الاستخفاف والازدراء . واذا اقتضتهُ الحال مكاتبة أهله البعيدين عنهُ ، استعان بأحد المتعلمين .

والخلاصة ، ان الرجل الواجب احترامه احترام الآباء ، هو المعلم. فالمعلم أب ثان

وعلى الأمة أيضاً أن تلحظ ما يقوم بهِ المعلمون من تقوية مدارك الناشئين ، وتهذيب نفوسهم ؛ فتحترمهم وتؤدى لهم حقوقهم .

فلا تكونوا أيها الابناء كالحمقى الذين ينكرون فضل المعلمين ، ويعصون أوامرهم ؛ أو الكسالى الذين يستمرئون البلادة ، ولا يبالون ما ينالهم من العقاب الحالى ؛ على ان عقابهم الدائم جهلهم المضل .

ألا وان السنوات الاربع التى تقضيها أيها التلميذ فى التعليم الأدبى ؛ لا تكفى لاعدادك للعمل فى دائرة الحياة . والواجب أن تقضى الثلاث العشرة المقبلة فى تعلم صناعة ، أو مزاولة تجارة ، أو نحو ذلك .

واذا لم تستفد من زمنك فى المدرسة ، فستكبر وتبقى مدة عمرك غريقاً فى بحر الجهالة .

واذا كانت المدرسة كالأسرة ، فما أوجب ان تعامل رفقاءك التلاميذ معاملة الاخوة . فلئن لم تربطك بهم رابطة القرابة ، فان بينك وبينهم من روابط الجنسية والوطنية والمعاشرة ، ما يستوجب ذلك .

وما أجدر ان تلازم الآداب من الصدق ، ولين الجانب ، والعدل والإباء ، وتجانب النقائص ، من الكذب والحسد ، والعداء وتهييج الخواطر .

ومن الواجب ان تتقن عملك ، وتقبل على دروسك كل الاقبال ؛ وان تزاول الالعاب الرياضية عقب الفراغ من أعمالك المدرسية ، لما فيها من تجديد النشاط ، وتقوية العضلات . واذا اعتدى أحدكم على آخر ، فاصلحوا بينهما بالعدل ، واحرصوا على توكيد الروابط وتوثيق العلائق « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

« ٨ — الخدم »

تشاهد أيها الطفل ، فى مجموع الأسرة أفراداً غير أبيك وأمك ، واخوتك واخواتك . هؤلاء هم الخدم ، الذين يستخدمهم الأبوان لمساعدة الأم فى التدبير المنزلى ، أو الأب فى أعماله الخارجية المتنوعة .

وكانت هذه الاعمال فى سالف الزمن (فى دولتى الرومان واليونان) من أعمال الأرقاء الذين كانوا يملكون بالشراء . وكان من لوازم ذلك ، ان يكون ابناؤهم ملكاً لسادتهم الذين كانوا يرأفون بهم أو يقسون

عليهم بحسب غرائزهم . ولذلك قيل ان رومانيًّا من ذوى الجاه ، كان يقوت نوعاً من السمك بجثث العبيد عند بلوغهم سن الشيخوخة ، او عند مرضهم وعدم الانتفاع بهم . ولكن بظهور الدين المسيحى فى تلك البلاد ، ألغيت العبودية ، او خفت وطأتها . وكانت فى المستعمرات الفرنسية الى ان ألغتها قوانين الثورة الكبرى . وقد استدرك أحد نواب الامة ، عند المناقشة فى هذه المسئلة ان ملاّك الاراضى بالمستعمرات ، فقدوا كل عمالهم ، وان ثروتهم أشرفت على الضياع . فأجابه عضو آخر .

« ان ضياع المستعمرات بأسرها ، خير من بقاء هذا المبدأ »

اما فى هذا العصر ، فقد حرم بيع الرقيق ، وهو مبـدأ الأمم المتمدينة ؛ وفى مقدمتهنّ مصر التى من مبادئها اعتبار كل من وطئ أرضها حرًّا ، والاستعداد لحمايتهِ بقوتها وقضائها .

فليس فى الوقت الحاضر من يشبه أولئك العبيد . ذلك لأن الخدم ، انمـا يخدمون من يريدون بارادتهم ، ويبقون او ينفصلون بحسب رغبتهم ؛ فهم يشابهون العمال الذين يعملون فى أحد المعامل بأجر معلوم، مع التمتع بحريتهم ، وعدم مطاوعة مخدوميهم ، فيما يخرج عن دائرة الخدمة .

والخدم هم الذين وضعوا أنفسهم تحت سلطة مخدوميهم بارادتهم؛ فكأنهم تعاقدوا معهم ، على ان يكون الأجر من جانب المخدمين ؛

والطاعة والاخلاص والاحترام ، من جانبهم .

وحينئذٍ ؛ يجب عليهم ان يطيعوهم ، وان يذكروا ان اتصالهم بالبيوت ، لا ينحصر فى استحقاق اجورهم ؛ بل يجعل لهم فيها مراكز مخصوصة . فيكون لهم ما لها ، وعليهم ما عليها . وذلك يستوجب ان يتحدوا مع مخدوميهم فى الشعور ؛ وان يخلصوا لهم اخلاصهم لآبائهم ، وبذلك ترتفع قيمتهم فى نظر معاشريهم . وفى كل عام يمنح مجمع العلماء الفرنسى ، جوائز الفضيلة مَن يستحقونها من الخدم وغيرهم .

واليك تاريخ خادمة أمينة ، منحها ذلك المجمع جائزة الفضيلة فى سنة ١٨٣٧ :

كان لرجل خياط ابنة اسمها چستين ، (Justine) اضطرت وهى فى سن العشرين لخدمة سيدة فى مدينة فرساى ؛ وكان لهذه السيدة بنت .

فانضمت چستين اليهما وتولين جميعاً العناية بشأنها ؛ وبعد قليل اضطرها المرض الى ان تسافر مع بنتها الى باريس ، فتبعتهما چستين ، فسكنّ غرفة تناسب أعسارهنّ ، واشتغلنَ جميعاً بالتطريز .

وكانت چستين تلاحظ ما كانتا فيهِ من العز والمجد ، وما آل اليهِ أمرهما من العسر والشدة ؛ فتنبعث بعواطف شريفة الى الاحتفاء بهما ، وتدبير شؤونهما ؛ كما كانت تعطيهما ما تكسبه بعد اشتغالها عند مطرز آخر زاد فى أجرها . وما زالت مواظبة على العناية بهما ،

والاعتصام بحبل ولائهما ، وهى تشعر ان سعادتها فى ارتياحهما ، ولو أفضى الى مواصلة ليلها فى العمل بنهارها . حتى لقد أعرضت عما عرض لها من العمل المفيد ، والزوج السعيد ؛ مما دفع السيدة الى ان تحبب اليها قبول هذا وذاك . نعم ؛ أعرضت چستين ، وأعلنت لسيدتها ان حياتها مرتبطة بحياتهما ؛ وان حظَّها متعلق بحظهما . وان من الواجب عليها ، ان تقاسمهما ما يعانيان من متاعب الحياة ؛ الى غير ذلك مما مثَّل اخلاصها أجمل تمثيل . وفى سنة ١٨١٦ اعترى سيدتهـــا داء عياء ، لزمها ستة أشهر ، عانت فيها ما عانت من الآلام ؛ ومع ذلك لم ينطفئ شعور چستين الشريف ؛ بل كانت تعمل فى النهار ابتغاء ان تكسب ما يساعدها على مواساة سيدتها ، وتتولى فى الليل رعايتها ، على نحو ما يشاء الحبّ والإخلاص . واستمرَّت على ذلك الى أن توفيت تلك السيدة ، فتولت رعاية بنتهـا ، وقامت بجميع حاجاتها . هذا الاحساس الشريف ، بعث بالسيدة فى حياتها ، الى ان تذيع فضل هذه الخادمة ، وتعترف بفضلهـــا ، مما لفت نظر المجمع العلمى اليها ، ودفعهُ الى اجازتها . واذا كان على الخدم واجبات للأولاد ، فان على هؤلاء أيضاً لهم واجبات . فلا يجوز للأبناء ان يتصوَّروا ان الخدم أحط منهم ، أو أن يستعبدوهم لأنهم وضعوا أنفسهم للخدمة لا للاسترقاق ؛ وعليهم ايضاً ألاَّ يخالطوهم الاَّ بقدر الحاجة ، لئلا تسرى طباعهم اليهم .

« ٩ — الحيوان »

تشترك مع الانسان فى هذه الحيـــاة مخلوقات أصغر منهُ شأناً ؛ ولكن لها مراكز عظيمة فى المنازل والمزارع : وهى أنواع الحيوان ، واكثرها اختلاطاً بهِ الكلب والهرّ اللذان يلازمان الأسر ؛ فيكادان يعدَّان منها . وقد اعتاد الابناء ان يعذّبوا الحيوان ، وهى رذيلة من الرذائل ، لما فيها من الظلم ، وتدريب الحيوانات على الايذاء لأن الهرّ الذى يستفزُّه الطفل ، ربما ضربه ، ففقأ عينيهِ ؛ والكلب الذى يهيجهُ ، ربما أصبح عقوراً .

واذا كان لنا ان ننتفع بالحيوان ، فليس لنا ان نعذّبها ، لنا ان نستعمل الثيران فى الحرث ، والخيل والبغال والحمير للركوب والزينة وهلمَّ جرَّا ؛ وليس لنا غير ذلك .

من الصعب ان نميت الحيوان ؛ ولـــكن اذا كان ذلك داعياً لخير ، جاز كما جاز ذبح الخروف لوقاية آكليه من الموت ؛ لأنهم أرقى منهُ فى هذا الكون . وذلك لا ينافى ما يجب من الاشفاق عليها ، والعناية بشأنها ؛ لأنها وان كانت مخلوقات أصغر شأناً من الانسان الكامل ، فليست أصغر من الانسان الفاسق . وهو ما أجاب بهِ الفيلسوف لافونتين ، زعمـــاء ديكارت — فيلسوف القرن السابع عشر — الذى كان يعتبر الحيوان آلات مجردة من الاحساس .

والقانون المصرى يحمى أنواع الحيوان ، ولا يعتبرها مجرّد آلات ، بدليل انهُ يحظر على الفلاح أن يقسو على دوابهِ .

والخلاصة ان للشخص ان يتصرَّف فى حيوانهِ ؛ ولكن ليس له ان يعذّبه ، أو يعذب غيره مما لا علاقة له بهِ ؛ ولأى فرد الحق فى أن يلفت نظر الشرطة ، اذا وقعت بمرأى منهُ قسوة من أحد الافراد على الحيوان .

من الرذائل أن يهدم الصبيان أعشاش الطيور ، أو يكسروا بيضها ؛ وليس سبب ذلك ان الطيور لا تؤذينا — ومن اللائق ألا نؤذيها — بل لأنها تأكل كثيراً من الحشرات الضارة أيضاً .

فى انجلترا ، أمر جاك الثانى أن تجمع العصافير ، ووضع لذلك الجوائز ؛ فخلت الجزيرة منها فى زمن قريب . فكثرت الحشرات ، وترتب على ذلك تلف الزروع . فاضطرت الحكومة الى الغاء هذا المبدأ واستنهضت الجمهور الى جمع العصافير ، فكانوا يشترونها بأثمان غالية.

حكى أن فيكتور هوجو الشاعر الفرنسى العظيم ، رأى ضفدعة قبيحة المنظر ، مغطاة بالأوساخ ، تستنشق الهواء ذات ليلة على قارعة الطريق ؛ ورأى أربعة تلاميذ يطاردونها ويؤذونها ، ويحاولون قتلها . فنطق بهذه الجملة المؤثرة « ما أقسى الانسان طفلاً » .

« ١٠ — روح الأسرة »

أفضنا الكلام فى موضوع الأسرة ، وابنّا ما يتعلق بالأب والأم ، والاولاد والخدم ، وسائر من يرتبطون بالطفل فى المنزل والمدرسة .

ومن الواجب أن نشرح ما يتعلق بالأبوين الأبعدين وهما : الجد والجدة ؛ من وجوب احترامهما ، والخضوع لهما ، ووضعهما موضع الأبوين الأقربين ، ومعاملتهما بالشفقة والرأفة المقرونة بالاحترام ، لشيخوختهما وضعفهما .

ومن الواجب اعتبار العم والعمة ، بمنزلة الأب والأم ، وابناء وبنات العم والاصهار ، بمثابة الاخوة والاخوات . لأن اسم الأسرة يتناول هؤلاء ، واحترام مدلول هذا الاسم من الاحساس الطاهر . وطالما بعث تذكره الابناء الى اجتناب المساوئ ، خشية أن يدنسوه ؛ لأنهُ يخصهم ولا يتناول غيرهم . فشرف اسم البيت ، يشابه الوديعة التى يجب على الابناء صيانتها ؛ كما تركها الآباء مصونة

ومن الواجب على الانسان ، أن يراعى ما بينهُ وبين هؤلاء الافراد من الروابط الجديرة بالاحترام ؛ وان يعتبر أفراد الأسرة ، أمثال فروع الشجرة التى تتعاون على حياة المجموع — وان مال كل فرع منها الى جهة من الجهات — ؛ وان يعتقد كل الاعتقاد ان السعادة فى الاتحاد ، وان التفرق مدعاة للضعف والانحلال ؛ وان يتذكر ما

قاله الحكيم فرنكلين : « يجب على الاخوة أن يتعاونوا ويتناصروا ».
وقد حكى أن تجار البقول كانوا يمرون بجمالهم وعليها بضائع متنوعة ، فاشترى امرؤ فأساً من هؤلاء التجار بثمن غال ، لعدم وجود مثلها لديه . فاستعارها أحد اخوته ، فأبى ؛ فاستعارها الثانى فأبى أيضاً ؛ فاستعارها الثالث ، وتوسل اليه بما بينهما من المحبة ؛ فأبى أيضاً -- مما دفع اخوتهُ الى شراء أمثالها – و بينا هو يقطع خشباً على حافة نهر ، اذ سقطت الفأس فى النهر ولم يعثر عليها ؛ فأقبل على أحد اخوته يستعير (فأسه) فذكره بابائهِ وأعرض عنهُ . فأقبل على أخ آخر ، فنبههُ أيضاً الى إبائهِ ، واتبع ذلك بهذه الجملة « لئن أبيت أن تعيرنى فأسك قبلاً فانى اريد أن اكون أحسن منك مبدأ » فخجل كل الخجل ، ولم يأخذ الفأس وانطلق يرجو أخاً آخر ، وعلائم الكدر بادية فى وجهه ؛ فأشفق عليهِ ؛ وأبلغه ان فأسه تكفيهما . فأخذ يبكى ويعانقهُ ويقول : « أخى ان مروءتك عظيمة ، وانك لسليم الطوية ، لأنك نسيت اساءتى ؛ فأنت أخى حقاً ، ولك أن تركن الىَّ » فأجابه أخوه : نعم أنا أحبك ، ومن الواجب أن نحب اخوتنا الآخرين ، لأنا جميعاً من دم واحد »

فمحبة الاسرة يجب أن تكون أول شعور لك بعد المحبة الأبوية ؛ فهى التى تربى فيك قوة الاخلاص للوطن الذى لا يخرج عن كونهِ أسرة كبيرة . وما أجدرنا أن نسمع ما قاله المسيو برسو (Mr. Bersot)

أحد الرجال الذين أحبوا الشبيبة الفرنسية ، الخليق ان يكتب اسمه في صدر كل كتاب تربية ، في محاضرة بين ولد وجده :

الجد — ما الذي خدش وجهك يا بنيّ ؟

الولد — الهرّ يا جدي .

الجد — هل للهرّ يدان ؟ يجب ان تعترف

الولد — تضاربتُ مع آخر .

الجد — ولِمَ ذلك . هل اغتصب منك شيئاً ؟

الولد — كلا ! ولكنهُ سبّ والدي ، فألقيتـهُ على الأرض ، فاعترف بكذبه .

الجد — انك لشجاع . ولكن ، ألا يوجد غير أبيك أحد تدافع عنهُ ؟

الولد — بلى : أمي ، وجدتي وأنت ، وأخيَ الاكبر .

الجد — اذن أنت تحبنا .

الولد — نعم ! لانكم آبائي .

الجد — اذن ، سررت لأني عُينت عمدة .

الولد — نعم ! سررت وزدت فخراً ، وفي ذلك اليوم ، حفظت دروسي أي حفظ ، وأديت واجباتي خير اداء .

الجد — هل اعتقدت أنك عينت عمدة ؟

الولد — نعم .

الجد — ما الذي خامرك ، حين عُيّن أخوك ملاحظاً ؟

الولد — فرحت وكنت أودّ أن ألبس شارات السرور والفخار .

الجد — اذن ، أنت عمدة وضابط . ولِمَ نظرتك حزيناً عند مرض أمك ؟

الولد — نعم ! تألمت تألماً شديداً ، لأنى تخيلت انها ستموت مثل جارتنا التى نحترمها !

الجد — انك لولد صالح ، وأخ مخلص . انى أراك تروض اختك ، بدلاً من ان تلعب مع رفاقك ؛ وتلاعبها فتجد منك أخاً محموداً . ولكن ، يخيل لى انك تحب شجرة الكرز .

الولد — شجرة الكرز شجرتنا ، واذا صعدت عليها أتخيل انى فى منزلنا .

الجد — أجد انك تسرّ بالمعيشة معنا ، اكثر من معيشتك مع جيرانك ، وانك لا ترى نفسك فى صحة الاَّ معنا .

الولد — نعم .

الجد — يا بنى ؛ اذا عاش الناس معاً وتحابّوا ، وشعروا بالسعادة حينما ينالهم خير ، وبالتعاسة حينما يصيبهم شرّ ؛ وأصبح كل فرد منهم مستعدًّا للمساعدة عند الحاجة ، والمواساة عند حصول الاذى ، محبًّا لأن يناله الألم ولا ينالهم ، متحداً معهم قلباً وقالباً . فهذه هى الأسرة .

ان العلائق لا تكون وثيقة　　فى الاقربين وسائر الأحياء
الا بتعظيم الصغير كبيره　　وعناية الآباء بالابناء



الباب الأول

الهيئة الاجتماعية

الفصل الاول — فضل الجمعيات

التلميذ — يا سيدى الاستاذ ! طالما سمعتُ ألفاظاً لم أفقه لها معنى ، وما كنت اكلف نفسى مشقة البحث فيها ، لاعتقادى أن الصغير لا يمكن ان يجارى الكبير فى ادراكه . أما وقد أصبحت من تلاميذ السنة الرابعة ، وكثيراً ما حدثتمونا عن « الهيئة الاجتماعية » ، التى يجب أن نكون أعضاء نافعين فيها ؛ « والنظام الاجتماعى » ، الذى ينبغى أن نحترمهُ ؛ « والرقى الاجتماعى » الذى يلزم ان نضرب فيهِ بسهم — فقل لى بحقك يا سيدى الاستاذ ، ما معنى هذه الالفاظ التى أرى من الواجب عليَّ ان أقف على كنهها ، لأكون على بينة من أمرها ؟

الاستاذ — أنتَ تعلم يا بنيَّ، ان « الاسرة » تتركب عادة من أب وأم، واخوة واخوات، وجدٍّ وجدَّة الخ . . وكلهم يسعون وراء غرض واحد، هو سعادتها؛ لذلك كان لكل فرد منهم نصيب خاص في العمل ففى بلاد الريف، يختص بعضهم بحرث الأرض و بذرها، وحصد زرعها؛ و ينفرد الآخرون بتعهد الماشية، ورعى الاغنام وما أشبه ذلك؛ وغيرهم بحلب الألبان وصنع الزبد، وتربية الطيور وهكذا (تحت نظر الأبوين اللذين هما ربَّا المنزل) .

ومجموع هؤلاء الافراد الذين تتركب منهم الأسرة، يسمى « هيئة اجتماعية » أو « جمعية » . والقاعدة التى يسير عليها أولئك الافراد من حيث تقسيم الاعمال، ومزاولتها فى أوقات معينة، وعدم مزاحمة بعضهم بعضاً فى العمل، يسمى « بالنظام الاجتماعى »؛ والتحسينات التى يمكن ادخالها على الادارة المنزلية، من نحو توزيع الاعمال، ومعاونة العمال، والاجتهاد فى انماء الثروة، يسمى « بالرقى الاجتماعى». فمعنى اجتماعى اذاً، هو كل ما كان متعلقاً بالهيئة الاجتماعية.

التلميذ — اذاً، فالأسرة هى عبارة عن « جمعية » !

الاستاذ — نعم؛ وهى أول الجمعيات ونموذج الباقى . فماذا اذاً تعبر عن لفظة « جمعية »، اذا سئلت عن ذلك ؟

التلميذ — الجمعية حينئذٍ، هى مجموع جملة أشخاص يعيشون معاً، و يشتغلون كل من جهة لغرض مخصوص . أليس كذلك ؟

الاستاذ — حسن ! ولكنك سوف تضطر الى تغيير هذا التعبير ، اذا ما علمت ان الجمعيات على أنواع كثيرة ، وان الاسرة ليست الاّ احدى تلك الجمعيات .

التلميذ – انى لا أظن ذلك يا استاذى ؛ لأنهُ اذا قيل مثلاً : ان الانسان يجب عليهِ ان يكون عضواً نافعاً فى الهيئة الاجتماعية ؛ فلا يمكن ان يفهم من ذلك القول ، ان الاسرة هى المقصودة بهِ .

الاستاذ — لقد قلت صواباً ، فلنستمرّ فى بحثنا اذاً .

تعلم يا ولدى العزيز ، ان هذه « القرية » تحتوى على كثير من الأسر ؛ يعيش كل منها على انفراد ، ويشتغل أفرادها فيما يوافق ميولهم ؛ وكلهم ما بين زارع وصانع ، وتاجر ومالك ، وغنى وفقير . تجمعهم — وان فرقتهم أعمالهم الخصوصية — المنفعة العمومية .

التلميذ — وما معنى ذلك يا سيدى الاستاذ ؟

الاستاذ — لنفرض ان الحال اقتضت بناء دار للبلدية ، أو انشاء قنطرة ، أو فتح طريق عمومى ، او ما أشبه ذلك . فمن ذا الذى يقوم بما يلزم من النفقات ، هل يكلف بهِ شخص معين ؟

التلميذ — كلا ! بل يكلف بهِ الجمهور !

الاستاذ — نعم ؛ وهذا معناه اجتماع الاهالى على عمل ما ، يعود على الجميع بالفائدة أو المنفعة ؛ وكلهم وان افترقوا وراء منافعهم الذاتية ، يجتمعون اذا ما دعتهم الضرورة الى منفعة عمومية . اذ لو اقتصر كل

فرد منهم على مباشرة شؤون اسرته دون غيرها ، لوقفت حركة الاعمال

لذلك جرت العادة فى الممالك المتمدينة ، ان يجتمع أهالى القرية فى أيام معلومات ، لينتخبوا من بينهم أشخاصاً ذوى مقدرة وخبرة بادارة الشؤون العموميـة . وهذه الجمعية التى تتشكل بهذه الصورة على مقتضى اللوائح والقوانين ، تسمى (مجلساً بلدياً) ؛ يعين من بين أعضائه شخص يعهد اليه بادارة حركة الاعمال العمومية ، ويقال له (رئيس المجلس) . وليس من الضرورى يا بنىّ ان يعيش أعضاء هذا المجلس فى مكان واحد ، أو ان يكون بينهم روابط شخصية ؛ بل يكفى ان يكون من الممكن اجتماعهم لتقرير ما يكون لازماً للمنافع العمومية وقت الاحتياج ، وهذا هو نوع آخر من الجمعيات .

التلميـذ — ثم ماذا ايضاً ؟

الاستاذ — كثير يا بنىّ : فالمديرية مثلاً — وقد تحتوى على جملة بلدان — لها مجتمع خاص يقـال له (مجلس المديرية) ؛ وجميع المديريات لها مجتمع آخر يدعى (الجمعية العمومية) وهكذا . . . . فكل جماعة من الناس يتبادلون المنافع والاعمـال ، يمكن أن يطلق عليهم (هيئة اجتماعية) ، الاَّ ان هذا الاسم قد امتاز بِهِ على الخصوص شيئان خطيران ، هما : (الوطن والجنس البشرى) ، لذلك يقال : « كن نافعاً فى الهيئة الاجتماعية » اى « اخدم بلدك وشرف بنى الانسان »

التلميذ — لقد فهمت يا سيدى ان الوطن عبارة عن (هيئة

اجتماعية) ، مؤلفة من جميع أسرات القرى والمدن التى تقطنها أمة واحدة مشتركة المنافع والأعمال ؛ يشكل لادارتهـا مجالس تختص بانشاء الطرقات العمومية ، والمدارس والجسور وتعبئة الجيوش ، وتعيين الموظفين والمستخدمين والقضـاة وغير ذلك ، على حساب جميع السكان ؛ اذ أن تلك الأمور لم تكن الاَّ لمنفعة الجميع على السواء . الاَّ انى لم أفهم مع ذلك – ما معنى الانسانية ، وما دخلها فى الهيئة الاجتماعية ، ولا ما هى علاقتى بساكن بلاد اليابان أو الصين مثلاً ، وأى رابطة بينى و بين زنوج أمريكا ، وكيف يمكن ان أشترك مع هؤلاء فى فائدة أو أتبادل معهم منفعة ؟

الاستاذ – هذا ما كنت أنتظر أن تسألنيه يا بنىّ . اعلم وفقك الله ان المرافق المتبادلة بين الأمم ، ليست هى التى تربط اعضاء الهيئة الاجتماعية بعضهم ببعض ، ولا المنفعة هى التى تربط أفراد الأسرة الواحدة كذلك ؛ بل الذى يربط بعضهم ببعض ، انمـا هى المحبة والاخلاص وسائر العواطف .

لذلك ترى ابناء البلد الواحد متحابين ، لارتباطهم بمحبة بلدهم الذى ولدوا ونشأوا فيهِ ، وتربوا تحت سمائهِ ، وتغذوا من نباتهِ ومائهِ ؛ وكلهم يفتخرون بسعادتهِ ، ويسعون فى رفاهتهِ ؛ لاعتقادهم أن هناك مصلحة هى اكبر فائدة واكثر أهمية من كل ما سواها : ألا وهى (مصلحة الوطن) الذى هو عبارة عن اسرة كبيرة كلنا ابناؤها ، وكانا

مدينون لها بالمحبة والاخلاص اللذين من أجلهما ترى عين من حكم عليهِ بالنفي — مثلاً — تذرف دمعها السخين؛ وترى الرجال ذوي الشعور الحي، والعواطف الشريفة، يضحون النفس والنفيس في خدمة الوطن، ويضحون حياتهم في سبيل الدفاع عنهُ.

ولرب قائل يقول : ان الشعور الذي يربط ابناء البلد الواحد، لا يمكن ان يوجد بين أشخاص من بلدان مختلفة. فالجواب :

الناس من جهة التصوير اكفاء   أبوهمُ آدم، والأم حواء.

واذا كان الجميع من أصل واحد، فكيف لا يعتبرون أنفسهم اخوة؛ فيتعاونون على الخير وجلب المنافع، ويتحدون في الدفاع عن أنفسهم أمام الاخطار والحوادث التي يتلاشى عندها كل فارق، أو اختلاف أو تمييز بين شعوب العالم ؟

مثال ذلك : اذا قصدك فقير يسألك احساناً، او رأيت انساناً مشرفاً على الغرق، فهل من المروءة ان تبحث عن جنسيته او ديانته، قبل ان تمد له يد المساعدة؟ كلا! ثم كلا! فقد يكفيك انهُ من بني الانسان؛ وكل بني الانسان يجب ان يكون لهم نصيب من شفقتك ومعونتك واحسانك.

وجد عمر بن الخطاب، رضي الله عنهُ، في طريقهِ يهودياً فقيراً، يتعثر في ثياب الضعف والشيخوخة؛ فقــال : « تالله لقد ظلمناك يا شيخ؛ أخذنا منك الجزية فتىً، ونسيناك شيخاً » . وأمر له بصلة

من بيت مال المسلمين ما بقى من حياتهِ .

مما تقدم، يتضح أن (الانسانية او الجنس البشرى)، هما عبارة عن اسرة (كالوطن)؛ وان كليهما ينطبق عليهِ اسم (هيئة اجتماعية) والشعور والافكار والمنافع؛ هى التى تربطنا بغيرنا من بنى الانسان، او بعبارة أوضح — (هى روح كل اجتماع)

« الملخص »

يسمى هيئة اجتماعية، اتحاد جملة أشخاص مشتركين فى الافكار والمصلحة والشعور. والأسرة هى أوَّل الهيئات الاجتماعية، وهذا الاسم يمتاز بهِ على الخصوص شيئان هما: « الوطن والانسانية »، أو « الجنس البشرى » اللذان يربط جميع أعضائهما الاخاء الناتج من الاتحاد فى النوع والفكر والقلب؛ فالأسرة والوطن والانسانية، (كثلاث دوائر متداخلة، مركزها واحد).

« ٢ — الحاجة الى الاجتماع »

التلميذ — لقد فهمتُ الآن ما كان يقصده أخى الاكبر بقوله فى موضوع انشائى: « الانسان مخلوق اجتماعى »؛ مثبتاً بالبرهان القوى ان الجمعية هى من أهم الامور الضرورية لحفظ ورقى النوع البشرى.

الاستاذ — حسن. وما الذى استنتجتهُ من هذه النظرية ؟

التلميذ — استنتجتُ أن الانسان يستحيل عليهِ ان يعيش بعيداً عن الاسرة التى هى الجمعية فى الحقيقة ، كما تبين ؛ لأنه اذا اعتزل الرجل المرأة ، واستغنى كلٌّ عن صاحبه ، كان البقاء مستحيلاً. اذ أن الرجل فى هذه الحالة يكون بلا مساعد يقوم بتدبير شؤونهِ الضرورية ، كتجهيز الملابس ، وتهيئة الطعام ، وما أشبه ذلك ؛ وتكون المرأة محرومة من يعولها ، ويأخذ بيدها ، ويدافع عنها ؛ وزيادة على ما تقدَّم ، فان النوع البشرى لا بدَّ أن ينقرض بانقطاع التناسل .

الاستاذ — نعم يا بنىَّ ؛ وذلك كلهُ من الامور البديهية ، حتى انك ترى الأمم المتوحشة نفسها تسير على هذه السنَّة بحكم الطبيعة . وهو نظام إلهى يفهم منه أن الواجبات والحقوق والعواطف ، انما هى أشرف وأرق ضمان لاتحاد النوع الانسانى . واذا كانت الأسرة — وهى أول الجمعيات كما تقدَّم — قد تأسست بحكم الطبيعة ؛ أفهكذا كانت الحال فى غيرها ؟

التلميذ — لستُ أدرى بماذا أجيب .

الاستاذ — نعم أنهُ ليصعب عليك ذلك ، فأعرنى سمعك قليلاً أنبئك بما لم تعلم . لقد أتى على الانسان حين من الدهر كانت فيهِ الأسرة هى الجمعية الوحيدة ؛ وكان الأقدمون منذ نيف وأربعة آلاف عام ، يعيشون جماعات منفصلاً بعضها عن بعض ؛ يقضون نهارهم فى اصطياد ما بهِ يتغذون ، ومنه يرتدون ؛ ثم يلجأون بالليل الى

الكهوف والمغاور فراراً من اعتداء الحيوان المفترس ، كالسبع والضبع والنمر والذئب . وهو لم يكن فى ذلك العهد عدوًّا وحده للبشر ؛ بل كان الانسان عدوًّا للانسان ايضاً . اذ كانت كل اسرة تؤلف قبيلة ليس لها من عمل سوى شنّ الغارة على الآخرين لتسلبهم أموالهم وأنعامهم ، وتجليهم عن أرضهم التى يسكنونها ، مستعملة فى ذلك آلات الحرب كالهراوات ، والأحجار ، والقِسِىّ ، والنُّشَّاب ، وما أشبه ذلك ؛ وبالجملة كانوا يعيشون من القتل والسلب والنهب ؛ ولو استمرت الحال على هذا المنوال ، لتلاشى النوع البشرى . الاَّ أن الرزايا اذا توالت تولّت . فان هذه القبائل ، لكى تتمكن من صد هجمات المغيرين والذَّب عن حياضها أمام خصومها ، اضطرت ان تتحد مع غيرها ، ثم أخذت دائرة ذلك الاتحاد تتسع شيئاً فشيئاً ؛ حتى تألفت الشعوب ، وبذلك انتقلت المسئلة من « اسرة » الى « وطن »

ولما كانت الروابط الطبيعية لا تكفى وحدها لاتحاد تلك الأمة الجديدة ، نظراً لضعف الشعور والمحبة والاخلاص بين أفرادها ؛ سنَّت قواعد خصوصية حدَّدت ما هو مسموح وما هو ممنوع . وهذه هى أصل الشرائع ، وأس « النظام الاجتماعى » .

ومما قرره ذلك النظام : ان لكل انسان الحق التام فى التمتع بثمرة أعماله بلا منازع ولا معارض ، مهما زاد دخله عن حاجاته . بمعنى ما اذا فرضنا ان زيداً يستفيد من غلة أرضه مائتى أردب من القمح

فى كل عام ، وانهُ لا يحتاج لاكثر من عشرين منها ؛ فان الباقى له ، يتصرف فيهِ كما يحب ويختار بلا نزاع . وهذا ما يسمونهُ بالملكية .

الاَّ ان « چان چاك روسو » ، ذلك الكاتب الفرنسى الشهير ، أحد نوابغ القرن الماضى ؛ صوَّر لنا الجمعية البشرية بأنها نتيجة اتفاق حاصل بين الناس فى القرون الاوَل ، سماه (العقد الاجتماعى) ، فكأنهُ يريد ان يقول بامكان وضع نظام آخر للجمعية ، خلاف نظامها الحالى ؛ بمعنى انهُ اذا كان المالك يتصرف فى ملكه الزائد عن حاجتهِ الضرورية كما يشاء ، يمكن وضع قاعدة جديدة ، تقضى بأن الانسان لا يملك الاَّ ما يفى بحاجتهِ الضرورية للمعيشة . ولكن الرجل مخطئ فى رأيهِ ، واهم فى زعمهِ ؛ لأن نظام الجمعية وشرائعها ، انما وضعها من سلف ، وهم مدفوعون بعوامل قد يجهلونها وقتئذٍ ، وكلها ضرورات حتماً .

ومما لا نزاع فيهِ ، ان الجمعية من ألزم الأمور لبقاء النوع الانسانى وتحسين حالتهِ .

ولأجل بقاء الجمعية ؛ يجب ان يعترف كل انسان بأمرين رئيسين ، هما : « الاحتفاظ بالاموال والاحتفاظ بالارواح » لهذا كان من الضرورى ، أن يزول ذلك الحاجز ، الذى كان يفصل الاسرات والقبائل والشعوب بعضها عن بعض ؛ وبزواله أصبحت جميع الأمم — بوجه التقريب — خاضعة لنظام واحد ، مما يدل دلالة واضحة ، ان ذلك النظام كان ضرورياً جـداً للجميع ؛ وان القتل والسرقة ،

والكذب والخيانة وما أشبهها ؛ وجدت من الأمور المحرمة عند الجميع .

هذا ما اتفق عليهِ العالم كافة ، كما اتفقوا أيضاً على ان « الانسانية » هى جمعية أخرى ، يجب على الانسان ان يكون عضواً عاملاً فيها ، بصرف النظر عن جنسيتهِ و بلده . فالاخاء العام لا يمكن ان ينسينا ما يجب علينا نحو أوطاننا ؛ وما على الذين ينضمون تحت لوائهِ ، الاّ أن يفهموا ان الضرورة تحتم على كل الناس أن يتعاونوا و يتحدوا ، وهذا ما قضت بهِ جميع الشرائع الالهية والوضعية ؛ وهو معنى قول الفلاسفة : ان الانسان مدنى بالطبع .

« الملخص »

الجمعية ضرورية لبقاء النوع البشرى ورقيهِ .

وزمن الهمجية ، الذى كان الناس يعيشون فيهِ قبائل متفرقة ؛ أعقبهُ تقسيمها الى أمم متحدة ، أخذ أعضاؤها يتقدمون نحو المدنية شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحوا وهم يعتبرون أنفسهم اخوة لا محالة .

والشرائع الأساسية للهيئة الاجتماعيـة ، لم تكن نتيجة ذلك الاتفاق الذى كان منشوءه الاختيار ؛ بل هى نتيجة محتمة لتلك الضرورات المادية والادبية ، التى لم يخلُ منها زمان ولا مكان ؛ قضت بها مصلحة الاجتماع البشرى .

« ٣ — فائدة الاجتماع »

التلميذ — انهُ ليخيل لى يا سيدى الاستاذ ، ان الجمعية — فضلاً عن كونها ضرورية ؛ فانها نافعة لبنى الانسان .

الاستاذ — بالتأكيد . وهل فى استطاعتك ان تخبرنى عن الفوائد الرئيسية التى تظن انها تسببت عنها ؟ ولنبتدئ بالفوائد المادية .

التلميذ — من المسلّم يا سيدى الاستاذ ، انهُ يوجد أعمال كثيرة يستحيل على الانسان القيام بها بمفرده ، ولا بد ان يشترك فيها الكثيرون ؛ كما لو اريد بنــاء بيت ، او تخطيط طريق ، او انشاء قنطرة ، او حفر ترعة ، او ما شاكل ذلك مثلاً ؛ أضف الى ذلك ان هذه الاعمال ، قد تحتاج الى كثير من الآلات والادوات التى يشترك فى عملها عدد ليس بالقليل من الناس . فاذا أردنا صنع فأس مثلاً ؛ وجب علينا ان نبحث عن منجم لاستخراج الحديد ؛ ثم نستخلص ذلك المعدن مما هو مختلط بهِ من الاتربة والاحجار الصغيرة ؛ وذلك بواسطة الذوبان الذى يحتاج الى حرارة عظيمة ، وهذه الحرارة تتولد من الفحم الذى يستخرج من الأرض ايضاً ، والذى دون استخراجه صعوبات لا تحد ، وأخطار لا تعد . فاذا ما تم كل ذلك ، وعملت السبيكة ؛ وجب ان تصهر ، وتحال بطريقة مخصوصة ، لتكتسب الصلابة المطلوبة .

الاستاذ — لقد تكلمت يا بنىّ عن الحديد واستخراجه ؛ ولكنك لم تذكر شيئاً عن الاتعاب الجسيمة ، التى تلزم لصنعهِ وصقله ، وشحذه ونشره وما يماثلها من الامور التى لولاها لم تفلح أرض ، ولم تقطع أحجار ولا خشب ، ولم تنسج أنسجة ، ولم تصنع مركبات او مراكب ، ولا كان شئ على الاطلاق مما يسهل على الانسان طرق المعيشة . لم يكن من الغريب ان يتحد أهالى البلد الواحد ، او كل البلاد على العموم ، لاقتسام تلك الارباح الطبيعيـة التى لا تحصى ، وللافاة الاخطار التى تهدد الجميع .

فاول فائدة للجمعية اذاً ؛ هى زيادة رفاه بنى الانسان ونعيمهم .

التلميذ — نعم ! وانهُ يخيل لى ان الجمعية لم تصل الى هذه النتيجة ، الا لأنها حتمت على الانسان ان لا يقتصر على الاشتغال بأمر نفسه ؛ بل يجب عليهِ ان يسعى فيما يفيد غيره . فالخباز مثلاً : يصنع الخبز للجميع ، لعلمه ان القصاب يقدم له اللحم ، والبدال يبيعه السكر والملح ، والخائط يصنع له الملابس وهكذا .

الاستاذ — انهُ لكذلك ، وهذا من أهم فوائد الجمعية ؛ لأن توزيع العمل يزيد فى الفائدة ، ويقلل عناء العمال . وانهُ لمن المستحيل على فرد واحد ، أو أسرة واحدة ؛ أن تقوم بفلاحة الأرض ، وبذر البذار ، وحصد الزرع ، وعمل الخبز ، وذبح الماشية ، وتهيئة الطعام ، وصنع الآلات وغير ذلك مما هى فى حاجة اليهِ . ولنفرض أنهُ من الممكن ؛ فما مقدار الوقت الذى يلزم له ؟

ولكى يقرب الى ذهنك تصوُّر مقدار الفائدة التى تنجم عن تقسيم العمل – افرض ان صانعاً يريد ان يصنع بمفرده ابرة حتى تصير صالحة للعمل — فهل تظن ان ذلك يتم فى أقل من نصف يوم؟ كلاَّ . مع انهُ فى بعض المعامل الكبيرة ، ترى بعض العاملات ، يصنعنَ آلافاً من الابر فى اليوم الواحد ؛ هذه تقطع السلك وهاتيك تدبب طرفهُ ، وتلك تعدّل رأسهُ ، وأخرى تصقله . وقس على ذلك باقى الأعمال ؛ فان فى تقسيمها تسهيلاً للعمل ، وازدياداً للفائدة ومع ذلك ، فان هذه الفوائد المادية التى تنحصر فيهـا سعادة الانسان ، لا يصح أن تنسينا تلك الفوائد الأدبية التى نكتسبها من الحياة فى الجمعية . فهل لك أن تضرب لى بعض الأمثال ؟

التلميذ – نعم ؛ اذا عاش الانسان منفرداً ، فكيف يتعلم القراءة والكتابة والحساب ؟

الاستاذ — أحسنتَ يا بنىّ ؛ فاقد كان الانسان لا بدَّ له من أحد أمرين : اما أن يعيش مدَّة حياته جاهلاً ، واما ان يرجع الى ما كانت عليهِ أجداده فى الازمان الغابرة ؛ أيام لا علوم ولا معارف ولا صنائع . أضف الى ما تقدَّم ، ان تلك القوانين الطبيعية لم يكتشفهـا انسان بمفرده ؛ فكم من قرون مضت قبل أن يعرف الانسان ان الارض تدور حول الشمس . وليست هذه هى التى تدور حول الارض ، كما كان يظنهُ الاقدمون .

التلميذ — نعم ؛ ولقد فهمتُ أيضاً يا سيدى الاستاذ ، ان صنع الآلات مثلاً ؛ يحتاج الى جملة أشخاص يعملون معاً ؛ وحينئذٍ ، لا بدّ أن يكون اختراع أنواع تلك الآلات ، مما يحتاج أيضاً الى عدد وافر من العلماء والمفكرين ، وكذلك طريقة استعمال تلك الآلات . ولو اشتغل كل انسان على انفراده ، ثم مات ولم يطلع أحداً على سرّ اكتشافهِ ، لصعب الوصول الى الغرض المطلوب ، أو الحصول على ضالتهِ المنشودة .

الاستاذ — لقد أصبتَ يا بنيّ ؛ فلقد فكر (دنيس بابين) منذ نيف ومائة من السنين ، فى ان يتخذ من البخار قوّة محرّكة ؛ ومع ذلك فانهم لم يوفقوا الى ذلك ، حتى كان عهد (وات وفولتون) ، اللذين عرفا كيف يستخدمان تلك القوّة فى القواطر والمراكب .

وبالجملة فان الجمعية هى السبب أيضاً فى الفوائد الأدبية التى لا تخفى عليك ؛ فان الرجل اذا اعتزل العالم ، أصبح متوحشاً ، فظّاً غليظ القلب ، كذلك كانت أخلاق الانسان أيام الهمجية ، أشبه شىء بأخلاق الحيوان المفترس الذى يعيش فى الغابات والآجام . فلما عرفت الجمعية أصبحت الحياة أشهى وأسهل مما كانت قبلاً ؛ وأخذت الأخلاق والعادات شكلاً جديداً . فصارت الحروب التى كانت من الامور العادية ، نادرة الوقوع ، واكتسبت الانسانية شكلاً جديداً معناه الاخاء ؛ كما أخذ التمدُّن كلما اتسعت دائرتهُ

يمحو شيئاً فشيئاً ما بقي من آثار الهمجية .

فمنذ مائة عام مثلاً ؛ بطل الرق ، وتقرَّر الاعتناء بجرحى الحروب ؛ وتأسست جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر . ولا تزال الجمعية البشرية محتاجة الى كثير من الامور التي سوف يتكفل بها المستقبل . وان المصريين ليفتخرون بأنهم كانوا دائماً أنصار الانسانية حيث كانوا اول الأمم التي أبطلت الرق .

أما هذا النجاح الثلاثي : (المادّي والأدبي والعقلي) فانهُ دين علينا في الحقيقة لتأثير الجمعية ؛ وكذلك الفضائل التي تتعلق بها ؛ وهي التي يعبرون عنها بلفظ (انسانية) او (رقة الاخلاق)

« الملخص »

الجمعية أصل كل فائدة مادية او أدبية للانسان ؛ وهي تسمح له بأن يزيد في رغده ، باتحاد قوى كثير من الافراد .

وتقسيم الاعمال ، يقلل عناء العمال ؛ فيعملون بكل سرعة ، ما كانوا يظنونهُ مستحيلاً . والنجاح الفكري أصبح مؤكداً بفضل الجمعية التي يشترك كل انسان فيما تأتيهِ من الاكتشافات . وأخيراً ، قد أدخلت الحياة العمومية تحسيناً على أخلاق الانسان ، وقدمتهُ تقديماً محسوساً .

« تمرين »

ما الجمعية ؟ — قارن بينهـا وبين الأسرة — ما معنى نظام اجتماعى ؟ — رقى اجتماعى ؟ — ما الجمعيات الوسيطة بين الأسرة والوطن ؟ — لماذا كان الوطن والانسانية من أفضل تلك الجمعيات ؟ — اثبت بالبرهان ، ان الجمعية ضرورية لنموّ ورقىّ النوع الانسانى — ما زمن الهمجية ؟ — كيف تكوّن الوطن ؟ — هل الجمعيـة نتيجة اتفاق ، أمى من الضروريات ؟ — اذكر الفوائد المادية التى تعود على الحياة من الجمعية — كيف أصبح الرقىّ الفكرى ممكناً بفضل الجمعية ؟ — ما الفوائد الأدبية التى يكتسبها الانسان من المعيشة فى الجمعية .

الفصل الثانى

« ١ — العدل فى الهيئة الاجتماعية »

الاستـاذ — المتبع فى كل مكان ، ان الانسان اذا ما ارتبط بآخرين ، لا بدّ له من قاعدة لترتيب معاملته اياهم ، على حسب القانون الأدبى الذى ذكرناه فى الجزء الأول ؛ كما بحثنا فى الواجبات التى تربطها كل جمعية بشرية . والآن ، نتكلم على اكبر تلك

الجمعيات وهى (الانسانية) ، ونذكر الواجبات التى تتعين على كل ذى علاقة بها .

من النظريات الثابتة ، أن « لا اجتماع الا مع العدل » ؛ فهل لك أن تعبر لي عن معنى العدل ؟

التلميذ — لقد سألت والدى عن ذلك يا أستاذى منذ بضعة أيام ، فقال : انهُ « اعطاء كل ذى حق حقه » .

الاستاذ — لقد أصاب ؛ ولكن ، هل تعرف ما هو المقصود من ذلك .

التلميذ — المقصود من ذلك على ما أظن ، هو أن يدفع الانسان ما عليهِ من الديون ، ويردّ لكل شخص ما يكون قد أخذه منـهُ ، ولا يغش رفقاءه ؛ ويجتهد فى أن يكون غير مدين لأحد بشيء ما .

الاستاذ — لقد أجدت ، وان كنت لم توفِّ الموضوع حقهُ .

لنفرض ان أحد القضاة حكم على أحد المجرمين بالسجن ؛ او ان معلمك كافأك على حسن اجتهادك ؛ او ان انساناً أحسن اليك فشكرت له فضله . أليس ذلك من ضروب العدل ايضاً ؟

التلميذ — اذاً ، العدل هو ان يقابل الانسان الحسنة بالحسنـة ، والسيئة بالسيئة .

الاستاذ — نعم ! ولكن — اذا صفعك أحد زملائك مثلاً ، فهل تقابله بمثل ذلك ؟ انهذا وان كان من العدل حقيقة ، لا يلائم احوال

المعيشة ؛ لأنك اذا اتبعت هـذه السنّة ، تقضى حياتك في نزاع لا طائل تحته . فلندع تلك النظرية التى علمكها والدك ، ولنبحث عن اخرى تكون اكثر ملاءمة للحياة . ألا تذكر قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ؛ او قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ، ما يحب لنفسه » . قل لى ، ما الذى فهمتهُ من تلك الآية الكريمة ، وهذا الحديث الشريف ؟

التلميذ — فهمت ان الانسان يجب ان يحسن الى الناس ما استطاع ، ويتجنب كل ما فيهِ ضررهم وأذاهم ؛ فلا يسرق منهم ، ولا يشى بهم ، ولا ينم عليهم ؛ وبالجملة يعفو عن زلاتهم ، فلا يعاملهم بما يستحقون .

الاستاذ — وكيف ذلك ؟ لنفرض ان شخصاً قتل آخر ، وحكمت محكمة الجنايات عليه بالاعدام . فهل من العدل ان تسعى فى تبرئتهِ واطلاق سراحه ؟ ان هذا ليس من العدل فى شيء ؛ لأن احترام المرتبة البشرية فى شخصك ، وفي شخص الآخرين ، هو القاعدة الأساسية للعدل ؛ ولأنك اذا احترمت انساناً ، فلا ترضى ان تضره فى حياتهِ ، او شرفه ، او ماله ، او أى شيء من متعلقاتهِ . ولكن اياك ان تحترم من لم يحترم نفسه ؛ فان هذا بلا شك ، أولى بالاحتقار لأن الرجل الذى يسترسل فى الغضب والشراسة ، ويتصف بالاخلاق الفاسدة ، يجنى على العدل لا محالة . ولا يمكن أن يكون الانسان عادلاً وشريفاً الاَّ اذا امتنع عن ايذاء عباد الله ، وأعطى كل ذى حق حقهُ ،

التلميذ – عفواً يا سيدى الاستاذ ! اننا اذا احترمنا الشرف الانسانى ، فلا بدَّ ان نلاقى كثيراً من الصعوبات ؛ والاَّ فكيف يجوز لنا أن نعاقب المجرمين ؟

الاستاذ – أظنك لم تفهم بعد معنى (احترام الشرف الانسانى) الذى لم يكن الغرض منهُ تجنب انتهاك حرمة تلك الوظيفة فقط ؛ بل يشمل الكفّ أيضاً عن الخصال القبيحة ، والأعمال المضرَّة ، والسعى فى منع وقوع ذلك فعلاً . مثال ذلك : اذا ارتكب انسان جريمة السكر ، (والسكر مخالف للمرتبة البشرية) وجبت بمقتضى الشريعة معاقبته ؛ فالقاضى الذى يحكم عليهِ بالحبس أو الغرامة ، يكون قد فعل ما يقتضيهِ العدل ؟ وكذلك اذا وُجد انسان بحال سكر بيّن ، وعربدة ، فى مكان بعيد عن نظر رجال الضبط ، ثم أخذ يصيح ويغنى أغانى غير لائقة ، أو أخذ يعاكس المارَّة ، ألا يكون لكل انسان الحق فى أن يمنعهُ من ذلك باسم الوظيفة البشرية ؟

او اذا رأيت شخصاً يسعى فى سرقة ، او غشّ آخر ، ألا يكون من وظيفتك ، أن تحول بينهُ و بين ما يبتغيهِ ؟ وذلك بأن تدافع عن حقوق صاحب ذلك الشئ ، حتى يسود العدل الذى معناه فى الحقيقة احترام حقوق الآخرين ؟

كل ذلك حق وعدل . ومما تقدَّم يتضح ان الجمعية لا يمكن أن تقوم لها قائمة بغير العدل ، وان الجمعية انما هى عبارة عن اجتماع جملة

أشخاص ، لكل منهم حقوق وواجبات ، وأمانى ومصالح . فاذا لم يكن الانسان آمناً مطمئناً متمتعاً بكل ذلك بتمام الحرية ؛ فعلامَ يعاشر الناس اذاً ؟

ان الهيئة التى لا يكون فيها احترام حقوق الآخرين مضموناً ؛ هى فى شبه حرب أو فى الطريق المفضية اليها ؛ اذ تضطرُّ كل أسرة الى الانفصال عن الأخرى ، لتدافع عن نفسها عند مسيس الحاجة ، وبذلك تتلاشى تلك الهيئة من نفسها .

ان المصالح الخصوصية لا تكفى وحدها لحفظ النظام العام ؛ كما ان الميول الشخصية لا توجب احترام جميع اعضاء الهيئة . لأن المصالح والميول قد تكون متنافرة عند الناس . لذلك كان من الضرورى ؛ ايجاد قاعدة مستقلة تمام الاستقلال ، بعيدة عن كل غرض من الأغراض . وهذه القاعدة انما هى (العدل) . الذى هو مطابقة الشريعة الأدبية ، للعلاقات التى تنشأ عنها المعاشرة .

فالعدل يقضى بأن لا بدَّ للانسان ان يُقدِّر احترام الشرف الانسانى حق قدره ؛ سواء كان ذلك فيما يختص بشخصهِ أو بغيره .

« الملخص »

العدل ينحصر فيما يلى :

« عامل الناس بما تحب ان يعاملوك بهِ » ؛ واحترم الوظيفة البشرية ، سواء كان ذلك بالنسبة لشخصك او للآخرين .

« ٢ — مستلزمات العدل »

الاستاذ – ان اول قاعدة يجب السير على مقتضاها ، هى (احترام النوع البشرى) . ولنتكلم عن الواجبات الخاصة التى تترتب على هذا الواجب العام :

من البديهى ، ان العدل يقضى علينا . بأن نحترم حياة أمثالنا من بنى الانسان ؛ لأن كل مخلوق على وجه البسيطة ، انما يشغل فراغاً فى الهيئة الاجتماعية . فهو يكد ويشتغل ، ويعمل الخيرات ، ويحرث الارض ؛ واولادنا يقتفون أثره ، ويتممون عمله ، ويسيرون على نهجهِ .

فقتل النفس مثلاً ، يحرمها تأدية تلك الاعمال المفيدة ، ويخلّ بالنظام الكونى ، فضلاً عن مخالفتهِ كل المخالفة ، لما تقتضيهِ الذمة ؛ وهو أفظع اثم يرتكب على المرتبة البشرية . كيف لا ! وفى هـذه الحالة يكون قد انفصل عنها عضو من أعضائها . وقد أمر الله سبحانهُ وتعالى باجتناب ذلك فقال عز من قائل : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الاَّ بالحق » ؛ ولذلك اتفقت الشريعة الإلهية مع الشريعة الوضعية ، على وجوب قتل من يقتل نفساً بريئة بغير حق . فقد قال سبحانهُ وتعالى « ان النفس بالنفس » ، « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . ولا يمكن ان يستثنى من ذلك الاَّ القتل فى موضعين اثنين : فى حالة الدفاع الشرعى ، وفى الحرب . لأنهُ فى

الحالة الأولى ، يكون للانسان الحق فى الدفاع عن نفسهِ وماله بكافة الوسائل الممكنة ؛ اذ ان الذى يعتدى على حياة الناس ، لا يصح ان يبقى فى عداد بنى الانسان . ومع ذلك ، فان من الواجب علينا ، ان نبذل كل الجهد فى ان تكون ضرباتنا غير قاضية على حياتهِ ، مهما قسا قلبه وغلظ كبده

وفى الثانية ، (وهى الحرب) فان الشعب يكون اذ ذاك مضطراً الى الدفاع عن حياتهِ ؛ وناهيك بما يدفع الجنود وقت ذلك من الشعور والاحساس ؛ اذ ان قتالهم – والحالة هذه – لم يكن انتقاماً لأشخاصهم ؛ بل دفاعاً عن الوطن الذى يجب ان تضحى فى سبيله النفس والنفيس . ولذلك يقدمون ارواحهم ، فداءً له عن طيب خاطر . واذا قصروا فى ذلك كانوا مجرمين آثمين خائنين ، قد جنوا على تلك الأمـــة التى علقت آمالها بهم ، ووكلت اليهم أمر سلامتها وشرفها .

حكى ان بعض جنود المسلمين فى حروب الصليب ، كانوا يدخلون ليلاً خيام الفرنج ، فيسرقون ما تصل اليهِ أيديهم من متاع وسلاح ؛ فاتفق ان بعضهم أخذ صبياً من حجر أمه ؛ فوجدت عليـــهِ وجداً شديداً ، واشتكت لملوكهم ، فلم تجد نفعاً . فجاءت الى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وقصت عليهِ قصتها ، فرقَّ لها ودمعت عيناه ، وأمر فاحضر الصبى ؛ وكان بيع فى السوق فدفع ثمنهُ لمن اشتراه . فاعترض عليهِ فقال له: « إنا نحارب أشخاصاً أعلنوا حربنا ، وما نحارب بنى الانسان » .

وكذلك يجب على الانسان ألاَّ يعتدى على حياة نفسه ، لذلك كان الانتحار مثلاً ، نذالة وجبناً ؛ لأن لكل انسان منا — كما سبق ذكره — وظيفة يؤديها فى الهيئة الاجتماعية ، لا تقل عن وظيفة ذلك الحارس الذى يقيمهُ لحراسة مكان ما . فكما ان هذا لا حقّ له فى تركه مطلقاً ، كذلك الانسان لا يجوز له أن يعجل بمفارقة الحياة قبل الساعة المحدّدة ؛ والاَّ ظلم نفسه وأخلّ بنظام الحياة . وكل ذلك نقص فى التدبير العام .

ولقد ضرب لنا سقراط عن ذلك مثلاً فقال :

« اذا حاول عبدكَ ان يقتل نفسه — أما كان لك ان تعاقبهُ ، على تخلصهِ من خدمتك بغير حق ؟ »

فاذا كان هذا حال العبد ؛ فكيف لا يعاقب الله ذلك الذى اعتدى على شريعتهِ وأساء الى احسانهِ .

أعرنى سمعك قليلاً أيها اليائس الذى يتمنى لو فارق الحياة ؛ انهُ اذا كان فى قلبك مثقال ذرة من الميل الى الفضائل ؛ فاصغ الىَّ اعلمك كيف ترغب فى البقاء . عاهد نفسكَ على انك كلما هممت بمفارقة الحياة الدنيا ، تخاطب نفسك قائلاً : « ومالى لا اعمل عملاً صالحاً قبل ان أموت ، عسى ان يغفر لى ربى ما تقدَّم من ذنبى » . ثم اسرع الى مساعدة يائس ، او اغاثة ملهوف ، او تعزية بائس ، او الدفاع عن مظلوم . فانك اذا فعلت ، وجدتَ من نفسك دافعاً يدفعك الى

عمل الخير ، ويحبب اليك الحياة .

أما اذا لم يجد ذلك سبيلاً الى قلبـك ، وتأثيراً فى عواطفك ؛ فمت ، فما أنت الاَّ جبان ؟ وكذلك الانسان الذى يسعى ليسلب نفسه حريتها ؛ فانه يكون قد أساء الى الوظيفة البشرية لا محالة ، واعتدى على الاحترام الذى يجب عليهِ نحو شخصهِ .

ومن الواجبـات المفروضة على كل انسان للهيئة الاجتماعية ، الاحتفاظ بحقوق غيره . فكما ان من الواجب علينا ، ان نصون حياة الأشخاص ؛ فان من الواجب علينـا ايضاً ان نصون اموالهم ، وما يحتاجون اليهِ ، فى سبيل الحياة الدنيا .

ان مشروعية حق الملكية ، من الاشياء التى يجب علينا اعتبارها بديهة لا نزاع فيها ؛ وان أول شئ نملكه ، انما هو ذلك البناء الذى تسكنهُ روحنا . ولكن كيف نبسط ملكنا على ما لم يكن لنا . الجواب : ان الحياة لا تحفظ ، الاَّ بواسطة التبادل الدائم ما بين اجزاء الجسم الحى ، والاجسام المحيطة بهِ ؛ لذلك كان من اللازم ، ان يكون لنا بعض تلك الاشياء ، ليسهل سبيل الحياة .

ان حقوق الملكيـة لم تتأسس على سعى الانسان للحصول على ما بهِ قوام الحياة ؛ بل على التحسين الذى يبدو من ثمرة أعماله ، نحو المادة التى يستخدم فيها نشاطه كذلك .

مثال ذلك ، اذا فرضنا انهُ يوجد قطعة أرض ، ليست مزروعة

ولا هى مملوكة لأحد؛ وان أحدهم وضع يده عليها وزرعها. فمن المعقول حينئذٍ ان الذى أصلحها وغرسها فأنبتها، هو أحق الناس بثمرها.

أما امتلاك نفس الأرض؛ فله شروط كثيرة نتكلم عليها فنقول: ان الأساس الأول للملكية هو (وضع اليد)؛ ومعناه «ان ما لم يكن مملوكاً لأحد، فلمن يستحوذ عليهِ». الاّ ان هذه القاعدة، لا يمكن ان تسرى على ما هى عليهِ الدنيا الآن؛ لأنهُ قلَّ ان يوجد مكان، الاَّ وله مالك؛ حتى انك لترى الجبال نفسها، والغابات، والأنهار؛ مملوكة للحكومة وهى لا تسمح لأحد ان ينتفع بها أو يمتلكها، الاَّ بالشروط المبينة بالقوانين.

اما فى الزمن السابق، فقد كانت الحالة على عكس ذلك، اذ كان كثير من المساحات لغير ملاّك. وكان يكفى لثبوت ملكيتها، ان يضع الانسان يده عليها، ويعمل بها ما يدلّ على استحواذه عليها؛ كأن يزرعها، او يبنى بها منزلاً، او يقيم عليها سوراً، او ما شاكل ذلك. ولم تزل هذه الطريقة متبعة الى الآن فى الجزر البعيدة، والصحارى المقفرة؛ وفى الحقيقة قد ضمنت القوانين والشرائع الاجتماعية حقوق الملكية، واعترفت لكل انسان بحق الانتفاع بما هو مملوك له، بلا معارضة من أحد وكذلك حق توريث ما يملكه للاقربين اليه من بعده.

وكما انهُ لا يجوز الاعتداء على نفس الاشخاص، كذلك لا يجوز الاعتداء على املاكهم. فان الاعتراف بها، واحترام تلك الملكية،

شرط من شروط بقاء الجمعية ، كاحترام الحياة البشرية . ولا شك ان حرمان الانسان الانتفاع بما يملكه ؛ هو اعتداء على الحقوق الشرعية التى حصل بمقتضاها عليهِ ؛ وهو مما يضرّ بوظيفته ، ويخالف مستلزمات العدل .

وأشهر طرق الاعتداء على حقوق الآخرين ؛ السرقة ، وهى حصول الشخص على شىء من حقوق الآخرين بغير حق . وكل أنواع السرقات قد يُعاقب عليها قانوناً ، الاَّ انها تختلف بعضها عن بعض فى فظاعة الجرم . فالسرقة باكراه مثلاً ، من أفظع الجرائم ؛ أما سرقة الاشياء فى حال غياب ملاَّكها ، فانها أخف ضرراً . ثم يتبع ذلك الغش والتدليس ، كأن يبيع الانسان للآخر حصاناً يعرف انهُ مريض كثير العيوب ، ثم هو يؤكد انهُ سليم ليس بهِ عيب ؛ أو ينقص الكيل والميزان ؛ او يسعى فى تهريب شىء من الممنوعات ؛ أو ما شاكل ذلك ، مما يصدق على فاعله انهُ خائن ، او خرِب الذمة ، او عادم الوفاء .

أضف الى ذلك ، اولئك الذين يأبون ان يردُّوا الأمانات الى أهلها ، او الاموال التى اقترضوها ، او وجدوا شيئاً فحفظوه لانفسهم ، أو امتنعوا عن رد شىء أخذوه من شخص بحجة النسيان ؛ وما هى فى الحقيقة الا مماطلة — وهكذا .

ان حقوق الهيئة البشرية ، لتفوق فى الأهمية حقوق الحياة والحرية والسعادة ؛ اذ كل انسان منا يتوقف مقدار احترامه فى نظر

اخوانه ، على ما يكون متصفاً بهِ من الأخلاق والخلال . وبالجملة ، يتوقف على تلك الصفة التي ظهر للناس عليها . وهذه المزية هي أفضل وأشرف كل شيء ، وهي ما يعبرون عنهُ (بالسمعة) او (الشرف) ؛ وهي أقرب الصفات الى المرتبة البشرية . وانهُ كما يجب علينا ان نحترم ونبجل أهل الخير ؛ فانهُ يجب ألاَّ نتساهل في الحكم على اولئك الذين يسيئون بالناس الظن . فكم من برىء تألم من قولٍ وجّه اليهِ على غير هدى ، ولذلك قرر القانون المعاقبة على التشهير ، وهو الاعتداء على أعراض الآخرين بالقول ، او بطرق النشر ، ولا يطلب من القاذف اثبات صحة ما قذف بهِ .

وقد يكون الأمر غير ذلك في بعض الأحيان ؛ كأن يتعرَّض القاذف لشرف الشخص ، بأن يلصق به اموراً غير لائقة ، ويجتهد في الحطّ من قدره ، وتحقيره في أعين غيره . ومع ذلك فان كل هذه السفاسف والأقاويل ، يعاقب عليها القانون . ومن الواجب على كل ذي شعور شريف ، ان يبتعد عنها .

ثم اعلم يا بنيّ ؛ ان لكل انسان آراء ومعتقدات ، لاتقلّ احتراماً عن شرفهِ وماله وحياتهِ . ولقد أباحت قوانين الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حرية المعتقدات ؛ فقابلها كل انسان بالرضاء والارتياح . فالأتقياء من أي دين مثلاً ؛ لهم ان يؤدوا شعائر دينهم . بلا منازع ولا معارض . .

ولا شيء أقبح عند الرجل الحر، من استهزاء بعضهم، او لعنهم شخصاً لمعتقده، أو لادائه تلك الصيغة التى يستلزمها ذلك المعتقد؛ أو أولئك الذين يخالفونهم فى المعتقدات . خصوصاً وقد انقضى زمن الاضطهاد، وأصبح جميع الناس المتمدينين يحاربون التعصب الدينى، والهيجان الذى يتولد فى أفكار بعضهم، لمخالفة غيرهم لهم فى الاديان بكل قواهم . وبذلك صار كل انسان حرَّ التصرف، ما دام بعيداً عن الاضرار بالآخرين؛ فهو مطلق الحرية فيما يعتقد ويتمنى، ويفكر ويقول، كما انهُ له الحق فى فعل كل ما يوافق اعتقاده الدينى

ويوجد على هذا النمط أمور كثيرة، كمعترك السياسة مثلاً، وهو ما لا يحق لك ان تخوض غماره يا بنيّ؛ فان بعض المشتغلين بهِ يظنون انهُ لا تحابٍ، ولا احترام بينهم وبين الاشخاص الذين يخالفونهم فى الرأى؛ وهو غلط واضح . لأن من الجائز ان يختلف الناس على أى أمر من الأمور، بدون ان يؤثر ذلك الخلاف فيما بينهم من المحبة . واذا كان من الواجب علينا أن نحترم حرية سوانا فى الافعال؛ فهلاَّ احترمنا حريتهم فى أفكارهم وميولهم ؟ فالتسامح ركن من أركان العدل، وهو ذو أهميـة عظمى لوجود الوفاق بين الناس المختلفين فى ارأى او الاعتقاد

« ٣ — معاملة المرء لغير أهل دينه »

الاستاذ — كيف تعامل اذاً يا بنى أهل الأديان المخالفة لدينك ، أو المغايرة لمذهبك ؟

التلميذ — أحسن معاشرتهم ، وأعطف عليهم عطفى على ابناء دينى ؛ لأنهم اخوانى فى الانسانية .

الاستاذ — بخ بخ لك يا بنى !

التلميذ — ولكنا نسمع بعض الناس يتمثلون بالآية الشريفة : « ولا تؤمنوا الاَّ لمن تبع دينكم »

الاستاذ — كلا ، وألف كلا ! فان هذه الآية جاءت فى القرآن الكريم ، حكاية عن كفار قريش ، يحذرون أنفسهم من معاملة أصحاب رسول الله ، عليهِ الصلاة والسلام ؛ ولذلك لا يصح ان يؤخذ قولهم نصيحة عامة . ولو كان العكس لوجب الأخذ بهِ حقيقة . قال الله تعالى فى محكم كتابه : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغهُ مأمنه » هذا امان الاسلام لاهل الشرك ، فما ظنك بأمانهِ لاهل الاديان السماوية ؛ وقد قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ان تبروهم وتقسطوا اليهم ؛ ان الله يحب المقسطين » وتفرق الناس شيعاً — قضت بها الارادة الازلية — قال تعالى : « ولو

شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

والخلاصة — ان جميع الناس ، وان اختلفوا ديناً ، أو تباينوا مذهباً ، سواء فى محبتنا واحترامنا ، ومعاملتنا (لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا) .

قال أبو العلاء المعرّى :

والدين انصافك الأقوام كلهم   وأى دين لآبى الحق ان وجبا

« الملخص »

من الواجب علينا أن نحترم حيـاة غيرنا ، الاّ فى حالتى الدفاع الشرعي والحرب . وليس لنا الحق بأى وجه من الوجوه فى الاعتداء على حرية الآخرين ، ولا فى التخلى عن حياتنا الشخصية .

كل من قتل نفسه ، يكون من الجبناء .

يجب علينا أن نحترم حقوق الناس ، وسمعتهم ، ومعتقداتهم ؛ فان الدين لله وحده ، والوطن للجميع :

الدّين للديّان جلّ جلاله   لو شاء ربك وَحّدَ الأقواما

« ٤ — فضائل العدل »

ان تلك الواجبات التى ذكرناها ، قد يتبعها فضائل كثيرة ، هى فى الحقيقة نتيجة تأدية تلك الواجبات .

أما أولى تلك الفضائل وأهمها وأجدرها بالثناء فهي :

(١) « الأمانة » التي تقضي بأن لا يغتصب الانسان ما لغيره ؛ أو بعبارة أعمّ وأوضح — لا يجوز له ان يعتدي على حياة الآخرين ، أو حريتهم ، أو أموالهم ، أو أعراضهم . والأمانة هي احـدى الفضائل التي يتحلى بها الرجل الشريف الذي لا يسيء الى أحد .

أما القتلة ، واللصوص ، وقطاع الطريق ، والطغاة ، فهؤلاء كلهم أعداء تلك الفضيلة .

والأمانة تفرض علينا كثيراً من الواجبات : تفرض علينا أن نعطي كل ذي حق حقهُ ، وان نرد الاشياء التي نجدها لأصحابها . وهناك مسألة أخرى : لنفرض انك حسَّنت لأحد رفقائك ان يلعب (البلي) معك ، مع علمك انهُ لا يحسن اللعب ؛ وكان هو يظن انك لست ببارع فيهِ ، وانبنى على ذلك ان ربحت كل ما كان معهُ ؛ فانك لا تُعتبر فتى شريفاً ، الاَّ اذا رددتَ اليهِ ما ربحتهُ منهُ على تلك الصورة .

وتفرض علينا أيضاً ان نقول الحق دائماً وأبداً ، فانهُ لا سعادة الاَّ مع « الصدق » نعم — لقد يضرُّنا الصدق احياناً — الاَّ اننا نكون اذ ذاك قد أرضينا ذمتنا ، وأرحنا ضميرنا . وما أحسن قول من قال :

عليك بالصدق ، ولو انهُ أحرقك الصدق بنار الوعيد

فاذا فرضنا ان المعلم رأى خريطة ممزقة ، وسأل من الممزق لها ؛

فمن المفهوم ان جميع التلاميذ لا بدَّ ان يصمتوا عند ذلك ، ولا يجيبوا خشية النتيجة ؛ فاذا ما وقف الفاعل معتذراً معترفاً بما كان منهُ ، فلا ريب ان الأستاذ يسامحهُ ، او يعاقبهُ عقاباً خفيفاً ، ولا يحفظ له تلك الزلة . لأن مجرد قوله الحق ، يكفي لمحو الذنب ، ويدل على انهُ شريف ، وان ضميره هو الذى دفعهُ الى أن يقول الحق .

(٢) « الانصاف » وهو احدى تلك الفضائل ايضاً ؛ يفرض علينا ان نبتعد عن الشر ، ونحكم النظام والعدل فى كل ما يستعمل الانسان قوته فيهِ . فان القاضى الذى يحكم بالسجن ، أو بالغرامة على اللص ، أو على من يحدث ضوضاء موجبة لتكدير راحة السكان ؛ والذى يردّ الحقوق المغتصبة الى أهلها — لقاضٍ منصف .

ويعد منصفاً ايضاً ، ذلك الاستاذ الذى يعاقب الكسول ، ويكافئ المجتهد .

وكذلك التلميذ الذى يقسم تفاحة مثلاً بين رفقائهِ ، تقسيماً عادلاً .

(والصدق) وهو الامانة والحزم ، اللذان يستعملهما الانسان فى تأدية ما يجب عليهِ .

مثال ذلك : اذا وعد الانسان صديقاً له بأن يؤدى له خدمة ما ؛ فانهُ لا شئ اكثر خباثة ، وأشغل للفكر من عدم الوفاء . فان أساس الصداقة هو احترام الوعود ؛ وهو نوع من الاعتبار الواجب لكل انسان نحو شخصه .

ولقد اعتاد بعضهم أن يعزز كلامهُ احياناً ، باستشهاده الله على قوله ، وهو العالم بكل شئ ؛ وهو ما يسمى في عرفنا باليمين . فاذا كان الوعد يجب ألاَّ يستهان بهِ ، فكيف اليمين . ان الذى يحنث فى يمينهِ لرجل ظالم خائن عادم الشرف .

وسلامة الذوق هى أمانة سامية ، وانصاف واضح — هى الصدق بأدق معانيه — بل هى تتمة الفضائل جمعاء — وهى تقضى باعطاء الحق لصاحبه ، كلما وجد شك .

مثال ذلك : اذا ادَّعى زيد أن الطريق التى تفصل مزرعتهُ من مزرعتك ، هو ملك له ، ولم يقم على دعواه دليلاً ؛ الاَّ انهُ رغب فى فض هذا التنازع بينكم بغير تقاضٍ ، وكان زيد فقيراً ؛ فان من الواجب عليك ان تتنازل له عن تلك الطريق ، وتسمح له بضمهِ الى أملاكه ، عساه ان ينتفع بزراعته .

أو لنفرض ان شخصين أطلقا معاً عيارين ناريين فى آن واحد على طائر فوقع — فلمن يكون يا ترى ذلك الطائر ؟ لا شك انهُ اذا كان الاثنان من ذوى الاحساس ، سابق كل منهما زميله فى نسبة تلك الاصابة اليهِ ، واجتهد فى أن يتخلى عنهُ وربما انتهى الأمر بأن يأكلا تلك الغنيمة معاً ، ثم يكونان بعد ذلك أصدق صديقين .

فالاحساس فى الحقيقة ، هو الذى يظهر فضل الانسان ، و بدونهِ تكون الفضائل ناقصة لا محالة . فاذا كان من الواجب احترام

المنصفين العادلين ؛ فمن الواجب احترام ذوى الاحساس الشريف .

حكى ان نابليون الثالث ملك فرنسا كان يتعهد بناء قصر اللوفر يوماً من الأيام ؛ فتقدم اليهِ نحات أحجار ، وتوسل اليهِ أن يسمح له باشعال سيجارة كانت بيده من سيجارة الملك . فدهش لأول وهلة ثم سأله عن السبب فقال : هذا رهان بينى و بين رفاقى ؛ فضحك الملك وقال : لقد ضاع عليك الرهان يا بطل ! وخجل النحات ، فرقّ له الملك ، وسأله كم مقدار الرهان . فقال خمسة فرنكات يا جلالة الملك ؛ فأمر له بعشرة — للرهان خمسة وله خمسة — فجاء فعله هذا وسطاً بين مقام الملك ، ومكارم الاخلاق ، ومنتهى سلامة الذوق .

« الملخص »

« الامانة » هى اس الفضائل ، وهى التى تدفع الانسان دائماً الى التمسك بالصدق ؛ « والصدق ، والانصاف ، وسلامة الذوق » هى اشرف درجات الامانة التى يجب ان يتحلى بها الانسان .

« تمرين »

بماذا يقضى العدل ؟ — هل يكفى ان يعامل الانسان الناس كما يريد أن يعاملوه ، ليكون رجلاً شريفاً ؟ — من المكلف بتطبيق العدل ؟ — لماذا يجب أن يحترم الانسان حياة اقرانهِ ؟ — ما المستثنى

من هذه القاعدة ؟ — لماذا يعد الانتحار جبناً ونذالة ؟ — ما حقوق الملكية ؟ — ما السرقة ؟ — هل السرقة على انواع كثيرة ؟ — ما معنى التشهير ، او القذف ؟ — لماذا كان التسامح من الضرورات ؟ — بماذا يقضى الصدق ؟ — ما الذى يدعونا الى الصدق ؟ — ما الانصاف ، وما الامانة ، وما سلامة الذوق ؟

الفصل الثالث

« ١ — الاحسان »

التلميذ — يفهم مما تقدم يا سيدى الاستاذ ، ان الجمعية مؤسسة على العدل ، وعلى الشرائع المتخذة منه ؛ وانهُ اذا كان الناس عادلين ، كانت الانسانية تامة .

الاستاذ — لقد اصبت يا ولدى ، ألم اقل لك ان العدل هو أولى الفضائل التى تعرضها القوانين الأدبية ، على الاشخاص المتعاشرين ؟ وقد يوجد شيء آخر لا يقل عنه فى فائدة وسعادة الانسان ، ولو انه يوجد صعوبة عظمى فى استعماله . واننى ليخيَّل لى ان فى امكانك ان تسميه بناءً على ما تقدم .

التلميذ — نعم هو « الاحسان » الذى كثيراً ما دار بخلدى .

الاستاذ — نعم ! لقد اصبت . وكما تكلمنا عن العدل ، فمن

الواجب أن نتكلم عن الاحسان الذى هو من متمماته — فقل لى اذاً ، ما الاحسان ؟

التلميذ — الاحسان على ظنى ، هو عمل الخير مع الجميع .

الاستاذ – هل يكون الانسان محسناً ، اذا لم يقم بكل ما يجب عليه نحو الآخرين .

التلميذ – يعد محسناً اذا بذل كل ما فى وسعهِ لاتمامهِ ولو لم ينجح .

الاستاذ – اذاً يحسن أن يقال من باب أولى : أن الاحسان هو السعى فى نفع الآخرين ، واول درجاته العطف .

ولكن لماذا يجب علينا أن نعطف على غيرنا . هل ذلك لأن القوانين الادبية تحتمهُ علينا ، ومن الواجب ان نخضع لأحكامها ؟

التلميذ – نعم .

الاستاذ – اذا كان الامر كذلك ، فانهُ لا يصح ان يطلق علينا اسم محسنين ، باكتفائنا بابعاد الضرر عن سوانا — فهل انت على هذا الرأى ؟

التلميذ – لا يا سيدى ! – توجد امور كثيرة غير ما ذكرنا : كالتصدق ، وردّ الامانات ، والسعى فى انقاذ الغرقى ، والابتعاد عن قتل النفس .

الاستاذ — أتقصد بذلك انهُ يجب علينا ان نكون عادلين ، اكثر مما نكون محسنين ؟

التلميذ — ربما كان كذلك غير انني لست استطيع التعبير عما فى ضميرى منهُ يا سيدى الاستاذ .

الاستاذ — سأشرح لك ما تريد ؛ للعدل قاعـدة مضمونها « لا تعامل الناس بما لا تحب ان تعامل بهِ » اى « لا تؤذِ احداً » وقاعدة الاحسان « عامل الناس بما تحب ان يعاملوك بهِ » اى « احسن الى الناس » . من ذلك يفهم جلياً ، ان الامر الاول يمكنك أن تعبر عنهُ بقولك « لا تعمل شراً » ، أما الثانى ، فانهُ لا يكفى فيـهِ قولك « اعمل خيراً » . لأن عمل الخير لم يكن محدوداً ، فضلاً عن كونه يتغير بتغير الظروف . وزيادة على ذلك ، فان طرقه ومواضعه ، واسعة لا نهاية لها . لذلك يمكن ان يقال بكل اختصار : ان العدل يقضى بان لا تقصر فى احترام النوع الانسانى ! كما يقضى ايضاً باستعمال ما يستلزمه الاحسان ؛ مما يمكن تلخيصه فى النواهى الآتية

لا تقتل — لا تسرق — لا تخدع — لا تغش أخاك — لا تحتقر انساناً — هذا ما يلزمك ان تجيب بهِ من قال لك « كيف اكون عادلاً » . اما اذا قال لك « كيف اكون محسناً » ؛ فانهُ من المستحيل ان توفى الموضوع حقهُ ، لأن دائرته غير محدودة ؛ الاَّ انهُ على كل حال قد يمكن تلخيصها فيما يلى :

« اصنع كل ما يمكنك عمله من الخير لغيرك » — وبذلك يكون مجال حرية العمل متسعاً ، ومع ذلك فكل ما هو واجب فى الاول ،

واجب لا محالة فى الثانى .

التلميذ — حينئذ . هل يلزم ان يكون الانسان محسناً ؟

الاستاذ — نعم ، الاَّ ان لهذا اللزوم معنى آخر ، نعنى انهُ — لكى نسعى فى عمل الخير للآخرين — يجب علينا ان نتحاب .

التلميذ — هل من الممكن ، ان يحب الانسان جميع العالم ؟

الاستاذ — من الواجب ان يكون لكل انسان نصيب من ميلك الطبيعى ؛ بمعنى انهُ يكون مشمولاً بانعطافك نحوه ، ومساعدتك اياه ؛ ومن ذلك تتولد المحبة . فالمحبة توطد دعائم المعاشرة ، وتوجد للانسان نوعاً من الأسرة ؛ لذلك كان الاصدقاء والمخلصون ، بمنزلة الاخوة ؛ ويكون بينهم من الروابط ما بين افراد العيلة الواحدة ، ولا يبحثون عن الفائدة ، بل يسعون فى توثيق عرى المحبة . فالصفات الحميدة ، والفضائل الجليلة ، والمزايا الجميلة ؛ هى التى تقرب الناس بعضهم من بعض . لذلك كان الرجل الصالح ، لا يحب الاَّ المحب للخير .

ومن الواجب على التلميذ ، أن يتعوَّد منذ صغره ، ألاَّ يخالط غير الصالحين من أقرانهِ ؛ فما أصدق من قال :

« قل لى من عشيرك ، أقل لك من أنت »

التلميذ — هذا ما قاله لى والدى كثيراً ؛ ولذلك أصبحت صديق (محمود) الحميم ، لأنهُ — وان كان فقيراً — حسن السيرة والسريرة ؛ فضلاً عن كونهِ ذكيًّا ومجتهداً ؛ وبالعكس زميلى الآخر ابن الطحان .

فانى فضلاً عن دعوتهِ اياى غير مرّة لتناول الغذاء معهُ ، وتودده الىَّ بكافة الوسائل ؛ أنفر منهُ وأجتهد فى الابتعاد عنهُ ، لأنهُ شرير .

الاستاذ — يجب على التلاميذ العقلاء ألاَّ يجعلوا اللعب والمزاح سبباً لاتصال المحبة ؛ بل يجب عليهم ان يتبادلوا عمل الخير . بمعنى انهُ اذا مرض أحدهم ، عاده الآخرون ؛ واذا افتقر ، أعانوه ؛ واذا تكاسل ، استحثوه واستنهضوه وعلَّموه ؛ وبالجملة قدَّموا له كل مساعدة ورعاية . فالمحبة التى على هذه الصورة هى أحسن وأفضل ما يتصف بهِ الانسان . فنتيجة هذا الميل الطبيعى ، وهذا الحب اللذين يشترك فيهما كل انسان ؛ يولدان عندنا الاخلاص للناس ، وتضحية المصالح الذاتية ، وكلاهما لا يمكن ان يكون الانسان محسناً بدونهِ .

أما القوانين الأدبية ، فانها تفرض علينا أمرين : احترام الوظيفة البشرية ، ونبذ الاغراض الشخصية . اذ ان العدل يستلزم الأولى ، والاحسان يستلزم الثانية . ويمكن ان يعبر عنهما « بالنزاهة » فالنزاهة هى عدم اكتراث الانسان لما يعود عليهِ شخصياً بالفائدة والمنفعة . لأن الانسان لا يكون نزيهاً ، الاَّ اذا فضَّل المنفعة العامة (كمنفعة الوطن ، أو الاسرة ، أو الجمعية) على منفعتهِ الذاتية ، أو منفعة شخص مخصوص (كأحد الاقارب أو الاصدقاء) . فلو فرضنا ان أحد التجار المشهورين بالذمة والصدق فى المعاملة ؛ سوف يشهر افلاسه ، اذا حتمنا عليهِ دفع ما لنا عليهِ من الديون حالاً . أو ان زارعاً

منعتهُ رداءة محصوله ، من اداء ما لنا عنده ؛ فأننا نكون محسنين اذا نحن ساعدنا اولئك الذين يعاونوننا فى الحياة والاعمال ، والمحبة والثروة ؛ وتناسينا ما يعود علينا من الفائدة المادية من وراء تلك المطالبة ؟

النزاهة والاخلاص ، من عواطف الاسرة ؛ وهما لاينحصران فى تلك الدائرة الضيقة؛ بل يتعديانها أيضاً الى الوطن والجمعية ، اللذين هما فى الحقيقة الاسرتان الكبيرتان لبنى الانسان .

« الملخص »

الاحسان ينحصر فى حب الخير للآخرين ، وهو غير اجبارى كالعدل ؛ ويقضى علينا ان نتحابّ ، ويحتم علينا ان نخلص لسوانا ؛ ونضحى مصالحنا الذاتية فى سبيل مصلحة الآخرين .

« ٢ — الاحسان فى الجمعية »

التلميذ — لقد أوضحت لى يا سيدى الأستاذ ما العدل ، وما علاقته بالفرد ، ثم علاقته بالجمعية ، وكيف انهُ أصبح نظاماً تاماً ، ذا قوانين تبين ماهيته ، وقضاة يذودون عن حياضهِ . فهل الاحسان كذلك أى ان الهيئة الاجتماعيـــة ملزمة ان تشترك فيهِ كما اشتركت فى التمسك بالعدل ؟

الاستاذ — الاحسان وان كان واجباً شخصيًّا ، فهو واجب عمومى

أيضاً ؛ اذ من المحتم على كل أمة متمدينة ، ان تتمسك بهِ وتعتصم بحبله .

التلميذ — وكيف تتمكن الجمعية من اظهار النزاهة والاخلاص ؟

الاستاذ — ان هذين الأمرين قد يتغيران اسماً ، وان كانا لا يتغيران معنى ؛ وذلك تبعاً للأحوال . فالنزاهة مثلاً ، قد تحل فى بعض الاحيان محل التضامن ، والاخلاص محل الاخاء .

التلميذ — ذلك ما لم اكن أفهم من قبل .

الاستاذ — ألم تلحظ فى كثير من المواضع — حينما حادثتك عن فائدة الجمعية — ان كل مرافقنا ومصالحنا ، مرتبط بعضها ببعض تمام الارتباط ؛ وانهُ من المستحيل الاعتداء على مصالح فريق ، دون التعرُّض لمصالح الآخرين ؟

مثال ذلك : لنفرض ان زيداً حداد ؛ وانهُ سمع ان أسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً هائلاً فقال : مالى والقطن ؛ وماذا يعنينى من ارتفاع ثمنه ، ما دام ثمن الحديد على ما هو عليهِ » . ثم بعد ذلك أراد ان يشترى نسيجاً ؛ فعلم ان ثمن المتر أصبح ضعف ما كان عليهِ سابقاً ، أو اكثر . ألا يعود على نفسهِ باللائمة ، لعدم اهتمامه بارتفاع ثمن القطن ؛ وهل تظن انهُ يعود الى مثل ذلك مرة أخرى ؟

أو اذا تلفت زراعة القمح مثلاً ، أو تفشى مرض البهائم ، أو حدثت حوادث خطيرة فى بلاد المناجم ، أو طغت المياه فأتلفت مزارع أو منازل احدى القرى ، لم يكن أصحابها هم الذين أصيبوا فقط

بل الهيئة الاجتماعية عموماً تكون اذ ذاك قد أصيبت . لأن جميع ابنائها متضامنون مشتركون فى كل شيء ، سواء كان نافعاً أو ضاراً

لذلك فكر النـاس فى أن يمدوا يد المساعدة لأمثال أولئك المنكوبين ، كما يقتضيه التضامن . والتضامن لم يكن معناه الاحسان ، لأن المقصود بهِ المصلحة اكثر من الواجب . فاذا ما نكبت مدينة أو بلدة بنكبة ؛ بأن حصل لها غرق أو حريق ، أو زلزال أو طاعون ، اكتتب الناس اكتتاباً عمومياً لمساعدة المنكوبين . وهنالك يجود كل انسان بمـا تسمح بهِ نفسهُ ، تخفيفاً لويلات المصابين ؛ حتى اذا ما تبادلت الناس أمثال هذه المساعدات ، خفت مصائب بنى الانسان .

وأحياناً تصاب بعض البلاد بمصائب مختلفة ، فتمد لهـا يد المساعدة جميع البلاد الاخرى ؛ أما قرأت حكاية الأعمى والمقعد ؟

يحكى ان أعمى ومقعداً ، كانا مقيمين فى مدينــة ، وهما فى غاية الفقر ، لا قائد للأعمى ، ولا حامل للمقعد . وكان فى تلك المدينة رجل من المحسنين ، يطعمهما ويسقيهما . واستمرا على هذه الحالة الى ان مات ذلك المحسن ؛ فأقاما بعده أياماً وقد تعبا تعباً شديداً . فاتفقا على ان يحمل الأعمى المقعد ، وهو يدله على الطريق ببصره ، ليستطعما أهل المدينة فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا .

هاك ملخص تلك الحكاية التى تعلمتهـا بالمدرسة ؛ وأنى أفهم منها ان الانسان يلزمه ان يساعد اخوانه فى الأعمــال . فان الناس

لا يتم لهم المعيشة الاَّ بالمساعدة والمعاونة ؛ وانك بالنسبة لذلك لترى صاحب المصنع او المتجر ؛ يبذل كل الجهد فى عمل كل ما يكفل راحة عماله ومستخدميه . ففى البلاد الصناعية ؛ يبنى صاحب المصنع منازل صغيرة ، يؤجرها لعماله بقيمة زهيدة ؛ و يقدم لهم الآلات اللازمة للعمل مجاناً ؛ ويؤسس المدارس لتعليم أبنائهم فيها — كل ذلك لتوفير أسباب الراحة والسعادة للعمال — وفى مقابل ذلك ، يتفانى العمال فى خدمة صاحب المعمل ، و يبذلون ما فى وسعهم فى كل ما يعود عليهِ بالفائدة والمنفعة .

يعلم من ذلك ان الشكر والامتنان المتبادل بين الناس ، يوجدان فى قلوبهم شعوراً راقياً ؛ وهو ما يعبر عنهُ بالاخاء .

اذا رأى الانسان انساناً يتألم ، وتذكر ما صنعهُ معهُ الآخرون عند ما كان هو كذلك — فان كان طيب العنصر حسن التربية — شعر بأن ذلك الانسان ، لم يكن الاَّ أحد أبناء الأسرة البشرية التى هو فرد منها ؛ وان لجميع اخوانهِ الحق فى عطفهِ واخلاصهِ ، وليس المراد ألاَّ يساعد الانسان الاَّ من ينتظر منهم المساعدة يوماً ما ، أو ان لا يعاون الاَّ من يظن انهم يعاونونهُ ؛ بل يعمل الخير حباً فى عمل الخير ، من غير ان ينتظر عوضاً . ويساعد أيضاً من لا منفعة لهم فى الهيئة الاجتماعية ، كالعجزة والعمى ، والمجاذيب وغيرهم ؛ لذلك قضى الاخاء ان ينشأ فى كل مكان مستشفيات تقابل فيها المرضى بكل

حفاوة واكرام ، ويعاملون بكل رفق واحسان . والاخاء ايضاً هو الذى ألهم فاعلى الخير ، ان يؤسسوا ملاجئ يلجأ اليها الايتام اللقطاء ؛ فيربون بكل اعتناء ، حتى يقدروا على الاسترزاق ، ويفيدون الهيئة الاجتماعية التى اتخذتهم ابناءها بنتائج أعمالهم وقرائحهم .

الاخاء — وهو عبارة عن الاحسان العام — يشغل مكاناً عظيماً فى الهيئة الاجتماعية . لذلك لخصت قوانين الثورة الفرنسية كل ما للوطنى وما عليهِ من الحقوق والواجبات فى ثلاث كلمات : « الاخاء — الحرية — المساواة » . والأول هو الغرض الأهم من الاجتماع .

« الملخص »

الاحسان ليس بواجب فردى فقط ؛ بل هو كذلك واجب عام . وهو الذى يوجد فى الناس حب التضامن ، أو تبادل الاعتراف بالجميل ؛ والاخاء والاحسان واجبان على الكل للكل .

« ٣ — فضائل الاحسان »

التلميذ — علمت ان للعدل فضائل — فهل للاحسان مثلها ؟

الاستاذ — نعم ! وما الاحسان الاّ من متممات العـدل كما سبق ذكره ؛ وهو من الأمور التى تساعد على الرقيّ الأدبى .

التلميذ — هل لسيدى ان يشرح لي ذلك ؟

الاستاذ — لعلك تتذكر اننـا حينما تكلمنا على العدل ، ذكرنا الأهمّ فالمهمّ : ذكرنا الامانة ، فالانصاف ، فالصدق ، فالنزاهة . اما الاحسان فيتلو العـدل ، وأولى فضائله العطف . فالرجل الشريف العواطف ، يكون عادة متلبساً بالفضيلة التى يتحلى بها كل انسان نشأ على حب العدل .

التلميـذ — نعم ؛ ولقد علمت ان الانسان اذا لم يكن عادلاً ، لا يكون محسناً .

الاستاذ — واذا لم يكن كذلك ؛ فمن الواجب عليهِ ان يتعوّده شيئاً فشيئاً ، حيث يبتدئ بالواجبات البسيطة ، ثم يترقى فى العمل . وذلك بأن يجتهد أولاً فى رد ما أخذه من الناس . فاذا فعل ، اجتهد حينئذٍ فى الاحسان اليهم ، بطريقة بعيدة عن كل غرض ؛ ويلى ذلك الاخلاص لهم .

أما الرجل الوهاب النهاب ، الذى يسرق ويحسن ؛ فلا يظنّ ان الحسنات ، يذهبنَ السيئات .

التلميذ — لقد وعيت كل ما ألقى عليَّ ، بحيث لم أعد فى حاجة الى شرح معنى العطف ؛ فان معناه ان يحسن الانسان الى الفقراء ، ويواسى البائسين ، قدر استطاعته .

الاستاذ — نعم ؛ ولكن ألا تعلم ان كثيراً من الاغنياء ايضاً ، قد يحتاجون فى بعض الاحيان الى شفقتنا ورأفتنا ومساعدتنا . فالاحسان

اذاً ؛ قد يدعو الى عمل الخير مع جميع الناس ، على اختلاف درجاتهم ، وتفاوت طبقاتهم ؛ لنعلّم الجهلاء ، ونرشد الضالّين ، ونردع المخطئين ، ونساعد البائسين ، ونخفف الاحزان ، ونصلح العيوب ، ونمسح الدموع ، ونضمد الجروح .

فلا يكفى وضع اليتامى مثلاً ، حيث يعتنى بهم فيتغذون ويتعلمون فالناس كلهم لا يعدمون خبزاً — بل يجب ان يسعى الانسان فى مواساتهم وتسليتهم ؛ حتى لا يعود أحدهم يذكر انهُ فقد أمه أو أباه . وذلك بأن نشجعهم ، ونعلمهم ، ونحبهم ؛ ولقد أنصف أولئك الذين يتبنون أمثال أولئك اليتامى ، ويعاملونهم كأولادهم . وما ذلك الا لتمسكهم بالاحسان الذى معناه فى الحقيقة (تبادل المحبة) .

التلميذ — وهل من الواجب أيضاً ، ان نساعد ونعاون منكرى الجميل الذين يقابلون الاحسان بالاساءة ؟

الاستاذ — نعم يا بنىّ ! فان حب عمل الخير ، لا يكون تاماً الا اذا كان مقروناً بالشفقة ؛ وهى نتيجة العفو والمرحمة . فاذا لم تسمح الفرص لانسان أن يظهر بمظهر المشفق ؛ فلا أقل من ان يبرهن على انهُ سمح يتساهل فى الاساآت والغلطات التى تتصل بهِ من سواه ، ويتساهل ايضاً مع اولئك الذين ينكرون جميله .

مثال ذلك — اذا اعطيت لتلميذ كرة او بليــة ، وامتنع عن ان يقرضك شيئاً ؛ او اذا تشاجر معك انسان ، او تكلم فى حقك

بكلام آلمك سماعه ، فالواجب ان تهز كتفيك استهزاءً مما قل وتبسم ؛ فلا يلبث أن يتلاشى الغضب وتصغر الجريمة فى عينك . ثم مع ذلك لا تحمل له ضغينة ، بحيث اذا عاد اليك ، فافتح له ذراعيك ، وقبّله بين عينيهِ ، ترتفع مكانتك فى أعين الناس .

أما اذا عابك على هذا الفعل أحمق ، فلا تلتفت اليهِ ، ولا تصغِ الى سخافتهِ ؛ فليس من العار ان يكون الانسان حليماً ، ومحسناً صفوحاً .

هاك ما يحدونى ان أذكرك بثالث فضيلة للاحسان ، تلك التى سألتنى ان أشرحها لك ، وهى (الكرم) فانى ملخصها لك فى هذه الجملة : « لا تقارن بين أعمالك وأعمال غيرك » ؛ لأنهُ اذا انتظر الانسان ان يكون زميله هو البادىء بالاحسان لم يبدأ احد . لذلك كان من الواجب على كل عاقل ان يكون سباقاً الى عمل الخير . فاذا دفعك انسان او سبّك ، فلا تتلبس بالغضب ، ولا تغيّر سحنتك واعتقد ان المسيء لا بدّ ان يلقى ثمرة ما جنتْ يداه ؛ ولا بدّ له من يوم يعود على نفسهِ فيهِ باللائمة ، ويذوب حسرةً على ما كان منهُ — فالبائس فى الحقيقة انما هو الشرير — فاذا كنتَ غنيًّا ، فتصدّق على الفقراء ؛ وان كنتَ فقيراً ، فافعل مثل ذلك أيضاً ، فانهُ سوف يتضاعف لك الجزاء ؛ فقد قال سبحانهُ وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ؛ فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء »

وليست الصدقة مقصورة على العطاء ، بل المحبـة تُعدُّ صدقة في الحقيقة .

التلميـذ — وهل الشجاعة فضيلة أيضاً ؟

الاستاذ — نعم ! وهي أرقى درجات الفضائل التي شرحناها . وقد قيل ان احد أبطال الاحسان ، بعد ان صرف كل ما كان يملكه على الفقراء والمعوزين ، استأجر قارباً وأخذ يشتغل ليحصل منـهُ على ما يساعده على عمل الخير ؛ وبطل آخر للرأفة ، سامح رجلاً أراد أن يسرقهُ ؛ وبطل آخر للسخاء ، آثر على نفسهِ في وقت الحرب ، جريحاً كان مشرفاً على الموت ظمأً .

« الملخص »

من الاحسان ينتج ثلاث فضائل رئيسة ، تتحد مع فضيلة العدل وهي : العطف ، والرأفة ، والكرم .

والشجاعة أكبر درجات تلك الفضائل التي لا مثيـل لها في الرفعة والمكانة .

« تمرين »

هل الاحسان إلزامي ؟ — لمَ لا يكون للفقراء الحق في طلب الصدقة ، مع علم الجميع ان الانسان يجب عليهِ ان يستعمل العدل في

معاملتهم ؟ — بيّن شكل الاحسان، وصِف فضائله — لماذا أنشأ الناس المستشفيات والملاجئ لتخفيف ويلات الانسان؟ — هل من الواجب على كل من عولج فى أحد تلك المستشفيات ان يعترف لاصحابها بالجميل ؟ — ولماذا ؟ وكيف يعبر عن ذلك ؟ — اضرب مثلاً للعطف والتسامح والسخاء ، ناسباً اياها الى الجمعية ؟ — هل يتسنى للانسان ان يكون نادرة زمانه فى فضيلة من الفضائل ؟

« قصيدة اليتيم[1] »

يتيم تقاضاه الهموم حياته ... وتحرمهُ طيب الحياة خطوبُ
وما اليُتْم الاّ غُربةٌ ومهانة ... وأى قريب لليتيم قريبُ
يمرّ بهِ الغلمان مثنى وموحداً ... وكل امرىء يلقى اليتيم غريبُ
يرى كل أمٍّ بابنها مستعزّةً ... وهيهات ان يحنو عليهِ حبيبُ
يسائله الغلمان عن شأن أهله ... فيحزنهُ أن لا يجيب مجيبُ
اذا جاءه عيد من الحول عاده ... من الوجد دمع هاطل ووجيبُ
كأن سرور الناس بالعيد قسوة ... عليهِ يفيض الدمع وهو صبيبُ
يظلُّ حسوداً للذين أظلهم ... من العيش فينان الغصون رطيبُ
وما علّم الغل الفتى كمصيبة ... دهتهُ فلم يعطف عليهِ ضريبُ
فيا ويله قد مزّق الغل قلبه ... وأنشب فيهِ للشقاء نيوب

(١) لاحد الادباء

الباب الثانى

الفصل الاول — الوطن

« ١ — الوطن عبارة عن أسرة »

التلميذ — لقد فكَّرت كثيراً فيما ذكرتهُ لى عن الواجبات المفروضة على الانسان فى هذه الحياة الدنيا؛ فعلمت ان سعادة الانسان تتوقف على أمرين : — الأول — (احترام الشرف الانسانى) — والثانى — (النزاهة) . وبواسطة هذين الأمرين ، يمكننا معرفة جميع الواجبات المفروضة علينا نحو الاسرة والهيئة الاجتماعية .

فأما ما يجب علينا نحو الأسرة ، فهو الابتعاد عن الاغراض ومعناه فى الحقيقة الارتباط والاخلاص . لأنهُ لا يكفى ان يحترم بعضنا بعضاً ؛ بل يجب ان نتحابّ ايضاً . وأما ما يجب علينا نحو الجمعية ، فهو احترام الوظيفة البشرية ؛ وهو ماينشأ عنهُ العدل . والنزاهة وهى ما يقتضيهِ الاحسان .

الاستاذ — حسن ! هذا ملخص الموضوع .

التلميذ — الاَّ اننى إخال انا تركنا موضوعاً عظيماً .

الاستاذ — وما هو ؟

التلميـذ — هو الوطن .

الاستاذ — لقد أصبت يا بنيّ ، وهل تعرف الوطن ؟

التلميـذ — الوطن هو البلد الذى وُلد الانسان فيه .

الاستاذ — نعم ، الوطن هو الارض التى وُلد فيها الانسان ، فأحياه هواؤها ، ورواه ماؤها ، ووسعهُ فضاؤها ، وأظلتهُ سماؤها ، وغمرتهُ نعماؤها . فنحن بناء على ذلك مرتبطون بالبلد الاصلى ، بشئ هو أشبه بالقرابة . فلا يمكن ان ننفصل عنهُ ، والاَّ كان من وراء ذلك ضرر عظيم ، فكم من أثر ترك لنـا الأقدمون . فالطرق التى نمشى فيها ، والدور التى نقطنها ، والحقول التى نزرعها ؛ كل هذا تراث الأوَّلين منا . هذا ما ترك لنا آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا الذين يعلم الله مقدار ما عانوه فى سبيل الدفاع عن تلك الارض التى سقوها بدمائهم الطاهرة .

التلميذ — واسمع أيضاً ان الوطن الحقيقى ، هو عبارة عن الأمة ؛ وهى مجموع اشخاص يسكنون بلداً واحداً ، ويخضعون لقانون واحد ، لهم حاضرة واحدة وحكومة واحدة .

الاستاذ — ألا يربط هؤلاء الاشخاص شئ آخر غير ما ذكرت ؟

التلميـذ — نعم ، يكون لهم نفس الملامح والجاذبة ، وعلى الأخص ذكرى المجد الذى احرزه اسلافهم ، والخطوب التى حاقت بهم .

الاستاذ — حقيقة ! وذلك لا شك ميراث يرثونهُ عن آبائهم ، كما

ورثوا أرضهم ، وسوف يورثونهُ أبناءهم وأحفادهم .

التلميذ — نعم ! عبارة عن أسرة : كالاسرة المصرية .

الاستاذ — هذا ما كنت أريد أن اقوله لك ؛ فانظر كيف كان ذلك هو الحق لا محالة .

البلد الذى يعيش فيهِ المصريون معاً ؛ هو عبارة عن المسكن الذى تقطن فيهِ تلك الأسرة الكبيرة التى تتكوَّن منهم جميعاً . وكلهم ابناء « مصر » ؛ فكلهم اخوان يشتغل كل منهم من جهة لغرض واحد ، هو عظمة ذلك المسكن .

التلميذ — اذا كان الوطن هو عبارة عن أسرة كما ذكرنا ، فلا بد اذن أن تكون الواجبات المفروضة على الوطنيين نحو الوطن ، هى عين الواجبات المفروضة على الاولاد نحو منزلهم .

الاستاذ — نعم ؛ وليس هناك الاَّ اتساع المكان ، وازدياد السكان . أما الواجبات ، فانها لم تتغير وان اتسع نطاقها .

انظر كيف قسمنا الروابط التى تربط الاسرة : ذكرنا أولاً واجبات الوالدين نحو الاولاد ، وواجبات هؤلاء نحو الوالدين ؛ ثم واجبات الاولاد بعضهم نحو بعض . فلنطبق هذا على تلك الاسرة الجديدة .

« فالوطن » ، وهو تلك الارض التى يجب علينا ان نحبها بكل جوارحنا ، وندافع عنها باموالنا وأرواحنا ، اعترافاً بما لها علينا من الافضال ؛ بمثابة الوالدة لا محالة . لذلك كان من الواجب علينا ان

تتفانى فى تكريمه ، والدفاع عنهُ ؛ كما ندافع عن أمنا التى ولدتنا .

وكما ان للأسرة أباً يجب ان نخضع له — كذلك للأمة أب هو الوطن يجمع بين حنوّ الأم وكرامة الأب كما تنطق قوانينه وشرائعه التى ما وضعت الاَّ لخير أبنــائهِ وللدفاع عنهم ولذلك كان من المحتم عليهم بحق ان يخضعوا لأوامره المقدسة . وكانت الواجبات والحقوق المفروضة نحو الوطن ، هى نفس الواجبــات والحقوق المفروضة نحو الأسرة . وعلى هذا القياس ، تكون واجبات الاولاد نحو أنفسهم ؛ هى التى يمكننا أن نلخصها فيما يلى :

« محبة . مدافعة . اخلاص »

ألم تكن هذه هى نفس الواجبات المفروضة على كل وطنى نحو مواطنيهِ ؟

اننا كما عبرنا عمــا يجب على الاخوة والاخوات نحو أنفسهم ؛ كذلك يمكننا ان نعبر عما يجب على الوطنيين نحو أنفسهم . لأن الوطنيين عبارة عن ابناء جنس واحد ، يجرى فى عروقهم دم واحد ، لهم لغة واحدة ، وخلق واحد ، وماضٍ واحد ، وكلهم يدافعون عن بلد واحد ، كما يسعون وراء غرض واحد : هو مجده وسعادته .

أما ابناء تلك الاسرة الكبيرة ؛ فقد يكون منهم الكبير والصغير ، القادر والضعيف ، الغنى والفقير . وكلهم يجب عليهم أن يتعاونوا ويتضافروا ، ولا يعمل كل منهم ما يعود عليهِ شخصياً بالفائدة ؛ بل ما

يعود عليهِ وعلى مواطنيهِ تشريفاً لذلك الاسم الذى ينتسب له الجميع .

مصرى واحد ، لا يمكنهُ ان يدنس اسم مصر ؛ كما ان فرداً واحداً لا يدنس اسم أسرة . الاَّ ان جريمة ذلك الفرد ، قد تسئ الى المجموع . ولذلك ، مَنْ يلصق بغيره تهمته ، أو يتسبب له فى حزن لا يمكن أن يُعدُّ محبًّا لأسرته ووطنه .

« الملخص »

أرض الوطن ، وخيراته ، وتاريخه ؛ هي عبارة عن ميراث تتداوله الذرارى على ممرّ الأحقاب . لذلك كان الوطن فى الحقيقة ، عبارة عن اسرة .

« ٢ — الوطن عبارة عن جمعية »

الاستاذ — ليس الوطن اسرة فقط ؛ بل هو جمعية أيضاً ، ينطبق عليهِ تمام الانطباق كل ما ذكرناه عن الهيئة الاجتماعية .

التلميذ — نعم ! ولقد ابتدأنا بشرح ضرورتها وفضائلها .

الاستاذ — أتظن ان الدفاع عن الوطن ، لم يكن من واجبات الانسان ؟

ان الانسانية هى عبارة عن متسع عظيم جدًّا ، وأعضاؤها منتشرون أيما انتشار ؛ فلا يتيسر الاشتراك فى المصالح ، ولا الاتحاد

فى الشعور بين أعضاء الجمعية البشرية بمعناها الحقيقى .

نعم — لا أجهل ان الاسكيمو ، والهنود ، والزنوج ، كلهم اخوانى ؛ كما تقتضيهِ الطبيعة والعقل . ولكن ما أبعد ارتباطى بهم ! وما أشد سرورى لو استطعت ان أقدّم لهم ما أقدر عليهِ من الخدم ، وأتبادل معهم المحبة والعطف ؛ ولكن هيهات ان يتحقق لنا ذلك .

ان الرجال العظام ، والمخترعين الكرام ؛ أمثال (جنر) مكتشف « تطعيم الجدري » و (فرنكلين) ؛ مخترع « مانعة الصواعق » ؛ و (بابين أو فولتون) ، اللذين هما أول من عرف استعمال البخار . وكذلك رجال الحكومات ، أمثال أولئك الذين أعلنوا حقوق الانسان وأبطلوا الرق ؛ يمكنهم ان يخدموا الانسانية . أما نحن سكان هذه القرية الصغيرة ؛ أو أنتَ يا ولدي الصغير ؛ كيف يمكننا ان نفيد الجمعية البشرية . وانما هى مكوَّنة من جملة ممالك ، وشعوب وأمم ، كل واحدة منهـــا يتكلم أعضاؤها بلغة واحدة ، ويخضعون كلهم لعادات واحدة ، ولشرائع واحدة ؛ وكذلك يدافعون عن أنفسهم أمام عدو واحد .

فكل واحدة من تلك الأمم ، تنشأ بالاتفاق فى بقعة من الارض ، فترتبط معها بكافة الروابط التى نعلمها ، تكوّن جمعية مستقلة تسمى وطناً .

فالوطن هو الحدّ الأوسط بين الأسرة القليـلة الاتساع ، التى تسع آمال الانسان ولا تفى بحاجاته ، والجمعية البشرية التى امتدَّت

أطرافها ، فضمَّت بين شقيهـا الناس أجمعين ، فضعفت باتساعها أسباب الاتحاد بينهم بل استحالت

وما قلناه عن الجمعية البشرية وفضائلها ، ينطبق أيضاً على الوطن الذى فيهِ يتحقق معنى الاشتراك وتقسيم العمل . وقد ذكرنا المزايا التى لولاها لما تمَّ النجاح المادى ، ولا توفر رغد العيش . لأن الاشتراك فى العمل وتقسيمه ، لا يمكن حصوله بين أعضاء الجمعية البشرية ؛ بل يكون أسهل بين أعضاء البلد الواحد

وهل لك يا بنىّ ؛ أن تصف مقدار الفوائد المعنوية التى يكتسبها الانسان من وجوده فى الوطن ؟

التلميذ — بكل تأكيد وبلا أقل عناء : ان قريتنا هذه الحقيرة ، كان بها من مدة خمسة أعوام ، منزل حقير فيهِ مدرسة لا تسع اكثر من خمسين تلميذاً ؛ ولذلك كان المعلم يضطرّ ان يطرد عشرين طالباً ، او اكثر فى كل عام . أما الآن ، فقد تأسست بها مدرسة فاخرة تحتوى على كل ما يلزم للتعليم ؛ والفضل كل الفضل فى ذلك للوطن ، ومشروعات حكومة الوطن .

الاستاذ — وفى الكفور المجاورة التى لا تبعد عنا باكثر من ستة كيلومترات ، كيف كان يتيسر لأهلهـا ان يرسلوا اولادهم الى تلك المدرسة ؟

التلميذ — انهُ ما كان يأتى منهـا الاَّ القليل ، ممن لا يزيد عددهم

عن الاثنين او الثلاثة ، من كبار التلاميذ ؛ اما الصغار ، فانهم لا يستطيعون ان يمشوا ثلاثة فراسخ فى اليوم

الاستاذ — اذاً ، لقد كان ذلك ظلماً فاحشاً ؛ لأن سكان الكفور الصغيرة التى لا يتجاوز مقدار أهلهــا ثلثمائة نفس ، لا يمكنهم انشاء مدرسة على حسابهم . أما الآن ، فقد أصبح فى كل كفر مدرسة خصوصية ، وابتدأ كل الوطنيين يتعلمون و يتنورون ؛ والفضل كل الفضل فى ذلك ، لجامعة الوطن .

ان الوطن لم يحصر خيراته فى التعليم الابتدائى فقط ؛ ولكنهُ أنشأ كثيراً من المدارس العليا والجامعات (حيث يتخرج فيها الاطباء والمحامون والمهندسون والأساتذة وغيرهم) ، وكذلك جميع المعاهد العلمية ، والمراصد ، ودور الآثار . فان كل ذلك مما تنفق عليهِ الحكومة . وبالجملة ، فان كل ما كان مفيــداً لتعليم الأمة ، او داعياً للنجاح الانسانى ، او مساعداً على انتشار العلوم والفنون والصنائع ، فنحن مدينون بهِ للوطن .

التلميذ — وكذلك قد تحققتُ الآن ، ان جميع الفوائد الأدبية التى نالها من الاجتماع ، هى بفضل الجامعة الوطنية .

الاستاذ — انك لم تخطئ يا بنيّ ؛ أتذكر اذ كنت أشرح لك كيف ان العدل والاحسان ، لم يكونا من الفضائل التى يختصُّ بها فرد من الأفراد ؛ بل أصبحا من النظام العام . فقد كنت أعنى بذلك الوطن ،

فانهُ — لكى تكون قواعد العدل ثابتة جلية — كان من الواجب ان تكون مقرَّرة باتفــاق سكان الوطن الواحد ، ملحوظة بنفس ذلك الشعور ، ومحترمة لدى الجميع . وعلى هذا المثال ، يكون الاحسان أيضاً ؛ لأن أعضاء الجمعية البشرية متفرّقون ، ولا يعرف بعضهم بعضاً ، فلا يمكنهم أن يتبادلوا المساعدة .

أما ابناء الوطن الواحد ؛ فيمكنهم القيام بذلك ، بواسطة تأسيس المستشفيات والملاجئ ، التى يلجأ اليها المرضى واليتامى ؛ و بدون الوطن وجامعته ، لا يتيسر للانسان ان يتمتع بمزايا العدل والاحسان .

التلميذ — لقد علمت الآن ، ان من الواجب أن يحب الانسان وطنه ؛ ولذلك سأتفانى فى حبهِ طول حياتى .

بلادى وان جارت علىَّ عزيزة وأهلى وان ضنُّوا علىَّ كرامُ

« الملخص »

الوطن ليس عبارة عن أسرة فقط ؛ بل هو جمعيــة ضرورتها وفضائلها واضحة جلية . والهيئة الاجتماعية قبل كل شىء لا يمكن ان تقوم لها قائمة الاَّ بالوطن الذى يقرب الناس بعضهم من بعض ، ويجعلهم يتعاونون على اكتساب الفوائد المادية ، والأدبية ، والعقلية التى تستوجبها المعاشرة .

« ٣ — الوطنية »

الاستاذ – الوطن عبارة عن أسرة وجمعية كما قدمنا ؛ ومن الواجب ، ان يكون لنا قوة نفس الشعور والاحساسات التى نشعر بها نحو الاسرة والانسانية . أتعرف بماذا يعبرون عن هذا الشعور ، اذا كان المراد بهِ الوطن ؟

التلميذ — الوطنية .

الاستاذ — نعم ؛ و بماذا تقضي الوطنية ؟

التلميذ — تقضى بأن يخدم الانسان وطنه ، بصدق واخلاص .

الاستاذ — نعم يجب على الانسان ، ان يحب وطنه ، كما يحب أمه ، و يطيعهُ اطاعته لوالده . أما من جهة المحبة ؛ فان الطبيعة تحتم علينا ذلك بالرغم منا ، والاَّ ، فمن هو ذلك المصرى الذى لا يرقص قلبه طرباً ، عند ذكر اسم مصر ؟ ومن ذا الذى لا يسرّ لسرورها ، و يحزن لحزنها ؟

التلميذ – نعم ، لقد فهمت ان الانسان يجب عليهِ ان يحب جميع العالم ؛ الاَّ انهُ لا يستطيع ان ينكر أمر تفضيله المصريين على سواهم .

الاستاذ – نعم ، ومن ذا الذى يلومك على مثل هـذا الشعور ؟ انهُ وان كان من الواجب على الانسان ان يحسن معاملة أقرانه وخلانه ، الاَّ انهُ ليس من المحرم ، أن يحب أقاربه اكثر من غيرهم .

وعلى هذا القياس، تكون الحال فيما يختص بالبلد . فمحبة بلدنا، يجب أن تفوق محبة جميع البلاد الاخرى؛ وانهُ لهو العدل لا محالة . فكما أن الوطن خيراته علينا أعمّ واكثر من غيره من الاوطان ، يجب أن تكون محبتنا له اكبر

ليس من الصعب ان يحب الانسان وطنه؛ انما الصعب هو احترام شرائعه ، والخضوع لقوانينه وأحكامه .

التلميذ — ليس هناك أدنى صعوبة فى ذلك؛ خصوصاً اذا علمنا ان هذه القوانين أساسها العدل .

الاستاذ — كلاَّ ! فانهُ ليس أصعب على الانسان من أن يخضع للقوانين التى تقدس الحقوق الصريحة المعترف بها من الجميع؛ الاَّ ان الوطن قد يكون من مصلحتهِ أحياناً ، أن يحدد بطريقة مخصوصة ، شكل الحكومة وطريقة الادارة؛ وربما نتج عن ذلك ان تمس آمال وذكرى بعض ابنائه . ومع ذلك ، فان ارادة الشعب (أى الوطن) يجب ان تطأطأ لها الروؤس، وتخضع أمامها جميع الناس . هذه هى الواجبات التى يفرضها الوطن نحو ابنائه بصفة أسرة . أما فيما يتعلق بهِ جمعية؛ فأنهُ يفرض عليهم أموراً أخرى، ينحصر معناها فى كلمتين : « التضامن والاخاء »، ولا أخالك تجهل معناهما .

ان اتحاد المصلحة والمحبة ، لن يكون كما أخبرتك الا بواسطة الوطن؛ فهو الذى يسهل طرق الاجتماع ، سواء كان ذلك فيما يختص

بالاعمال الحسية ، أو بمستلزمات العدل والاحسان . ولست فى حاجة لأن أشرح لك وجه ارتباط مصلحة الشخص بمصالح الآخرين ؛ كما انهُ ليس من الضرورى ، ان أوضح لك أيضاً ، ان جميع العالم ، يجب أن يكونوا اخواناً . . . فالوطن كما ذكرنا هو أوحد طريقة تربط الاسرة بالانسانية ، وتساعد على تحقيق قصدهما . وكل هذه الواجبات يمكن حصرها وتلخيصها فى شئ واحد : وهو «الاخلاص» . فالوطنية على العموم هى فضيلة انكار الذات ، وتضحية النفس ؛ وهى تتناول جميع درجات الفضيلة ، من أول فرض على الانسان ، وهو اداء ما يجب عليهِ نحو وطنه ، الى أرقى الخلال درجة وهى الشجاعة

ومن أرقى درجات الشجاعة ، الشجاعة الحربية ، وهى التى تقضى على الانسان أن يعرض حياته للأخطار ، حفظاً لكرامة بلده وسلامته . وهو أصدق برهان يقدمهُ الانسان على شديد اخلاصه ، وصدق وطنيتهِ .

ويوجد أمر آخر : هو ان يدعو الانسان أيًّا كان — بالقول والعمل — الى السلام والعدل والاخاء ؛ ويقيم البراهين القوية عليها ؛ وبذلك يكون قد خدم بلاده خدمة جليلة تستحق الاعجاب . أما أعزّ وأشرف ما يسعى اليهِ الانسان الحرّ ، فهو ان ينال لقب (وطنى) عن أهلية واستحقاق .

« الملخص »

ان الشعور الواجب علينا نحو الوطن ، ينحصر فى كلمة (وطنية) . بما أن الوطن هو عبارة عن اسرة ، فيجب علينا أن نحبهُ ونخضع لقوانينه ، كما نحب ونطيع والدينا .

و بما انهُ عبارة عن جمعية ؛ فمن الواجب علينا أن نكون مرتبطين بجميع اعضائهِ ، بالشعور والاخاء اللذين معناهما فى الحقيقة (الاخلاص)

« تمرين »

ما وجه الشبه بين الوطن والاسرة ؟ — ممَّ يتكوَّن الميراث العمومى لسكان الوطن الواحد ؟ — كيف يكون للوطن سلطة علينا ، تضارع سلطة الوالد والوالدة على الاولاد ؟ — اشرح كيف يستحيل وجود هيئة اجتماعية ، اذا لم يعرف الانسان له وطناً ؟ — ولماذا يكون العدل والاحسان بدون الجامعة الوطنية لا معنى لهما ؟ — لماذا كانت اطاعة قوانين البلاد من شروط الوطنية ؟

الفصل الثانى — الواجبات الوطنية

« ١ — الضرائب »

الاستاذ — لقد تكلمنا عن الوطن بوجه الاجمال ، واكتفينا بأن نبين الواجبات العمومية المفروضة على كل انسان ؛ الاَّ انهُ لا يجمل بنا أن نقف عند هذا الحد من الشرح والتفصيل ، فلنستمر فى مباحثنا

من الواجب أن نشرح الآن الواجبات ، والحقوق الخصوصية التى له نحو ابنائهِ ؛ لأنهُ ليس المراد أن تكون الآن غلاماً صالحاً ، ثم تصير بعد ذلك رجلاً شريفاً ، تحترم أينما ذهبت ، وحيثما حللت ، سواء كان فى انجلترا ، او ايطاليا ، او غيرهما ؛ بل تكون مصرياً حقيقياً ، ثم بعد ذلك وطنياً صحيحاً ، تفيد اقرانك ، أى أقاربك ومواطنيك .

وأول واجب تفرضه مصر على ابنائها ؛ انما هى الضريبة ، وهى عادلة وضرورية . فهل لك أن تخبرنى على قدر ما يستطيع تصورك وجه ذلك .

التلميذ — لأنهُ اذا لم تدفع تلك الضريبة ، لا يوجد عند الحكومة نقود تنفق منها على تنظيف الطرق ، وانارة الشوارع ، ودفع مرتبات الموظفين العموميين ، ورجال الضبط ؛ حيث جرت العادة أن يفر

المجرم عقب ارتكابه الجريمة . لذلك كان من الضرورى أن تعين الشرطة لاقتفاء أثره ، والمحققون لسؤاله واستجوابهِ ؛ والقضاة لتبرئتهِ او الحكم عليهِ ، حسبما يظهر لهم من براءتهِ أو ادانتهِ .

وكذلك أشغال المنافع العمومية ، كالترع والقناطر والطرق . . . فليس من الممكن انشاؤها ، اذا لم يشترك فى ذلك جميع الناس .

والجيش ؛ وهو ما يستلزم اكثر النفقات — عشرون ألف رجل يتغذون ، ويلبسون ، ويتسلحون ؛ فتشترى لهم المدافع ، والبنادق ، وتبنى لهم الحصون ، والقلاع — كل ذلك بأموال لا يستهان بها .

الاستاذ — لك الحق يا بنىّ ! فان الضرائب هى التى تقوم بدفع كل ما يلزم لذلك ؛ وهى ضرورية وعادلة كما قدمنا . فانهُ لما كان الانسان محباً للرفاه ، كان من الواجب عليهِ اذاً ، أن يضحى شيئاً من ثروتهِ فى سبيل ذلك ؛ كما هو متبع فى جميع البلاد المتمدينة . فالضرائب بناءً على ذلك ، ضرورية لاجراء جميع الاعمال العمومية ، وحفظ النظام ، وما أشبه ذلك . والضريبة يجب أن تكون عمومية والزامية ، بمعنى انها تقسم على جميع الاهالى بلا استثناء ؛ كما انها يجب أن تكون عادلة ، بمعنى انها تفرض على جميع الناس بطريقة واحدة ؛ وان تكون بنسبة ثروة من تفرض عليهم ، لا فرق بين زيد وعمرو ، ولا تمييز بين الغنى والفقير ، والعالم والجاهل . فالحكومة تقدّر الاموال على حسب أهمية الاماكن والاطيان ؛ فكلما ازدادت تلك الاهمية ،

ازدادت الاموال . وعلى ذلك تكون العوائد ، أو الضريبة بحسب ثروة الممول . وانى لا أظنك تجهل معنى ذلك ؛ لأنهُ ليس من العدل أن يتساوى في ذلك نصيب الفلاّح الذى لا يملك سوى بيتهِ وفدان أو فدانين ، بذلك الغنى الذى يستغلّ من أرضه مئات من الدنانير سنويًّا . وما قيل عن الزراعة ، يمكن أن يقال عن التجارة أيضاً ؛ بمعنى ان الحانوت الذى لا يزيد ربحه على بعض آلاف من القروش مثلاً لايساوى مع ذلك الذى يزيد ربحه عن آلاف الجنيهات . اذ العدل يقضى بأن يدفع كل وطنى جزءًا من النفقات اللازمة للوطن ؛ بشرط أن يكون ذلك على قدر حالته المالية . فأصحاب الاراضي الفسيحة ، والتجارات الواسعة ، مكلفون بأن يدفعوا للحكومة اكثر من غيرهم ؛ كما انهم يكلفونها فى حراستهم اكثر . والحوذى الذى يملك عشر مركبات تشغل الطريق طول النهار ، لايصح أن يؤخذ منهُ ، ما يؤخذ من ذلك الذى لا يملك سوى مركبة نقل صغيرة — وبالجملة ، فان كل وطنى صادق ، يجب عليهِ أن يؤدى ما للحكومة كل عام بطيب خاطر ؛ وكل من يتأخر عن القيام بخدمة الوطن ، يكون أحط وأحقر ، من ذلك الذى يأبى ان يسعى للانفاق على أسرتهِ .

« الملخص »

ان الوطن الوحيد الذى يجب علينا أن نعرفهُ ونتفانى فى خدمتهِ

انما هو (مصر) . وهى التى لها علينا واجبات خصوصية ، أوّلها الضريبة التى هى ضرورية وعادلة . والضريبة فى مصر عمومية والزامية ، كما انها عادلة ونسبية .

« ٢ — الانتخابات »

التلميذ — لقد فهمتُ يا سيدى الاستاذ ، ان دفع الضرائب ، انما هو من الواجبات المفروضة على كل شخص نحو وطنه ؛ ولكننى لا أرى لزوماً لاشتراك جميع الناس فى تقدير تلك الضرائب . فاذا أنا أنبتُ عنى غيرى ، أو كان عندى ما يشغلنى عن الانتخاب — فأى ضرر هناك فى امتناعى عن الحضور عند انتخاب النواب ، وأعضاء الشورى ؛ لتقدير الضرائب ، وتقرير كيفية سريانها ؟

الاستاذ — لستَ مصيباً يا بنىّ ! ولكننى قبل أن أظهر لك خطأك ، اريد أن أوجّه اليك سؤالاً : ألم يكن المندوبون والاعضاء مكلفين بشىء غير تقدير الضرائب ؟

التلميذ — اعلم يا سيدى ، انهم مكلفون أيضاً بسنّ القوانين التى تحتاج اليها المعارف والحقانية ، والداخلية والاشغال ، والحربية وغيرها ولكن ، ألا يقال ضمناً ، ان الانسان متى كان واثقاً بالحكومة ؛ فانهُ يفضل عدم الاشتغال بالسياسة ، وانهُ يعيش هادئاً ، لا يزاحم انساناً فى انتخاب زيد ، أو اسقاط عمرو ؟

كنت ذات ليلــة بالطاحونة لعمل خاص ، فسمعت الطحان يقول : « انى لن أتداخل فيما لا يعنيني . لقد مضى عليَّ عشر سنوات وأنا لا أنتخب ، فليتشاحن على ذلك خلافى ؛ أما أنا ، فلا احرّك ساكناً ؛ فأنا اكبر من ان أعرض نفسى لمثل ذلك » أليس له الحق يا سيدى الاستاذ ؟

الاستاذ — هب انك كنت جندياً ، وكنت فى احدى المواقع ؛ وانك بمجرد ان اشتبك القتال ، ودارت رحى الحرب ؛ اجتهدت فى ان تكون بمأمن من النيران ، بينما ترى الآخرين يقاتلون مستميتين . ثم أنت تقول « ومالى أعرض نفسى للهلاك ! — دعهم يتقاتلوا كما يشاؤون ! » أتظن انك تكون قد أحسنت عملاً ؟

التلميذ — كلا ! . . . كلا ! . . .

الاستاذ — عرفت ما تريد ان تجيب بهِ . . . أنت تريد ان تقول ان السياسة ليست الاَّ عبارة عن اشتغال الانسان بالاعمــال العمومية ، ولم تكن موقعة من مواقع الحرب ؛ حيث يعرض الانسان نفسه للاخطار ، فلا عدو يرجى قهره ، ولا بلد يراد صد الغارة عنهُ ؛ وان هى الاَّ مشاحنة ، والحقيقة ان كليهما واحد . لأن ذلك العمل لا يقصد بهِ الاَّ سلامة الوطن ومستقبله . فبعضهم يودّ ان يدير ادارتهُ على طريقة مخصوصة ، والآخر يفضل على تلك الطريقة غيرها . فهذه الآراء المختلفة ، تجتمع فى نقطتين متضادتين ؛ ويأخذ

كل فريق يدافع عن رأيهِ ، ويسعى فى استمالة الآخرين اليـهِ ؛ وبذلك تسير الحكومة فى الطريق الأصلح .

فاذا كان لك رأى صائب مفيد للوطن — ألا تدرى انك تجنى اكبر جناية ، اذا لم تخض غمار تلك الموقعة السلمية ؟ ان جنايتك فى هذه الحالة ، لا تقلّ عن جناية ذلك الجندى الذى يفرّ من مواقع القتال.

أما ما قاله الطحان ؛ فهو حديث رجل يستسلم لجميع الاشياء ، فلا يهتم الا بأمر نفسه ؛ وانهُ لرجل خائن ، لا يحب وطنه ، ولا يعلق أدنى أهمية على سعادتهِ وشرفهِ . فاذا ما فعلت أنت كذلك ، فانظر الى أين يكون المصير ؟

ان الامتناع قد يكون خطأ ، الاَّ أنهُ قد يتحوَّل فى بعض الاحيان الى جريمة ؛ لأن الضرر قد ينشأ أحياناً من القعود عن عمل الخير .

التلميذ — لك الحق يا سيدى ؛ الا انهُ من الصعب أن يعرف الانسان كيف ينتخب .

الاستاذ — انهُ لكذلك حقيقة ؛ ولكن الانسان يجب عليهِ ان يحتاط بكل الوسائل ، ليكون فى جانب الحق والعدل . فينتخب قبل كل شئ ، بتمام الحرية ، وحسب ما يوافق ذمتهُ وضميره . ولكى يكون الانتخاب حرًّا ونزيهاً ؛ يجب على من ينتخب ، ان يبحث بحثاً دقيقاً عن حالة من سينتخبهُ . فعند ما يطلع على الصحف ، ويعقد النية على الاشتغال بصالح بلده ، يسعى فى معرفة صناعة ومكانة العضو

الذى سيقرر انتخابهُ ؛ وكذلك يسأل عن ماضيهِ ، وأخلاقهِ ، وآرائهِ ؛ حتى اذا ما سئل عن سبب انتخابهِ لذلك العضو ، أقنع سائليه . ولذلك يجب ان يكون المنتخب مستقلاً ، ومن العار ان يخون العهد .

« الملخص »

يجب على الانسان أن يهتم بأعمال بلده ؛ كما يجب عليهِ ان يحضر الانتخاب ، ليختار بواسطة من ينتخبهُ الطريقة التى رآهـا صالحة للسير على مقتضاها . أما الامتناع فهو خطأ . وقد يكون أحياناً جريمة . الانتخاب يجب أن يكون حرًّا وعلنياً . فاذا ما انتخب العضو وجب أن يُحترم استقلاله ؛ كما يَحترم ذلك الأمر الذى عهد بهِ اليهِ .

« ٣ — الخدمة العسكرية »

الاستاذ — هل ذلك هو كل ما يجب على الانسان نحو وطنه ؟ أليس هناك أمر هو اكثر أهمية ، وأوفر حظاً من كل ما تقدم ؟ تذكر .

التلميذ — الخدمة العسكرية .

الاستاذ — نعم نعم ! هى بعينها ! وهل تقدر أن تذكر أهميتها ؟

التلميذ — أرى يا سيدى انهُ اذا كان لمصر جيش ، كان من الواجب على جميع المصريين ان يكونوا من أفراده ؛ ولكنى لست أدرى ما ضرورة الجيش . أليس من الممكن أن تتفق مع جميع الأمم

الأخرى ، على ابطال الحرب ؛ او — اذا كان ولا بد من ذلك — فلمَ لا تقوم الأمة عن بكرة أبيها ضد العدو عند الاقتضاء ؟ ان الجنود لا يشتغلون طول حياتهم بغير التمرينات العسكرية ، والأعمال الحربية ؛ ثم هم يحرمون أسراتهم وجودهم بينها ، و ينسون صنائعهم التى تعلموها .

الاستاذ — هذا من التصوُّر الخيالى يا بنىّ ! هذا فرض المستحيل ! وأنت قد جمعت فى قولك هذا ، نوعين من هذا الخيال

فأما الأول ، فهو ظنك انهُ من الممكن ان نتفق مع جميع الأمم الأخرى على ان يسود السلام . فكم فكر المفكرون فى ذلك ، وكم تكلموا عن ضرورة نزع السلاح ، وتعيين لجنة تحكيم ، يكون الغرض منهــا الفصل فى المنازعات التى تقع بين بعض الأمم و بعضها بالطرق الحبية . . . اعتقد اننا اذا قررنا نزع السلاح ، فان الآخرين لن يتبعونا فى ذلك ؛ بل بالعكس ينتهزون الفرصة للاغارة على املاكنا ومصالحنا . والبلد الذى ليس فيهِ جيش عامل ، ولا جنود مدرَّبون فى وقت السلم ؛ يتعرَّض لكثير من الاخطار ، ويقع فى قبضة جاره الذى يكون اكثر احتراساً منهُ .

وأما الثانى ، وهو اقتراحك ان تخرج الاهالى دفعة واحدة لمقاتلة العدو ؛ فلقد كان ممكناً فى سنتى ١٧٩٢ و ١٧٩٣ ، و بهِ تخلصت فرنسا ، وما ذلك الاَّ لأن (السونكى والقراابينه) ، كانتا هما السلاح الوحيد لجميع المحاربين . أما الآن وقد اخترع ما يردى الانسان عن

بُعد، بحيث لم تعد تفيد الشجاعة؛ فقد أصبح النظام، وضبط استعمال الأسلحة، واتقان الحركات العسكرية وغير ذلك، وامكان حشد جيش عظيم وقت الحاجة من أهم الضرورات.

التلميذ — ولكن؛ هل من الضرورى أن يندمج جميع الشبّان، فى سلك العسكرية؟

الاستاذ — انى لا أقول انهُ من الضرورى؛ بل أقول انهُ من المفيد جدًّا. لأن وفرة عدد الجنود، أصل النجاح؛ وهو الذى عليهِ المعول الآن كما أسلفنا، فضلاً عن كونهِ مماتقتضيهِ المساواة. لأنهُ ليس من العدل، أن يعرّض بعضهم حياتهم للأخطار، ويخاطروا بأرواحهم؛ بينما يكون الآخرون فى منازلهم هادئين مطمئنين، لا يؤدُّون للوطن أدنى خدمة.

أما واجبات الجندى فى فرقتهِ، أو (ألايه) — ولا أظنك تجهل ذلك — فأوّلها النظـــام؛ وبدونهِ لا يمكن أن يكون الجيش قويًّا متيناً، ذا بطش؛ كما انهُ لا يمكن أن يكون النصر حليفهُ.

والنظام ينحصر فى اطاعة أوامر الرؤساء، ومحبة العلم المصرى واحترامه لأنهُ هو الذى يمثّل الوطن، ومجده، واحسانه، وواجباته المقدسة لدى كل وطنى. أما فى مواقع القتال «فالاقدام والاخلاص» ومنهما تكون الشجاعة.

من الواجب ان يكون الجيش أفضل مدرسة للوطن؛ اذ

عليهِ تتوقف سعادته وشرفه ، وفيـهِ تنحصرُ كل آماله . انهُ لم يكن كجزء منفصل عنا ؛ بل هو الأمة بتمامها ، تدافع عن نفسها أمام صدمات العدوّ ، وتطلب من كل عضو من أعضائهـا الإخلاص والمساعدة اللذين يُنتظران من كلٍّ منهم ، متى كان سليماً لا عاهة فيهِ . وان الجيش ليكون أشدّ اخلاصاً واكثر اتحاداً مع الأمة التى هو منها ؛ متى تمرَّن جميع أفراده على خدمتهِ منذ الصغر .

فالنظام المدرسى الذى يتعلمهُ الاطفال منذ طفولتهم ، قد يسّهل عليهم التعليمات العسكرية . فان أطفال اليوم ، هم رجال المستقبل الذين سيدافعون عن وطنهم بكل قوَّة وحماسة .

« الملخص »

ان الخدمة العسكرية ، لا تقلُّ فى الأهميــة عن الضرائب والانتخابات وهاتان هما من أقدس واجبات الوطنى . فمن الضرورى ان يكون لكل بلد جيش عامل ، يحفظ كيانه واستقلاله ؛ والخدمة العسكرية يجب ان تكون إلزامية للجميع ، وهو العدل لا محالة .

ليس الجيش الاَّ الامة كلها ، تدافع عن نفسها أمام العدوّ ، وتستعد بواسطة النظام والتدريب ، لحفظ ميراث الاقدمين

« تمرين »

لماذا كانت الضرائب من أهم الواجبات المفروضة على كل وطنى نحو وطنه ؟ — اذكر ما تعلمهُ عن ضرورة الضرائب ومشروعيتها — لماذا يعد اهتمام الانسان بشؤون بلده وسير أعماله فرضاً واجباً ؟ — كيف يعبر الانسان عن رأيهِ وفكره ؟ — ما رأيك فى أولئك الذين يمتنعون عن اعطاء أصواتهم فى الانتخابات المهمة ؟ — لماذا كان من الواجب على كل أمة - والحالة هذه - ان تعدّ لها جيشاً عظيماً قوياً ؟ - لماذا لا يكون قيام الأمة باكلها دفعة واحدة للحرب ، من الأمور المفيدة ؟ — لماذا كانت الخدمة العسكرية إلزامية ؟ — ما الذى يقتضيهِ النظام ؟ — لماذا كان من الضرورى ان كل قوّة مسلحة يجب أن تخضع لنظام مخصوص ؟ - ما فائدة التدريب العسكرى المدرسى ؟

الفصل الثالث — الحقوق الوطنية

« ١ — المساواة »

التلميذ - لقد أوضحت لى يا سيدى الاستاذ - فيما سبق - جميع الواجبات المفروضة على الوطنى نحو وطنهِ؛ الاَّ انك لم تذكر شيئاً عن واجبات الوطن نحو ابنائه !

الاستاذ — الحقوق يا بنىّ نتيجة القيام بالواجبات .

التلميـذ — وما معنى ذلك ؟

الاستاذ — معناه ان الحقوق تنشأ من نفس تأدية الواجبـات ؛ لأن الواجبات المفروضة على غيرنا لنا ، هى حقوق لنا . ولذلك كان كل حق مرتبطاً بواجب ، وكل واجب مرتبطاً بحق ؛ كما هو الحال فى جميع الجمعيات المنظمة .

التلميذ — اذاً ، يجب على من يريد معرفة الحقوق ان يبدأ بمعرفة الواجبات المفروضة على كل مصرى قانوناً .

الاستاذ — نعم يا بنىّ ؛ وقد تنقسم هذه الواجبات الى ثلاثة أقسام :

الاول — دفع الضرائب (أعنى مقاسمة الوطن فى نفقاتهِ) ؛

الثانى — حق الانتخاب (أعنى الاشتراك فعلاً فى ادارة حكومة البلاد) ؛

الثالث — الخدمة العسكرية (أى الدفاع عن الوطن ، والمحاماة عنهُ أمام العدوّ) . ولنبحث عن الحقوق التى تترتب على هذه الواجبات .

ان فى فرض الضرائب على الممولين ، بلا فرق ولا تمييز بين رتبهم ووظائفهم ، برهاناً على ان جميع أبنـاء الوطن سواء فى نظر القانون وجميعهم — بما انهم مكلفون بدفع نفقات ادارة البلاد كل بحسب ثروتهِ — لهم حقوق شرعية واحدة ، كحق التملك لجميع ما يرثهُ الانسان ، أو يكسبهُ بعمله ، طبقاً للقوانين المرعية . والجميع — كما

أنهم متضامنون فى حاجيات الوطن — لهم حق الاشراف على طريقة توزيع الاموال العمومية على تلك الحاجات .

ومما تقدَّم ، ينتج ثلاثة حقوق للوطن :

الاول — المساواة المدنية ؛

الثانى — حق الملكية ؛

الثالث — حق الرقابة على استعمال الاموال التى تقررت برأى الامة .

وليس المراد من تساوى الافراد ، ألاَّ يكون بينهم الضعيف والقوى ، أو الفقير والغنى ، أو الوضيع والرفيع ؛ بل كل هذه الفوارق الظاهرية التى هى نتيجة الاتفاق والمصادفات ، لا تزال موجودة ؛ ولكن لا تأثير لها فى الحقوق العامة . بمعنى أن الغنى القادر اذا اعتدى على القانون ، عومل كما يعامل أحقر صانع أو مزارع ؛ وبالعكس كل من خدم بلاده بصدق واخلاص ، كانت له المكافأة الحسنى ، ولو كان وضيعاً

ولما كان الناس متساوين لدى القانون ، وجب أن يتمتع كلٌّ بما يمتلكه من ثمار أعماله بأمان وطمأنينة تامة . أى أن يكون محترماً فى شخصهِ ، محترماً فى ماله ، ووجب على الهيئة الاجتماعيه أن تؤيد له احترام جميع حقوقهِ ، وذلك بواسطة القضاء العادل .

ولما كان كل فرد يدفع جزءًا من نفقات الادارة العمومية للبلاد ؛ كان له الحق فى مراقبة صرفها فى الشؤون العمومية .

وتكون هذه المراقبة بواسطة النواب المندوبين عن المديرية أو المركز ، فى مجالس المديريات ، أو المجالس النيابيــة الاخرى ؛ وهم الذين يعرضون للحكومة مطالب ورغبات المنتخبين من قبلهم .

فالاقتراع العام ، هو المؤيد لمبدأ المساواة بين ابنــاء الوطن ؛ وبواسطة المندوبين يتيسر للجميع مراقبة الشؤون العمومية .

« ٢ — الحرية »

الاستاذ — قال الاحنف لمعاوية يوماً : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » اذاً فجميع الوطنيين متساوون . ولمَ ذلك ؟ لأنهم جميعاً أحرار . لذلك كان لهم حق الانتخاب الذى بواسطته يمكنهم أن يبدوا رغائبهم المتعلقة بالطرق التى يجب ان تتبعها الحكومة فى ادارة شؤون البلاد .

وقد ينشأ عن الانتخاب ثلاثة حقوق أيضاً :

الاول — الحرية المدنية ، والسياسية ؛

الثاني — حق ابداء الرأى ، والاشتراك الفعلى فى حكومة البلاد بواسطة الانتخابات ؛

الثالث — السلطة السياسية المعترف بها بلا قيد ولا شرط ، لمجموع أهل الوطن الواحد ؛ أعنى السيادة الأهلية ، أو سلطة الأمة .

فقد قضت القوانين ان يكون الانسان مستقلاً مسئولاً عن

عمله ؛ له الحق فى أن يشتغل ويعيش بلا خوف ، ولا اعتداء عليهِ من أى انسان .

وما معنى تلك الحرية التى خولتها لنا الحكومة ؟ أمعناها أن يفعل الانسان كل ما يحب ويختار ، بلا شرط ولا قيد ؟ كلا ! فان الحرية تقضى بألاّ يفعل الانسان ما فيهِ ضرر لغيره ؛ وما عدا ذلك فلكل انسان الحق أن يروح ويغدو حيثما شاء ، ويشتغل ويستريح كيفما شاء . مع حرية القول والفعل ما شاء . لأن القانون لا يحرم الاَّ الأعمال المضرَّة بالهيئة الاجتماعية ؛ وكل ما لا يكون محظوراً ، فهو مباح لا محالة . وليس لأى انسان الحق فى عمل ما لا تبيحهُ القوانين .

ان احترام النوع الانسانى هو القاعدة التى تأسست عليها الهيئة الاجتماعية . وبما أن الانسان حرّ — بشرط ألاّ يخلّ بالنظام العام — فهو حرّ أيضاً فى أفكاره ومعتقداته ؛ وهو ما يعبر عنهُ بحرية الضمير كما انهُ مستقلّ الفكر والرأي أيضاً . فان لكل وطنى أن يتكلم ويكتب ، وينشر ما يشاء بكل حرية ، ما دام ذلك غير خارج عن دائرة القانون .

قال ميلتون شاعر الانكليز : « أعطنى حرية القول والتعليم ، فانى لا أخاف بعد ذلك على الحق من عواصف الآراء ، واختلاف المذاهب . فان الحق يلى المولى عزَّ وجلَّ فى المرتبة ؛ ولذلك لا يحتاج فى نصرتهِ الى الكذب أو الحيل »

ولما كان كل انسان حرّا فالهيئة الاجتماعية يجب ان تكون كذلك ؛ كما يجب ان تكون لها الحرية التامة فى ادارة شؤونها بنفسها. وهذا هو الحق الثانى الذى يشمل الاستقلال السياسى لأهل الوطن .

كل أمة أو حكومة ، انما هى عبارة عن جمعية ؛ أعضاؤها (وهم الوطنيون) لهم مصالح عمومية لا يتمكنون من مباشرتها شخصيًا . لذلك وكلوا أمرها الى مأمورين تعينهم الحكومة ؛ الاّ انهم على كل حال ، يحفظون لأنفسهم الحق فى ابداء رأيهم ، فيما يختص بالطرق التى تتبع فى حكومتهم ، والأشراف على اعمال أولئك المأمورين

فالجمعية السياسية ، هى عبارة عن اجتماع جملة أشخاص ، لهم حقوق وواجبات ، ومصالح مشتركة ويكون الغرض من اتحادهم النظر فى شؤونهم العامة ؛ وبالأخص للنظر فى أمر سعادة الوطن . ومما تقدَّم تفهم ان مبدأ الحرية والمساواة بين جميع الناس ، قد غيَّر معالم النظام السياسى ؛ لأن كل انسان بما له من المصلحة فى الهيئة الاجتماعية — أى علاقة الأمة بالحكومة فى ادارة المصلحة العموميـة — وبما له من الارادة التى لا تقلّ فى الاحترام عن ارادة أى انسان كان ، وجب عليهِ ان يجاهر بها ، ويعمل لتأييدها .

وكما ان للانسان حقوقاً فى الهيئة الاجتماعية ، هى الحقوق المدنية ؛ فان له أيضاً حقوقاً نحو الحكومة ، وهى الحقوق السياسية .

فالأمة هِي منبع السلطة ، وباسمها أو باسم الممثل لها يصدر الأمر

والنهى ، فأصل كل سلطة يجب ان يستمد من الأمة ، وهو ما يعبر عنهُ بالسلطة الاهلية .

« الملخص »

الواجب الذى يحتم على كل انسان الاهتمام بأعمال الحكومة ، له ثلاثة حقوق :

الأول – الحرية المدنية ، والسياسية لكل وطنى ؛ ومن ضمنها حرية الضمير ، والعمل ضمن دائرة القانون .

الثانى — حرية الاشتراك مع الحكومة ، بواسطة المندوبين المنتخبين فى الانتخابات .

الثالث — أحقية الوطنيين فى ادارة شؤون الوطن (باسم السلطة الأهلية) .

« ٣ — الاخاء »

التلميذ – وواجب الانضواء تحت لواء الوطنية ، والموت فى الدفاع عن الوطن ؛ ألا يترتب عليهِ وجود حقوق أخرى ؟

الاستاذ — نعم يا بنىّ ؛ حق من أقدس الحقوق وأشرفها ، ذلك هو « الاخاء » .

اذا ضحى أحدنا حياته فى خدمة الوطن ؛ فما ذلك الاَّ لأنهُ يعتبره كالأم الواجبة مساعدتها والدفاع عنها . واذا قدم نفسه فداء

أبناء وطنه؛ فما ذلك الاَّ لاعتقاده بأنهم اخوته الذين سوف يفدونهُ بأرواحهم يوماً ما، اذا جاء دورهم.

فمن حقوق الاخاء، عنـاية الوطن بتربية ابنائهِ صبية صغاراً، بانشاء المدارس والاصلاحيات؛ وبكفالتهم شيوخاً ضعافاً، بتأسيس الملاجئ والمستشفيات.

ومن حقوق الاخاء، افتخار الوطنى بابناء وطنه، اذا أتى أحدهم أمراً جليلاً أو فعلاً جميلاً، يهتزُّ فرحاً اذا رأى العلم المصرى خفاقاً يحمل فى ثناياه مجد مصر الأثيل، ويحنّ فى غربتـهِ حنين الولهان لذكرى ذلك البلد الأمين.

ومن حقوق الاخاء، حماية الشبان لكل ضعيف: من شيوخ وأطفال، وربات حجال، كما يحمى الفتى أباه الكبير، وأخاه الصغير عند حلول الأخطار، وتغير الأحوال.

واذا مات الوطنى فى ساحة الوغى والقتال دفاعاً عن وطنـهِ، بكاه قومه بكاء الأخ لأخيـهِ، ووضعوا على رمسهِ أكاليل المجد والفخر، وخلدوا ذكراه مدى الأيام بالحمد ومحاسن الآثار.

فالاخاء هو سلوان النفوس، وميثاق القلوب، والفداء الممدوح عند الحاجة اليهِ.

« تمرين »

ما معنى كل واجب يلزم ان يكون مقروناً بحق ؟ — كيف يكون جميع الوطنيين سواء أمام القانون ؟ — اذكر حقوق الملكية — لماذا كان لكل من يدفع الضرائب ، حق الرقابة على ما يصرف من تلك الأموال — ما معنى الحرية ؟ — ما حرية الضمير ؟ ألا يعد القانون عقبة فى سبيل حريتنا الشخصية — ما السلطة الاهلية ، وكيف يكون لكل وطنى نصيب منها ؟ — ما الواجبات ، والحقوق التى ينشأ عنها الاخاء بين جميع الوطنيين ؟

تمّ الجزء الثانى ويليه الثالث وأوله (القانون العام)

فهرست

﴿ الجزء الأوّل ﴾

﴿ الجزء الثاني ﴾



وضعهُ

امين واصف بك

مدير الجيزة

علموا اولادكم فانهم
خلقوا لزمان غير زمانكم
« الامام علي »

قررت نظارة المعارف استعمال هذا الكتاب
في المدارس الابتدائية والثانوية

الجزآن الثالث والرابع

في النظام الاداري والاقتصاد السياسي

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٠هـ — ١٩١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع أنبيائه وأصفيائه

مقدمة

الغرض من هذا الكتاب

معرفة الانسان لنظام وطنه الاجتماعى والسياسى ، أعنى معرفة حقوقه وواجباته نحو مواطنيه ، وحكومة بلاده ، والقوانين التى يخضع لها ، وشكل الهيئة الحاكمة ، المفروض عليها مباشرة احترام هذه القوانين وانفاذها ، وحدود سلطان هذه الهيئة ، فرض عين على كل وطنى ؛ لا يختص به رجال القانون دون غيرهم ، كما يتوهم بعضهم ، بل القانونى ، والمهندس ، والطبيب ، والفلاح ، والصانع ؛ والتاجر كلهم سواء من حيث يجب عليهم معرفة هذا النظام ، كما يجب على كل امرئ ان يعرف تاريخ بلاده وجغرافيتها .

هذا هو الغرض الذى لأجله وُضع مثل هذا الكتاب فى الممالك التى أخذت نصيبها من العلم والحضارة ، وعنى باقرائه فى المدارس . حتى اذا ما خرج التلميذ من دور التعليم ، الى ميدان العمل ؛ خرج بصيراً بأحوال الوسط الذى هيئ ليعيش فيه . والله الموفق لما فيه خير عباده

محمد امين واصف



الباب الأول

أصل القانون العام

القانون العام هو مجموع القوانين الخاصة بنظام البلاد (الاجتماعى والسياسى) ويجب ان تكون هذه القوانين مدوّنة الأصول الأساسية ؛ بعد موافقة الأمة عليها — بحرية تامة — (هذا هو شكل الحكومات المتمدينة الآن) .

ولقد كانت القوانين والاحكام — فيما مضى — مشيئة الملوك والأمراء ؛ وكانت تلك المشيئة غير محدودة الأطراف ، كما كانت طاعة الأمة طاعة لا نهاية لها — على ان المصادفات أتاحت فى بعض الآونة وجود ملوك وأمراء عادلين ؛ أخذوا بيد أممهم فأحلوها ذروة المجد والسعادة غير ان لأمثال هؤلاء العظام فى التاريخ صحفاً قليلة

أقامت الأمم على امتثالها أجيالاً طوالاً ، صامتــة لا تتكلم ،

هامدة لا تتحرك ، تحييها كلمة وتميتها كلمة ؛ حتى همس الدهر فى آذان الأمة الفرنسوية فاستيقظت من رقدتها ونهضت من غفلتها ، وكانت الثورة الكبرى فى سنة ١٧٨٩ ميلادية . فحطمت صروح الملك القديم ، ودكت معالم الحكومة الجائرة ، وأعلنت حقوق الانسان . وهى الحجر الأول فى بناء القانون العام لجميع الممالك اليوم

اعلان حقوق الانسان

« ١ — الحقوق المدنية »

وضع اعضاء الجمعية الدستورية — فى سنة ١٧٨٩ — نظام الحكومة الفرنسوية الجديد على قواعد ثابتة ، وحقائق عقلية ؛ بحيث يكون بعيداً عن جميع المؤثرات والطوارئ . ولذا صدّروا قانون اعلان حقوق الانسان بمبادئ أدبية ، وأصول حكمية ؛ ولم يهتموا بوضع قوانين سياسية . فجاءت موافقة لكل زمان ، متفقة مع كل مصلحة ؛ لأنها بُنيت على العدل والتسامح ، وقصد منها ان يتبع أعضاء الجمعية – فى عملهم هذا — سيراً طبيعياً مأموناً . فاشتغلوا باقرار حقوق الفرد ، قبل البحث فى تحديد نظام الحكومة وشكلها ؛ لأن الوطن عبارة عن مجموع افراد ساكنيه . فاذا تحققت لكل منهم

حريته وكرامته ، كان الوطن حرًّا عزيز الجانب .

ولقد أنصف نواب الأمة ، اذ اعتبروا الجهل بحقوق الانسان ، وتركها فى زوايا النسيان ، أو الاستهانة بها — مع كونها حقوقاً طبيعية مقدسة لا يجوز التنازل عنها — أسّ المصائب العامة ، وعلة اختلال الحكومات ، فقرروا للانسان حقوقاً جعلته مستقلاً مسئولاً عن أعماله ، وهى :

(١) — « يولد الناس أحراراً ، ويموتون أحراراً » — (المادة ١)

(٢) — « حقوق الانسان الطبيعية التى لا تسقط بمضي المدة : هى الحرية ، والطمأنينة ، ودفع المظالم » — (المادة ٢)

فما تكون اذاً حدود هذه الحرية ؟ أيفعل الانسان ما يشاء بلا مبالاة ؟ الجواب : كلاّ ! « الحرية هى عمل المرء ما لا يضرّ بغيره شرعاً ولا أدباً » ؛ أما استعمال الانسان حقوقه الطبيعية فحدّه : ان لا يمسّ حقوق الآخرين فيمنعهم ان يتمتعوا بها مثله على السواء (المادة ٤) . وبعد هذا هو حرٌّ فى غدواتهِ وروحاتهِ ، حرٌّ فى كده وراحتهِ ، حرٌّ فى أقواله وأفعالهِ . انتفت عن مجموعهِ تلك الفوارق الظاهرية التى كانت لذلك العهد تشطر الناس الى شطرين : أحرارٌ ، وعبيد ؛ أو تجعل للملوك والأمراء حقّ التصرُّف الاختياري فى رقاب الرعايا وأموالهم وحريتهم .

لا يجوز القبض على أى انسان ، أو اتهامه وسجنه ، الا فى

الأحوال المعينة فى القانون ، و بالطرق المبينة فيهِ — (المادة ٧)

لا يحرّم القانون الاّ الأفعال الضارة بالهيئة الاجتماعية ؛ وما لم يحرمهُ القانون فهو مباح ولا يكلف انسان بأداء أى عمل لم يأمر بهِ القانون — (المادة ٧)

بذلك أصبح الانسان محترماً فى شخصهِ ؛ وعلى هذا الاحترام قامت دعائم النظام الاجتماعى الجديد : فحرية العقائد نتيجة من نتائج الحرية الشخصية للانسان ، وتولى أبناء الوطن مقاليد الوظائف — بلا تفاوت بينهم الاّ بالعلم والفضل — أثر من آثار المساواة .

والملكية أصبحت من حقوق الانسان المقدسة ؛ لأنها من مستلزمات الحرية والمساواة : فكل ما يمتلكه الانسان لا يجوز نزعه من يده ، ولا حرمانه الانتفاع بهِ بغير وجه شرعى .

« ٢ — الحقوق السياسية »

الحقوق السياسية التي أقرتها الجمعية الدستورية هي : (١) حق الاشتراك فى وضع القوانين . (٢) تشكيل الحكومة . (٣) تكوين القوة المسلحة (الجيش والبوليس) التي تعمل لاحترام هذه القوانين . (٤) فرض الضرائب ، مراقبة وجوه صرفها .

اذا اشترك ثلاثة نفر فى استئجار ضيعة (عزبة) بستمائة جنيه (فدفع كل منهم فيها مائتين) ؛ ثم زرعوها وربحوا منها بعد نفقات

الزراعة ألفاً ومائتين ، قسم ذلك الربح طبعاً الى ثلاثة أقسام متساوية فنال كل منهم أربعمائة جنيه ؛ ومتى ربحت شركتهم استمرّوا فيها . وفى مثل هذه الشركة ، يكون لكل شريك حق مباشرة العمل ، وما يربحه يكون ملكاً للجميع على السواء ؛ وما ينفقهُ أو يتعهد بهِ يلزم الجميع كذلك .

غير ان كل شركة لا يتفق ان يكون أعضاؤها ثلاثة أو أربعة ؛ فقد تكوَّن من ألف ، أو عشرة آلاف شريك اجتمعوا للقيام بمشروع عظيم : كانشاء سكة حديدية ، أو مصنع من المصانع الكبرى؛ على ما يشاهد في تأسيس الشركات التجارية والصناعية المعروفة .

فهذه الشركات ، لا يستطيع القيام بأمرها ؛ جميع الشركاء ؛ بل ينتخب لها — عادةً — وكيل يدير أعمالها باسم كافة الشركاء وعلى حسابهم . ولمراقبة هذه الادارة ، يجتمع الشركاء من وقت لآخر — بهيئة جمعية عمومية — ليقرّروا فيما بينهم نظام الادارة ، وطريقة الاستغلال ؛ لأن نجاح العمل عائد عليهم ، وفشله لاحق بهم . وعند اختلاف الآراء يرجح رأى الأغلبية . واذاً يجب على الأقلية القبول والاذعان ما دامت الشركة قائمة .

كذلك الحكومة جمعية أعضاؤها جميع الوطنيين ؛ لأن لهم مرافق واحدة مشتركة فيما بينهم ، وان كل ما يعود بالخير على الوطن عائد عليهم ، ولهم — كلهم — ان يعملوا على تقدُّم البلاد وسعادتها .

هذه الآراء الحديثة ، كانت فيما مضى مجهولة لدى الأمم قاطبة ؛ حتى جاءت بها الأمة الفرنسية ، و بعثت بأشعتها على العالم ؛ فأضاءت الآفاق على اختلافها ، وزحزحت حجب الظلام شيئاً فشيئاً . ولكن ، من الأمم من أهملها ، ومنهم من قلدهـا ؛ ومنهم من تباطأ حتى تتهيأ الأسباب وتفتح الأبواب . اذ ليست الأمم على استعداد واحد ؛ فقد ينفع نظام مخصوص أمة ، وهو نفسه يضرّ بغيرهـا اذا اتبعته وسلكت سبيله .

تلك هى المبادئ التى بنت عليهـا (الجمعية) الدستورية بيان الحقوق السياسية للانسان .

أما تلك الحقوق فهى : الحرية ، والمساواة ، والملكية . ولا سبيل للاحتفاظ بهذه الحقوق ، الاّ بوضع قوانين تبيّن علاقات الأفراد بعضهم مع بعض ؛ حتى لا يعتدى ذو قوة على أضعف منه .

والقانون هو الضامن لحقوق الأفراد ؛ لأنه يحتم عليهم واجبات يؤدونها لمصلحة جمعيتهم .

ومن ذا الذى يضع هذه القوانين ؟ يضعها الجميع ؛ لأن القانون يعتبر نص ارادة الأمة ، ما دام لكل فرد حق الاشتراك في وضعهِ وتكوينهِ : اما بنفسه ، واما بواسطة نوابه — (المادة ٦)

ليس لأحد ما سلطة خارجة عن القانون ، وكل عمل اختيارى آخر يعاقب فاعله — (المادة ٧)

ويجب على الجميع احترام القانون ، فكل فرد طلب للحضور ، أو قبض عليهِ بمقتضى القانون ، وجبت عليـهِ الطاعة ؛ والاَّ اعتبر مقاوِماً — (المادة ٧)

لحمل الناس على احترام القانون ، ودفع كل اعتداء على الأمة — داخلاً وخارجاً — وجدت القوة العمومية (الجيش والبوليس) ووضعت تحت تصرُّف الحكومة لحماية المصالح العامة لا لمصلحة خاصة بالذين يتولون أمرها — (المادة ١٢)

وفرض على كل وطني دفع الضرائب التي بدونها لا تستطيع الحكومة ان تقوم بالنفقات العمومية ؛ ولكن، بعد أخذ رأيهِ في وضعها مع مراعاة حقه في المراقبة على وجوه صرفها كذلك .

سلطة الأمة

الأمة المكوَّنة من أفراد متمتعين بحقوقهم : المدنية والسياسية ؛ شبيهة — من كل الوجوه — بشركة أناس لاتفين لادارة شؤونهـا ومصالحها . ولهذه الأمة الحق المطلق في وضع نظام حكومتها ؛ وتبقى على الدوام المرجع الأعلى لكل سلطة : وهـذا ما يسمونه بسيادة الأمة أو سلطة الأمة .

ومن هنا يعرف الفرق بين الأمة في هذه الأيام ، والشعب في الزمن السالف . فالأمة هي مجموع أهل الوطن الواحد، المتمتعين بالحرية

والمساواة والملكية ، المتفقين على مباشرة مصالحهم ؛ بالاشتراك فيما بينهم ، وحماية الحكومة المكوّنة بناءً على هذا الاشتراك .

أما الشعب فكان مجموع أفراد يسكنون بلداً واحداً ، أو عدة بلاد تجمعهم قوة قاهرة حتى اذا ذهبت تلك القوة تفرقوا أيدى سبا . بخلاف الأمة ، فانها متحدة المرافق العامة ، مشتركة المصالح الكلية ؛ تجمعها قوة الحاجة للدفاع عن تلك المرافق والمصالح . سواء بقيت القوة القاهرة أو دالت .

ولا بد للأمة من رأس لقيادتها وجباية الضرائب ، وانفاذ القوانين ؛ أعنى لا بد من (حكومة) ، والاّ كانت فوضى : بلا أمر ولا نهى ، واستحال العيش . هذا من البديهيات المتفق عليها عند جميع الأمم : باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها . وكانت هذه السلطة من القدم للملوك والأمراء ؛ وليس لها من أسباب الاّ التقاليد الموروثة ، وميل الانسان الى احترام القديم وتقديسه . أما أسلافهم ، فكانت لهم هذه السلطة بحكم القوة والبطش ، اللذين كانا عُدة الغلبة والاستئثار فى سالف الأزمان .

ليس لهيئة من الهيئات — ادارية كانت أو قضائية أو سياسية — سلطة ، صغيرة أو كبيرة ، ما لم تكن مستمدة من الأمة بنص صريح
(المادة ٣)

أيما فرد أو هيئة ندبته الأمة ، للقيام بعمل ما ، لم يترتب عليه

تنازلها عن جانب من السلطة ؛ بل للأمة حق الاشراف ، ومناقشة الحساب كلما رأت موجباً لذلك (المادة ١٥)

هذه أهم اركان الحكم فى فرنسا وهى آراء حديثة ؛ تجرى عليها جميع ممالك الأرض اليوم — شيئاً فشيئاً — كلما تهيأت لها الأسباب ، واستعدت الأمم لقبول تلك النظامات .

والحقوق السياسية الممنوحة للمصريين ، هى نفس الحقوق الممنوحة للعثمانيين بمقتضى الأمر السلطانى المعروف (بالخط الشريف) الصادر بتاريخ ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ (٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩)

وهذه الحقوق : هى المساواة ، والحرية الشخصية ، واحترام الملكية ، وحرية الأديان والتعليم ، واحترام المساكن

الباب الثانى

الخديوية المصرية

كانت مصر فى القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر فوضى يمحق فيها القوى الضعيف ، وكان الناس كالانعام ، تسوقهم الأمراء المماليك بعصا الجهل على هوى السلطة . وكان الاقليم الواحد ملكاً لفرد واحد منهم ، يتصرَّف فى أهله وأموالهم وأعراضهم ؛ كما شاء وشاءت أغراضه ، .وكان ضرب الرقاب كحلق الشعر ، أو أيسر خطباً .

فمات الزرع ، وجفَّ الضرع ، وهجر الناس مواطنهم وتمَّ بذلك خراب القرى والضياع . الى أن ظهر فى مجرى الحوادث الجلّى التى انتابت البلاد — بطل الأبطال ، ونابغة الرجال — : المرحوم محمد على باشا الكبير ؛ فاستلَّ سيف العزم وأعمله فى الجذوع والأعناق ، حتى أباد تلك الدولة الطاغية : دولة المماليك العاتيـة . ثم أخذ يرتق الفتق ، ويقوّم المعوجّ ، ويحيى الموات ؛ حتى كانت قواعد المدنية الحاضرة ، وهذا النعيم العظيم الذى نحن فيهِ اليوم .

وقد اقتضت الحوادث السياسية — فى تلك الأيام — زحف

الجيوش المصرية على بلاد الشام والأناضول؛ فالتحم الجيشان: المصرى والتركى، فى عدة مواقع كانت الغلبة والنصر فيها للأول على الثانى. فلم يرَ محمد على باشا بدًّا من الزحف على الاستانة أيضاً، والاستيلاء عليها. فوقفت فى وجهِ دول أوروبا، ووقف هو أمامها موقف الأسد فرأوا وجوب استمالته باعطائه ملك مصر — له ولذريته من بعده — ونالت مصر بذلك استقلالها الداخلىّ (معاهدة لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠)

« السلطة الخديوية »

جاء فى فرمان تولية سموّ الخديو المعظم: عباس باشا حلمى الثانى الذى جلس على عرش الأريكة الخديوية المصرية يوم ٨ ينابر سنة ١٨٩٢ ما يأتى:

. . . . . فخديو مصر يكون مأذوناً له بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم (بأهالى مصر) وتأسيسها بصورة عادلة ويكون خديو مصر مأذوناً له — أيضاً — بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية، فى خصوص الجمرك والتجارة، وكافة أمور الخديوية الداخلية . . . . مع أمور ضابطة الأجانب، بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات دولتنا العلية السياسية . . . . ويكون — أيضاً — حائزاً للتصرفات الكاملة فى أمور المالية — (المادة ٢٤)

« سيادة الدولة العثمانية »

تنحصر سيادة الباب العالى على حكومة مصر فى ثلاثة أمور :

(الأول) فيما يختص بالمالية :

(١) يكون تحصيل الضرائب بأجمعها فى مصر باسم الحضرة الشاهانية ؛

(٢) لا تقترض حكومة مصر، الاّ بعد استئذان الباب العالى ؛

(٣) تدفع حكومة مصر سنوياً لحكومة الباب العالى (الويركو) ، وقدره سبعمائة وخمسون ألف ليرة عثمانية ؛

(٤) تضرب الحكومة المصرية نقوداً — غير نقود الدولة — ذات عيار واسعار مخصوصة ؛ ولكن يجب ان يكونِ منقوشاً عليها اسم الحضرة السلطانية .

(الثانى) فيما يختص بالأمور السياسية !

(١) يعيّن خديو مصر بفرمان يصدر من لدن الحضرة الشاهانية ؛

(٢) لا يجوز للحكومة الخديوية التنازل عن أية قطعة من أراضى القطر المصرى وملحقاته كالسودان ، وجزيرة طورسينا — لأية دولة

(٣) ليس للحكومة الخديوية عقد معاهدات سياسية مع الدول الأجنبية . وجميع المعاهدات السياسية التى تعقدها الدولة العلية ، تسرى على الحكومة الخديوية المصرية ؛

(٤) السفارات العثمانية بالبلاد الأجنبية هى القائمة بكافة شؤون مصر السياسية باعتبارها جزءاً من السلطنة العثمانية ؛

(الثالث) فيما يختص بالقوات العسكرية

(١) تحدد قوة الجيش المصرى بثمانية عشر ألف عسكرى فى وقت السلم وفى الحرب تزاد الى الحد المناسب

(٢) لا يكون للحكومة المصرية اساطيل بحرية (مدرعات) ولكن لها ان تنشئ سفناً عادية

(٣) يجب ان تكون الملابس العسكرية والرايات وسائر شارات الملك مماثلة لما هى عليه فى الجيش العثمانى

(٤) يجب ان تكون الرتب والنياشين واحدة فى الحكومتين وللخديو الحق ان يمنح الرتب الى الرتبة الثانيـة للملكيين والى رتبة اميرالاى للعسكريين وما فوق ذلك له الحق فى منحه ولكن يخطر به الباب العالى و يطلب براءاته من الحضرة السلطانية

الباب الثالث

السلطة التشريعية

« ١ — مجالس المديريات »

يؤلف مجلس المديرية من المدير ، رئيساً ، ومن مندوَبين لكل مركز من مراكز المديرية .

ينتخب المندوبون المذكورون بواسطة مندوبى البلاد ، لمدة ست سنوات ، ويؤدون وظائفهم مجاناً .

ويشترط فى عضو مجلس المديرية ان يكون حائزاً للشروط الآتية :

(١) ان يكون بالغاً من العمر ثلاثين سنة كاملة ؛

(٢) ان يكون عارفاً القراءة والكتابة ؛

(٣) ان يكون ممن يدفعون مدة سنتين أموال أطيان قدرها خمسة وعشرون جنيهاً مصرياً سنوياً على الأقل — ان كان حائزاً شهادة عالية ، وخمسون جنيهاً ان كان غير حائز شهادة عالية — ؛

(٤) ان يكون اسمه مكتوباً فى دفتر الانتخاب ، مدة خمس سنوات

(٥) ألاَّ يكون موظفاً فى الحكومة ، ولا ضابطاً بالجيش العامل ؛

(٦) ألاّ يكون عضواً فى مجلس مديرية أخرى .

يحلف العضو الجديد ، فى مجلس المديرية ، أمام المدير — قبل مباشرة العمل — يمين الإخلاص للجناب الخديوى ، والخضوع لقوانين البلاد .

تجتمع مجالس المديريات كلما دعاها المدير . ولثلث الأعضاء حق طلب اجتماع المجلس فى أى وقت ، اذا طلبوا ذلك من المدير كتابة .

لا يجوز لأحد خلاف الأعضاء ، الحضور بجلسات المجلس ، الاَّ بدعوة منهُ ، أو من المدير ، أو أخد النظار عند النظر فى أمر يتعلق باحدى المصالح التابعة لنظارته ؛ ولا يكون له رأى معدود فى مداولات المجلس .

يعتبر المدير عضواً فى جميع لجان المجلس و يرأس كل جلسة يحضرها.

لا تكون جلسات المجلس قانونية ، الاّ اذا حضرها أكثر من نصف الأعضاء .

عند غياب المدير يرأس المجلس وكيل المديرية .

« اختصاص مجلس المديرية »

لمجلس المديرية أن يقرّر رسوماً مؤقتة فى المديرية ، لصرفها فى منافع عمومية ؛ ومنها التعليم .

قرار المجلس فى دفع الرسوم ، وفى تخصيصها ، يكون قطعيًّا ،

ويصدر بهِ الأمر العالى ، ما دام لا يتجاوز الخمسة فى المائة من مجموع الضرائب فى المديرية ؛ والاّ وجب تصديق الحكومة على الزيادة .

للمجلس ان يبدى من نفسهِ للمدير ، ولكل ناظر بواسطته ، وكذلك لمجلس النظار رغباته فيما يتعلق بحاجات المديرية العمومية ؛ وعلى الأخصّ فى شؤون الزراعة ، والرى ، وطرق المواصلات ، والأمن العام ، والصحة العمومية ، والتعليم .

لكل ناظر من نظار الحكومة ان يستشير المجلس فى كل مسألة يرى أخذ رأيه فيها .

تعرض جداول نظارة الأشغال العمومية السنوية المتعلقة بالمديرية فى مسائل انشاء الترع ، والمصارف العمومية ، وتطهيرها ، ومناوبات الرى ، على المجلس لأخذ رأيه فيها .

لا يقام مولد أو سوق فى أية جهة من جهات المديرية الاّ بعد الترخيص بهِ من المديرية بموافقة رأى مجلس المديرية .

يقرّر المجلس بمصادقة الداخلية عدد خفراء البلاد ومرتباتهم .

يعين المجلس فى كل سنة لجنة من المجلس للفصل نهائيًّا فى الشكاوى من توزيع رسوم الخفر بالبلاد التى ليست بها مجالس محلية

لا تنشأ عزبة فى المديرية ، الاّ بعد الترخيص بها ، بموافقة مجلس المديرية ، وله ان يقرّر هدم عزبة اذا صارت ملجأ لذوى السيرة السيئة . أو مأوى للأشقياء .

للمجلس كذلك ان يقرر انشاء أو امتلاك مدارس فى المديرية واتخاذ ما يلزم لادارتها .

وله كل السلطة التى تجب لترقية التعليم بأنواعه ودرجاته كافة فى المديرية .

وله ان يقبل المال أو العقار الذى يوهب فى شؤون التعليم ، وكذلك الاكتتابات التى توجه لعمل من الأعمال الخاصة بهِ .

« ٢ — مجلس شورى القوانين »

يتألف هذا المجلس من ثلاثين عضواً ، أربعة عشر منهم دائمون ، والآخرون مندوبون .

أما الاعضاء الدائمون ، فيعينون من قِبل الحكومة بأمر عالٍ ، ولا يعزلون الاَّ بأمر عالٍ ، و بطلب مجلس النظـار ، بناءً على قرار يصدر من المجلس نفسه ، برأى ثلثى اعضائه على الأقل .

والأعضاء المندوبون ينتخبون من بين أعضاء مجالس المديريات ، بالاقتراع السرى .

لكل مديرية مندوب ، وللعاصمة مندوب ، وللاسكندرية وباقى الثغور المصرية مندوب . ومدة هؤلاء المندوبين ست سنوات

ورئيس مجلس الشورى ينتخب من بين أعضائه الدائمين ، ويعين بأمر عال ؛ ويكون له وكيلان : أحدهما عضو دائم ، والآخر مندوب .

« اختصاصه »

لا يجوز إصدار أى قانون ، أو أمر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ؛ ما لم يقدّم ابتداءً الى مجلس شورى القوانين لأخذ رأيه فيه . وان لم تعوّل الحكومة على رأيه ، فعليها أن تعلنه بالأسباب ولا يترتب على اعلانه بذلك جواز المناقشة فيها .

ويسوغ للمجلس أن يطلب من الحكومة تقديم مشروعات قوانين ، أو أوامر عالية متعلقة بالادارة العمومية . وكذلك ترسل الحكومة فى كل سنة ميزانية الايرادات والمصروفات العمومية ليبدى المجلس رأيه فيهـا ؛ وعلى ناظر المالية ان يبيّن الأسباب كلما دعت الحالة لعدم الموافقة على ما رآه المجلس فى ملاحظاته على الميزانية .

ويجوز للنظار ان يحضروا جلسات مجلس الشورى وحدهم ، أو ان يصحبهم كبار الموظفين بنظاراتهم أو ان ينيبوهم عنهم . وللمجلس — حينئذ — ان يطلب منهم الايضاحات التى يرى لزومهـا ، من موضوع المشروعات ووجه تقريرها .

ويجوز لكل مصرى ان يقدّم عريضة بشرط ان تكون عن حقوق وشؤون عمومية . وليس للمجلس حق المداولة فيما يتعلق (بويركو الاستانة) ، ولا المعاهدات الدولية المعقودة مع الحكومة ؛ لأن سلطته مقصورة على الأمور الداخلية .

يلتئم المجلس فى اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر من كل سنة ؛ ويكون دور انعقاده لغاية شهر مايو من السنة الثانية .

ويجوز انعقاده فى أى وقت ، بأمر عال ، كلما قضت الضرورة بذلك .

ولا بد لصحة الاجتماع من حضور ثلثى الاعضاء على الأقل .

وجلسات مجلس الشورى علنية ؛ يحضرها الجمهور فى أماكن معدة للزائرين بقاعة الجلسات .

ويجوز للحكومة ان تحل المجلس بأمر عال ، اذا دعت الضرورة ؛ وانما يعاد انتخاب الاعضاء فى ظرف ثلاثة أشهر من تاريخ حله

« ٣ — الجمعية العمومية »

هذه الجمعية هى اكبر هيئة نيابية مصرية وأعضاؤها هم :

اولاً — نظار دواوين الحكومة ؛

ثانياً — جميع أعضاء مجلس شورى القوانين ؛

ثالثاً — ستة وأربعون مندوباً عن المديريات والمحافظات ؛

ولا يكون عضواً بالجمعية العمومية، الا من كان حائزاً للشروط الآتية :

(١) ان يكون عمره ثلاثين سنة على الأقل ؛

(٢) ان يكون عارفاً القراءة والكتابة .

(٣) مؤدياً منذ خمس سنوات — بالأقل — مالاً مقرراً على عقار أو أطيان قدره ألفا قرش سنوياً .

(٤) مدرجاً اسمه فى دفتر الانتخاب منذ خمس سنوات على الأقل .

وقد أعفى مندوبو الثغور من شرط المال ، لعدم امكان توفر ذلك فى تلك المدن .

ويحلف الأعضاء المندوبون يمين الصدق للجناب الخديوى ، والطاعة للقوانين قبل مباشرتهم لوظائفهم .

ومدة توظف أعضاء الجمعية العمومية ست سنوات . ورئيس الجمعية العمومية هو رئيس مجلس شورى القوانين نفسه .

« اختصاص الجمعية العمومية »

للجمعية العمومية نوعان من القرارت : قرارات قطعية ، وقرارات استشارية .

فالأول يتعلق بالاعمال التى نصت عليها المادة (٣٤) من القانون النظامى وهى :

« لا يجوز ربط أموال جديدة ، أو رسوم على منقولات أو عقارات ، او عوائد شخصية فى القطر المصرى ، الا بعد مباحثة الجمعية العمومية فى ذلك ، واقرارها عليه » .

والثانى يتعلق بالاعمال التى نصت عليها المادة (٣٥) من القانون النظامى وهى :

« ا — كل سلفة عمومية ، أى كل قرض من القروض التى تعقدها الحكومة ؛ »

« ب — انشاء أو ابطال أية ترعة ، أو خط من خطوط السكة الحديدية يمرّ فى جملة مديريات . »

« ج — فرز عموم أطيان القطر لتقدير درجات أموالها . »

ويجوز للحكومة ان تستشير الجمعيــة فى كل مسألة ، وفى كل مشروع ترى لزوم أخذ رأيها فيهِ . وكذلك يجوز للجمعية ان تبدى آراءها ورغباتها من تلقاء نفسها ، فى جميع المواد المتعلقة بالثروة العمومية ، والامور الادارية او المالية .

وعلى الحكومة ابلاغ الجمعية الاسباب ، كلما دعت الضرورة ، لعدم التعويل على هذه الآراء والرغبات ولكن لا يترتب على هذا الابلاغ جواز المناقشة فى هذه الاسباب .

(الجلسات) تعقد الجمعية كل سنتين مرة على الأقل ، وتكون جلساتها علنية .

للجناب العالى الخديوى حق حل الجمعية العمومية ؛ وفى هذه الحالة تعاد الانتخابات من جديد فى مسافة ستة أشهر .

« الانتخابات العمومية »

حق الانتخاب — بمقتضى قانون سنة ١٨٨٣ — يكون لكلّ مصرى بالغ من العمر عشرين سنة كاملة ومن رعايا الحكومة المحلية ، لم يسبق الحكم عليهِ بالأشغال الشاقة ، أو السجن ، أو النفى ، أو بسبب

سرقة ، أو نصب ، أو خيانة ، أو تزوير ، أو انتهاك حرمة الآداب، أو الرشوة ، ولا يكون من المعزولين من وظائفهم الأميرية بمقتضى أحكام قضائيـة ، أو المحكوم عليهم بالافلاس ، أو المحجور عليهم ؛ ولا من رجال العسكرية الذين تحت السلاح .

من هو المصرى ؟ — المصريون هم :

أولاً — المتوطنون فى القطر المصرى قبل أول يناير سنة ١٨٤٨ وهو تاريخ منح مصر الاستقلال الداخلى ؛

ثانياً — رعايا الدولة العلية ، المولودون فى القطر المصرى من أبوين مقيمين فيهِ ، متى احتفظ الرعايا المذكورون بمحل اقامتهم فيهِ ،

ثالثاً — رعايا الدولة العلية ، المولودون والمقيمون فى القطر المصرى الذين يقبلون المعاملة بقانون القرعة ؛

رابعاً — الأطفال المولودون فى القطر المصرى من أبوين مجهولين .

ويجوز كذلك للرعايا العثمانيين المتوطنين بالقطر المصرى اكثر من خمس عشرة سنة ان يصيروا مصريين ، وينالوا الحقوق الممنوحة فى قانون الانتخاب ، متى أعلنوا رغبتهم فى ذلك للمحافظة ، أو المديرية التى يقيمون بدائرتها .

وليس لانسان ان يستعمل حقه فى الانتخاب ، الاّ فى المحافظة ، أو المديرية التى بدائرتها موطنه السياسى .

والموطن السياسى هو محل الاقامة المعد لمباشرة الشؤون المدنية

ويجوز لكل مصرى ان يغيّر موطنه السياسى ، من جهة الى

أخرى ، باعلان رغبته فى ذلك للمحافظة أو المديرية التى بدائرتها كل من الجهتين

(دفتر الانتخاب) يوجد فى كل بلد دفتر مقيد بهِ جميع الحائزين لشروط الانتخاب ، مرتب على حروف المعجم . وتوجد صورة منه بديوان المديرية .

ويعدل ذلك الدفتر كل عام ، لحذف اسماء المتوفين ، والذين يفقدون الشروط الاساسية . ويضاف اليه اسماء من تتوفر فيهم الشروط المذكورة . وكذلك يوجد دفتر بكل قسم من أقسام القاهرة والاسكندرية ، وبكل بندر من باقى الجهات . ويعلق هـذا الدفتر سنوياً من أول يناير الى (٣١) منهُ على باب العمدة أو المديرية . وبذلك يحق لكل مصرى الاطلاع عليهِ ، والطعن فى صحة ما جاء فيهِ ؛ وذلك من أول فبراير الى (١٥) منه .

ويقدم الطعن للمدير أو المحافظ ؛ وهو يحيله الى اللجنة المختصة بالنظر فى ذلك . وتستأنف قرارات اللجنة أمام محكمة الاستئناف .

(مندوب الانتخاب) تنتخب كل بلدة واحداً من أهلها ، الحائزين للشروط ، لمدة ست سنوات يسمى مندوب الانتخاب ، ينوب عنها فى انتخاب أعضاء مجلس المديرية ، والجمعية العمومية ويعطى تذكرة اعتماد من ناظر الداخلية .

الباب الرابع

السلطة التنفيذية

رأس هذه السلطة سموّ الجناب العالى الخديوى ؛ كما هو رأس كل سلطة أخرى فى البلاد : وفاقاً للفرمانات الشاهانية ، التى منحتهُ حق الولاية على مصر وأمورها الداخلية . غير أن المغفور له اسماعيل باشا خديو مصر الأسبق ، رأى رغبة فى تقدم البلاد ، أن يتنازل عن شىء من هذه السلطة لمجلس يشكل من نظار دواوين الحكومة . فأصدر بذلك ارادة سنية فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ (١٠ رمضان سنة ١٢٩٥)

« مجلس النظار »

دواوين ونظارات الحكومة سبع وهى :

نظارة الداخلية ، (ويتبعها الصحة والسجون) ؛

نظارة المالية ، (ويتبعها الجمارك — ومصلحة البريد — وخفر السواحل — ومصلحة المساحة) ؛

نظارة الخارجية ،

نظارة الحربية والبحرية ؛

نظارة المعارف ؛

نظارة الحقانية ، (ويتبعها المحاكم الاهلية . والشرعية. والمختلطة)؛

نظارة الاشغال ، (ويتبعها مصلحة الزراعـة والآثار والسكة الحديدية والتلغرافات) ؛

وكل نظارة من هذه النظارات ، يرأسها وزير يسمى «الناظر» ولهم رئيس يدعى « رئيس النظار» ؛ ينتخبه سموّ الخديو ، وهو ينتخب زملاءه بالاتحاد مع الحضرة الفخيمة الخديوية . ويشكل مجلس النظار باجتماعهم ، تحت رئاسة سموّ الجنـاب العالى الخديو ، أو رئيس النظار – حسب أهميـة الأمور المنظورة – للمفاوضة والمداولة فى شؤون البلاد ، وتحضير القوانين ، والأوامر العالية . وكل ناظر من النظار ، مكلف بانفاذ ما يخص نظارته من هذه القوانين والأوامر .

قرارات مجلس النظار ، ان كانت موقعاً عليها من سموّ الخديو ، سميت أوامر عالية (دكريتات) والاّ فهى قرارات وزارية .

والنظار مسئولون امام الحضرة الخديوية عن جميع الأعمال التى من شأنها التأثير فى أحوال القطر داخلاً وخارجاً .

« المديرون والمحافظون »

ينقسم القطر المصرى الى أربع عشرة مديرية ، وخمس محافظات ؛

يرأس كلاً منها موظف كبير يسمى مديراً أو محافظاً .

فالمدير هو النائب الوحيد عن كل ناظر من نظار الحكومة فى مديريته . ولذلك يتعين عليهِ انفاذ قوانين النظارات على اختلافها ، فى دائرة اختصاصه ؛ وهو المسئول أمام الحكومة عن حفظ الأمن والنظام بأنحاء الاقليم الذى يحكمه . وعليهِ مراقبة سير الاحوال بوجه عام : وخصوصاً سير التحقيقات الجنائية المؤدية الى نجاح الدعوى العمومية ، وعقاب المجرمين .

« مأمورو المراكز »

تنقسم كل مديرية الى عدة أقسام ، يطلق على كل قسم منها اسم (مركز) ؛ ويرأسه موظف نائب عن المدير يعرف باسم (مأمور المركز) .

ومأمور المركز هو المنفذ لاوامر الحكومة فى مركزه . وعليه منع وقوع الحوادث الجنائية بالطرق الصائبة ، بواسطة رجال الحفظ والداوريات، ومراقبة الاشقياء ، ونزع السلاح من ايديهم واذا وقعت جناية ، عليهِ بذل الجهد فى كشف الحقيقة ، والاستدلال لمعرفة الفاعل واثبات الجريمة ؛ حتى تتمكن النيابة من اقامة الدعوى العمومية لمحاكمته .

يقوم المأمور باداء وظيفة النيابة العمومية — لدى محاكم المراكز — فى التحقيق واقامة الدعوى وانفاذ الاحكام واستئنافها . ويساعد المأمور

فى اداء واجباته ضباط البوليس ومعاونو الادارة المعينون فى مركزه .

« العمـد »

كل مركز ينقسم الى عدة بلاد ، لكل بلدة منها رئيس يسمى (العمدة) : وهو نائب الحكومة بها ، ومسئول – قبل سواه – عن استتباب الأمن العام ، ونفوذ القوانين واللوائح المرعية الاجراء ، وجميع الاوامر التى ترد اليـه من المأمور الذى هو رئيسه الاول ؛ ويعاونه فى اداء واجباته عدد من المشايخ حسب أهمية البلدة .

يعين العمد والمشايخ فى لجنة تعرف (بلجنة الشياخات) وتعقد هذه اللجنة مرة فى كل شهرين – على الأقل – للنظر فى التعيينات والمحاكمات .

ويشترط فى العمـدة ان يكون بالغاً من العمر خمساً وعشرين سنة ، وان يكون مالكاً لعشرة أفدنة – على الاقل – والا يكون محكوماً عليه – من المحاكم النظامية – بسبب جناية او جنحة حكماً قضائياً يمس حسن سمعته واستقامته .

وهذه الشروط ، يجب ان تتوفر فيمن يراد تعيينه (شيخاً) ؛ وانما يكفى ان يكون مالكاً خمسة أفدنة .

وتؤلف لجنة الشياخات من المدير رئيساً ومندوب من الداخلية وآخر من النيابة العمومية ، واربعة من العمد أو الاعيان . ولا تكون

قراراتها نافذة ، الا بعد اعتمادها من الداخلية .

« امتيازات العمد والمشايخ »

يعفى كل عمدة من دفع مال خمسة أفدنة من الاطيان التى يمتلكها فى نفس الجهة التى هو معين عليها

وللعمد والمشايخ امتيازات أخرى وهى :

أولاً — اعفاؤهم هم وأولادهم من الخدمة العسكرية ؟

ثانياً — اعتبارهم من موظفى الحكومة فى اقامة الدعوى العمومية عليهم بسبب ما يقع منهم اثناء تأدية وظائفهم .

أما العقوبات التأديبية التى يجوز للمدير تأديب العمد والمشايخ بها فهى : الانذار ، فالتوبيخ ، فالغرامة لغاية مائة قرش مع التوقيف عن الوظيفة مدة التحقيق عن أعماله .

وأما الجزاءات التى تحكم بها لجنة الشياخات فهى : الغرامة الى خمسمائة قرش ، والحبس الى ثلاثة أشهر ، والرفت ؛ وتبلغ الاحكام للداخلية ، ولها ان تعتمدها أو تبدلها بأخف منها .

ولعمد قبائل العربان ومشايخ الفرق ، نظام شبيه بنظام الشياخات تماماً من جهة تعيينهم ، وتأديبهم عند تقصيرهم فى واجباتهم .

الباب الخامس

السلطة القضائية

السلطة القضائية هى الهيئة القائمة بفصل الخصومات بين الافراد ، والقصاص من المجرمين ، وتنقسم الى محاكم أهلية ، ومحاكم مختلطة ، ومحاكم شرعية ، ومحاكم قنصلية ، ومحاكم ادارية .

المحاكم الأهلية

هذه المحاكم لا تنظر الاّ فى القضايا التى بين الوطنيين : من مدنية ، وتجارية ، وجنائية . وهى درجتان . ابتدائية واستئنافية .

محاكم الدرجة الأولى تشمل المحاكم الجزئية ، ومحاكم المراكز ، والمحاكم الابتدائية (الكلية)

(المحكمة الجزئية) للقاضى الجزئى حق الفصل فى المواد المدنية والتجارية فيما لا يتجاوز عشرة آلاف قرش

فاذا كان المدعى بهِ ألف قرش ، والدعوى عينية عقارية ؛ أو كان المدعى بهِ ألفى قرش ، وكانت الدعوى شخصية : كان حكمه نهائياً ؛ والاّ كان قابلاً للاستئناف .

وللقاضى الجزئى اختصاص استثنائى يجوز له الحكم ابتدائياً ، الى ما لا نهاية له : طبقاً للقيود المبينة فى المادة (٢٦) من قانون المرافعات . ويحكم ايضاً انتهائياً فى جميع المنازعات التى يتفق الخصوم على رفعها اليه بالغة ما بلغت وله حق النظر فى المسائل الوقتية ، أو الأمور المستعجلة التى يخشى عليها من فوات الوقت : كتعيين خبير لاثبات آثار حريق ، أو غرق ، قبل زوال معالمه .

(فى المواد الجنائية) يحكم القاضى الجزئى فى المخالفات والجنح ؛ الا ما أحيل منها على محكمة المركز وله الموافقة على الحبس الاحتياطى أى حبس المتهمين فى الجنايات والجنح ؛ بناء على طلب النيابة العمومية .

(محاكم المراكز) تنظر هذه المحاكم فى قضايا المخالفات ، و بعض الجنح ، وتحكم بالحبس الى ثلاثة أشهر ، وبالغرامة الى عشرة جنيهات .

ولبعض هذه المحاكم اختصاص فى المواد المدنية التى لا تتجاوز قيمتها عشرين جنيهاً مصرياً ويقوم بأعمال المحكمة الجزئية أو المركزية قاض واحد ، ينديه ناظر الحقانية .

(المحكمة الابتدائية) جلسات هذه المحكمة تؤلف عادة من ثلاثة قضاة لكل دائرة ؛ وهي المحكمة الكلية التى تنظر فى القضايا المدنية والتجارية التى ليست من عمل المحاكم الجزئية والمركزية . وتفصل — بصفة استئنافية — فى الاحكام الصادرة من هذه المحاكم فى الأحوال التى يجوز فيها الاستئناف قانوناً

وتنظر هذه المحاكم – كذلك – فى الطعن الذى يقدّم لها فى انتخاب اعضاء مجالس المديريات

وعدد هذه المحاكم سبعة : مصر ، والاسكندرية ، وطنطا ، والزقازيق ، و بنى سويف ، واسيوط ، وقنا .

أما محاكم الدرجة الثانية ، فهى : محكمة الاستئناف العليا بالقاهرة ؛ وهى تنظر – بصفة استئنافية – فى القضايا التى تحكم فيها المحاكم الابتدائية : المدنية والتجارية .

وتنظر كذلك فى جميع قضايا الطعن فى انتخاب اعضاء مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ؛ ولها حق النظر – بناء على طلب ذوى الشأن – في قرارات اللجنة المكلفة بالفصل فى الطعن فى دفاتر الانتخاب .

ومن قضاة هذه المحكمة يندب : أولاً قضاة محاكم الجنايات التى من اختصاصها الحكم فى الجنايات التى تحال عليها من قاضى الاحالة ، بناء على طلب النيابة العمومية . ثانياً — قضاة محكمة النقض والابرام التى الغرض منها المحافظة على نصوص القوانين ، وتأويلها تأويلاً صحيحاً ، دون البحث فى الموضوع . فهى تنظر فى الحكم المطعون فيه أمامها من حيث استيفاؤه الشروط القانونية المبينة فى قانونى تحقيق الجنايات والعقوبات ككون الواقعة معاقباً عليها ، وان الوصف الذى وصفها بهِ الحكم الأول مطابق للواقع ، وان جميع الاجراءات القانونية المهمة قد روعيت تماماً .

وتؤلف جلسات محكمة الاستئناف – عادة – من ثلاثة قضاة لكل دائرة ؛ ما عدا محكمة النقض والابرام فانهـا تؤلف من خمسة قضاة . ويسمى قضاة الاستئناف (بالمستشارين)

وتصدر الاحكام باسم الجناب العالى الخديوى

« النيابة العمومية »

تُقام الدعوى العمومية على مرتكبى الجرائم أمام المحاكم ، والذى يقيمها هيئة قضائية تُعرف باسم (النيابة العمومية) ؛ والذى يبلغ هذه الحوادث الى النيابة هم رجال الضبط .

الحكمة فى ذلك ، ان الجرائم من شأنها الاخلال بالأمن ، واضطراب النظام ، فهى تعنى المجتمع الانسانى اكثر مما تعنى واحداً أيًّا كان . ولو أهملت محاكمة المجرم ، أو ترك المجنى عليـهِ وشأنه فى القصاص ممن يعتدى عليهِ ، ساءت الأحوال العمومية ، وقلّت الطمأنينة ؛ بسبب ما يداخل اكثر الطبائع البشرية من الجبن والخوف والتساهل ، ومن أجل ذلك أنشئت النيابة العمومية لمقاضاة المجرمين ، وانفاذ العقوبات التى يعاقبون بها أولاً فأولاً حتى يستتب الأمن ، ويحيا العمران .

والرئيس العام للنيابة العمومية هو النائب العمومى ، ويساعده فى اقامة الدعاوى العموميـة -- أمام المحاكم — عدد من وكلاء النيابة بحسب ما تقتضيه الأعمال فى دائرة وظائفهم .

المحاكم المختلطة

الامتيازات الأجنبية — يخضع الأهالى ، والمستوطنون لقوانين وشرائع الحكومة المحليـة (هذا أصل من الأصول الأساسية لنظام الحكومات) وتصدر الاحكام باسم حاكم البلاد الشرعى . الاّ ان سلاطين آل عثمان عقدوا مع دول أوربا معاهدات سياسية وتجارية ، تعرف (بالعهودنامات) سمحت فيها السلاطين العظام للاجانب بامتيازات جمة ، خوّلت لهم حق فصل خصوماتهم ، ومحاكمة مرتكبى الجرائم منهم، على أيدى قضاة منهم ، يحكمون بشرائع بلادهم وقوانينها. وأقدم هذه المعاهدات معاهدة سنة ١٥٣٥ أبرمت بين السلطان سليمان الأول وحليفه فرنسوا الأول ملك فرنساوهذه الامتيازات قسمان : مالية وسياسية

وأهم الامتيازات المالية ، حق امتلاك الأجانب للأراضى والعقارات، بالممالك العثمانية ، عدا البلاد الحجازية (فرمان ١٨ يونيه سنة ١٨٦٧ ١٢ صفر سنة ١٢٨٤ . وفرمان سنة ١٨٦٩ م . سنـة ١٢٨٥ هـ) . وقد خوّل الأجانب بمقتضى هذين الفرمانين حق التصرف التام فى الملكية كالرعايا العثمانيين . وكان الأجانب فى ذلك العهد يمتنع عليهم امتلاك أى عقار ببلاد الدولة .

الامتيازات القضائية — جميع الأجانب خارجون عن القوانين المصرية الأهلية ، ويحاكمون من حيث المواد الجنائيـة (الجنايات

والجنح) أمام المحاكم القنصلية . أما من حيث المواد المدنية والتجارية والمخاصمات ، فيحاكمون أمام المحاكم المختلطة .

المحاكم المختلطة — تلك الامتيازات أحدثت فوضى فى القضاء المصرى، لاختلاف الاحكام باختلاف شرائع الأمم المتخاصمة. فلما تولى اسماعيل باشا الخديو الأسبق سنة ١٨٦٣، وجه عنايته لهذه الحالة واشتغل بعزم وجد ، بمساعدة وزيره الأول نوبار باشا ، حتى تمكنا من انشاء المحاكم المختلطة باتفاق الدول : المانيا والنمسا ، والبلچيك ، والدانيمارك ، واسبانيا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، وانجلترا ، واليونان ، وايطاليا ، وهولاندا ، والبورتغال ، وروسيا ، والسويد ، والنرويج .

اختصاص هذه المحاكم — تفصل هذه المحاكم فى الدعاوى المدنية والتجارية التى تحدث بين الأهالى والأجانب ، أو تحدث بين الاجانب متى كانوا مختلفى الجنسية . أما الدعاوى المختصة بالعقارات التى تقام بين أجنبيين ، فتدخل فى اختصاصها ولو كان المتخاصمان من جنس واحد .

والمحاكم المختلطة — كالمحاكم الأهلية — درجتان : ابتدائية واستئنافية . فالابتدائية بمصر ، والمنصورة ، والاسكندرية ؛ وفى كل من هاتهِ المدن محكمة جزئية يقوم بالعمل فيها أحد القضاة الأجانب . ويوجد لدى كل محكمة قاضٍ يُعرف باسم (قاضى الأمور المستعجلة) للنظر فى المسائل التى يخشى عليها من فوات الوقت .

وتشكل المحاكم المختلطة من قضاة : وطنيين وأجانب . وتصدر

الاحكام باسم الجناب الخديوى . وتؤلف الدائرة فى المحكمة الابتدائية من خمسة قضاة : ثلاثة أجانب ووطنيين . وفى الاستئناف من ثمانية : خمسة أجانب ، وثلاثة وطنيين .

ويجب ان يكون رئيس المحكمة — سواء كانت ابتدائية أو استئنافية — وطنياً . أما الوكيل فمن القضاة الأجانب ؛ وانما الأول لا عمل له الاّ رئاسة الجمعيات العمومية (فهو رئيس شرف) وأما الثانى فهو الرئيس العامل فى كل ما يختص بالرئيس ، فى المحاكم الأهلية .

ومن اختصاص محكمة الاستئناف المختلطة وهى منعقدة بهيئة جمعية عمومية :

أولاً — الموافقة على لوائح المخالفات التى ترى الحكومة المصرية سنها وسريانها على الأجانب كالوطنيين .

ثانياً — تعديل القوانين المختلطة أو الاضافة عليها ، ما عدا لائحة ترتيب هذه المحاكم فانهُ لا يجوز تعديلها الاّ بمصادقة الدول التى وافقت على انشاء المحاكم المختلطة .

ثالثاً — للجمعية العمومية ان تبلغ ناظر الحقانية الاقتراحات المتعلقة بالتعديلات التى ترى ادخالها فى القوانين المختلطة وهو يبلغها للحكومة لتنظر فيها حتى اذا وافقت عليها عرضتها على الجمعية العمومية بصفة مشروع

ومركز محكمة الاستئناف المختلطة الاسكندرية ؛ واللغات الرسمية بهذه المحكمة هى : —

العربية ، والفرنسية ، والايطالية ، والانكليزية . وبها نائب

عمومى عن — الحضرة الخديوية — يعاونه فى العمل أمام كل محكمة من هذه المحاكم ، عدد من الوكلاء والمساعدين . وتختص المحاكم المختلطة بالحكم فى المخالفات التى تقع من الاجانب ؛ ولا تنظر فى الجنايات والجنح الاّ فى أحوال مخصوصة .

المحاكم القنصلية

بمقتضى الامتيازات كانت المحاكم القنصلية تحكم فى قضايا رعاياها ؛ ولكن انشاء المحاكم المختلطة قصر اختصاص المحاكم القنصلية على الآتى :

أولاً — القضايا المدنية والتجارية بين خصمين من جنس الدولة التابعة لها القنصلية ، الاّ الدعاوى العقارية (كما قدمنا) .

ثانياً — جرائم الجنايات والجنح غير الداخلة فى اختصاص المحاكم المختلطة التى تقع من رعايا الدولة التابعة لها القنصلية .

ثالثاً — مسائل الاحوال الشخصية .

وتحكم كل محكمة قنصلية بقانون الدولة التى هى تابعة لها .

« محاكم الأحوال الشخصية »

الاحوال الشخصية هى كل ما يتعلق بشخص الانسان كالزواج والطلاق ، والنسب ، والمواريث ، وثبوت الرشد ، والولاية ، وأصل الوقف . وهى من اختصاص المحاكم الشرعية للمسلمين ، والبطريكخانات للمسيحيين . والحاخاميات لليهود .

وتحكم هذه المحاكم بمقتضى شريعة الدين التابع له ذوو الشأن .

الباب السادس

المجالس الحسبية

اذا توفى أحد الأهالى الخاضعين لأحكام المحاكم الشرعيـة فيما يختص بأحوالهم الشخصية عن حمل مستكن أو ورثة قصر أو عادمى الأهلية أو غائبين غيبة شرعية وليس لهم وصى أو قيم أو وكيل فيكون تنصيب هؤلاء بحسب الأحكام الآتية :

يشكل فى كل مركز مجلس حسبى بالكيفية الآتية

أولاً — مأمور المركز أو من ينوب عنهُ بصفة رئيس

ثانياً — أحد علماء المركز تعينهُ نظارة الحقانية

ثالثاً — أحد الأعيان يعينهُ المدير مع اقرار نظارة الداخلية

تشكل المجالس الحسبية فى المديريات والمحافظات بالكيفية الآتية

أولاً — المدير أو المحافظ أو وكيل المديرية أو المحافظة بصفة رئيس

ثانياً — أحد علماء المديرية أو المحافظة يعينهُ ناظر الحقانية

ثالثاً — أحد الأعيان يعينهُ ناظر الداخليـة ويكون انتخابه بقدر الامكان من ساكنى البلدة

رابعاً – أحد أعضاء الأسرة (العائلة) ذات الشأن اذا وجد أحد منها فى الجهة التى بها مركز المجلس والاّ فيستعاض بواحد من الأعيان تعينهُ نظارة الداخلية

تنظر المجالس الحسبية فى تنصيب الأوصياء أو تثبيتهم أو عزلهم وفى استمرار الوصاية الى ما بعد السنة الثامنة عشرة اذا دعت الضرورة لذلك طبقاً للمادة الثامنة من أمرنا هـــذا وتنظر ايضاً فى الحجر على عادمى الأهلية وتنصيب أو عزل القوام وفى رفع الحجر وفى تعيين أو عزل وكلاء الغائبين وفى مراقبة أعمال الأوصياء أو القوام أو الوكلاء وكذلك تنظر فى الحسابات التى تقدم لها وتنظر أيضاً فى الاحتياطات اللازمة التى يقتضى سرعة اتخاذها لصيانة حقوق القصَّر عادمى الأهلية أو الغائبين .

تكون هذه الاختصاصات للمجالس الحسبية فى المراكز فيما يتعلق بتركات المتوفين الذين كانوا متوطنين فى دائرة المركز ، وللمجـــالس الحسبية فى المديريات أو المحافظات فيما يتعلق بتركات المتوفين الذين كانوا متوطنين ببندر المديرية أو المحافظة

وتكون هذه المجالس تابعة لنظارة الحقانية وهى تراقب سيرها

وفى مواد الحجر يكون المجلس المختص هو الموجود بدائرة محل توطن الشخص المقتضى الحجر عليهِ أو المحجور عليهِ . ويجوز رفع الأمر للمجلس الحسبى بناء على طلب أحد أعضاء العائلة أو طلب النيابة العمومية

تنتهى الوصاية متى بلغ القاصر الثامنة عشرة من عمره الاّ اذا قرّر المجلس الحسبى استمرارها .

يجب على المجالس الحسبية ان تعين الأوصياء والقوام والوكلاء أو تثبتهم فى مدة لا تتجاوز ثمانية أيام من تاريخ الاخبار بالوفاة .

ليس للأوصياء ولا للقوام ولا للوكلاء أن يبيعوا أو يشتروا أو يرهنوا عقار أو أطيان القصَّر ومن فِي حكمهم أو ان يسددوا ديناً الاّ بعد الاذن بذلك من المجالس المذكورة .

تنصيب الأوصياء بالتطبيق للاحكام السابقة يكون أمام القاضى الشرعى أو نائبه .

لا يجوز لأى سبب من الأسباب ولا لأية حجة كانت ، اقامة أية دعوى على الحكومة بسبب التركات التى وضعت يدها عليها بأية كيفية كانت ولم يطالب أحد بها مدة ثلاث وثلاثين سنة كاملة من تاريخ الوفاة .

تستأنف قرارات المجالس الحسبية أمام المجلس الحسبى العالى المشكل بالأمر العالى الصادر بتاريخ ٥ مارس سنة ١٩١١ واعضاؤه :

أولاً — ثلاثة مستشارين وطنيين من مستشارى الاستئناف الأهلى .

ثانياً — عضو من المحكمة العليا الشرعية .

ثالثاً — أحد الموظفين الموجودين فى الخدمة او المتقاعدين .

وتعيين الثلاثة المستشارين والرئيس الذى ينتخب منهم يكون بمعرفة ناظر الحقانية بناء على ما يعرضهُ رئيس محكمة الاستئناف الأهلية .

وفى كل من الحالتين يكون التعيين لمدة سنة ، ويجوز تجديد ينتخب التعيين .

واذا غاب أحد الاعضاء أو حصل له مانع ، ناب عنهُ عضو بالطريقة عينها ممن توفرت فيهم شروط العضو الغائب .

لناظر الحقانية ان يرفع الى المجلس الحسبى العالى أى قرار صادر من مجلس حسبى يكون متعلقاً بادارة الاوصياء أو القوام أو الوكلاء أو تنصيبهم أو عزلهم فى ظرف ثلاثة أشهر من تاريخ صدوره وذلك إما بناءً على بلاغ من النيابة العمومية أو من أى شخص ذى شأن أو من تلقاء نفسه .

وللنيابة العمومية ولكل ذى شأن ان يستأنف الى المجلس الحسبى العالى أى قرار صادر من المجالس الحسبية فى طلبات توقيع الحجر أو رفعه أو فى رفع الوصاية أو استمرارها .

ويرفع الاستئناف بعريضة تقدم الى ناظر الحقانية فى ميعاد شهر من تاريخ صدور القرار المستأنف .

للمجلس الحسبى العالى متى رفع اليهِ الامر بالطرق القانونية : —

أولاً — أن يلغى أو يعدل أى قرار صادر من المجلس الحسبى أو يمنع انفاذه مؤقتاً عند الاقتضاء

ثانياً — أن يبين فى القضية التى تكون مرفوعة أمامه طريقة السير اللازم اتباعها بمعرفة المجلس الحسبى

ثالثاً — أن يقرّر اتخاذ الاجراءات المستعجلة التى كان للمجلس الحسبى اتخاذها للمحافظة على حقوق القصَّر أو عادمى الاهلية أو الغائبين

رابعاً — ان يقرّر توقيع الحجر أو رفعه

خامساً — ان يقرّر استمرار الوصاية الى ما بعد سنّ الثماني عشرة سنة أو رفعها

سادساً — أن يعين الاوصياء والقوام والوكلاء أو يعزلهم أو يستبدلهم ويجوز له أيضاً بناءً على طلب ناظر الحقانية ان يحيل الى مجلس حسبى المديرية أى قضية من اختصاص مجلس حسبى المركز اذا تبين أن للتركة أو للأموال من الأهمية ما يدعو الى هذه الاحالة .

قرارات المجالس الحسبية واجبة الانفاذ ولو استؤنفت الى المجلس الحسبى العالى ولناظر الحقانية عند رفعه قراراً صادراً من مجلس حسبى الى المجلس العالى أن يؤجل انفاذه حتى يصدر قرار المجلس فيه متى رأى ان المصلحة تقضى بذلك

« المحاكم الادارية أو المحاكم المخصوصة »

الأصل ان كل نزاع يجب ان يكون الفصل فيهِ من اختصاص المحاكم القضائية ولذلك يسمونهـا (بالقضاء الطبيعى) غير ان بعض المخالفـات تستدعى الفصل فيها بمعرفة الجهات الادارية : إما لأن الفصل فيها يستلزم معلومات خاصة وإما لان سرعة الفصل فيها توجبها المصلحة العامة . وهذه المحاكم أو اللجان الادارية عديدة : منها

لجنة الجمارك — وتنظر فى مسائل تهريب البضائع وتتشكل من مدير الجمارك وثلاثة أو أربعة من كبار موظفيها

لجنة مخالفات الترع والجسور — وتنظر فى جميع المخالفات التى تقع على الأعمال الصناعية لمصلحة الرى والترع والجسور ومخالفات رى الشراقى لأن هذه الأعمال انشئت لمصلحة الزراعة وتدبير مياه النيل لكى يتيسر لجميع المزارعين الانتفاع بهـا فى الاوقات المناسبة للرى والصرف

وتتشكل من المدير أو وكيله بصفة رئيس ومن باشمهندس المديرية وثلاثة من الأعيان بصفة أعضاء

ولجنـة مخالفات النيل — وهى تنظر فى المخالفات التى تقع من الافراد المكلفين بخدمة خفر النيل مدة الفيضان . وتتشكل فى

المديريات : من المدير أو وكيله بصفة رئيس وباشمهندس المديرية واثنين من العمد . وفى المراكز : من مأمور المركز بصفة رئيس واثنين من العمد .

لجنة الشياخات الخاصة بتأديب العمد والمشايخ وتعيينهم ورفتهم وتتركب من المدير أو وكيله بصفة رئيس ومندوب من نظارة الداخلية وأحد وكلاء النائب العمومى وأربعة من الاعيان .

الى غير ذلك من اللجان مثل لجنة مخالفات ابادة الجراد ولجنة السكك الزراعية الخ الخ .

الباب السابع

معنى المملكة فى القانون الدولى

المملكة جمعية مستقلة بشوءونها توءلف من أشخاص قلّ عددهم أو كثر يسكنون أرضاً محددة ولهم حكومة تتولى ادارة شوءونهم العامة .

يفهم من هذا التعريف ان حكومة الجبل الأسود مملكة كانكلترا وفرنسا وان محاولة ضمّ جملة ممالك بعضها الى بعض لتكون مملكة واحدة كما فعل الاسكندر وشارلمان ونابوليون أمر خيالى وبعيد عن الحقيقة بمراحل بل ينافى طبيعة الوجود ، والتاريخ أصدق شاهد على ان هذه الممالك وقعت فى الانحلال ، بمجرد زوال القوة القاهرة .

غرض كل حكومة : صيانة المصالح الحسية والمعنوية للأمة ، وحماية حريتها ، وبالجملة جميع الحقوق المرتبطة بكيانها المؤدية الى سعادتها .

كل مملكة توفرت فيها الشروط السابقة تسمى (شخصاً سياسيًّا) وهو فى القانون الدولى كالشخص المعنوى فى القانون المدنى

السيادة السياسية للمملكة – كل مملكة ذات سيادة داخلية أى سلطة أهلية تخولها حق اصدار القوانين وادارة حركة الجمعية السياسية

(الأمـة وحكومتها) بارادة تامة ، لها الحق التام فى السيادة الخارجية أو السياسية بمعنى انها تكون جمعية سياسية ذات استقلال محترم بالنسبة للممالك الأخرى

هذه السيادة الدولية أو السياسية لا تتغير بتغير شكل الحكومة حتى أن الانقلاب السياسى أو الثورات التى قد تؤدى الى تعديل فى نظام الحكومة الداخلى لا تؤثر فى شخصيتها القانونيـة . فالحقوق والتعهدات التى كانت للحكومة السابقة تبقى كذلك للحكومة الجديدة لا محالة — والاَّ كانت المعاملات الدولية عرضة للضياع ولا ضمانة لها اذا سقطت بسقوط الحكومة العاقدة لها .

حقوق الممالك وواجباتها

بعضها نحو بعض

كل انسان يشعر من نفسهِ أن له حقوقاً لازمة لحياته ولاتساع المواهب التى أودعها الخالق جلَّ شأنه فيهِ كذلك المملكة متى وجدت كان لها حقوق عامة أصلية لم تخلقها معاهدات ولا ظروف مخصوصة ومقابل هذه الحقوق يكون عليها واجبات من شأنها حفظ كيان المملكة واحترام شخصيتها .

وهذه الحقوق العامة الضرورية لوجود الشخصية السياسية لمملكة :

هى حق السيادة ، وحق الاستقلال ، وحق المحافظة والدفاع ، وحق المساواة ، وحق الملكية .

حق السيادة والاستقلال — هذا الحق بالنسبة لكل مملكة عبارة عن تمتعها باستقلال تام يمكنها من تحقيق الرقى والسعادة لأمتها بلا أقل تداخل أجنبى فى شؤونها .

(١) قواعد عمومية — كل مملكة لها الحق فى وضع قواعد نظامها السياسى وشكل حكومتها ومجموع شرائعها . واستعمال هذا الحق لا يتوقف على تصديق الدول الاخرى ولكن عندما يتغير شكل الحكومة واسمها يجب تصديق الدول حتى تتوفر للمملكة السيادة السياسية أو الخارجية .

وحق الاستقلال يستلزم احترام أراضى المملكة وعدم تجاوز حدودها . فلا يجوز لرجال السلطة العمومية فى مملكة أن يدخلوا أراضى مملكة تجاورها للبحث عن جان أو لانفاذ حكم ، كما لا يجوز لها أن تساعد أو تشجع الحركات الثورية ، أو العصابات أو غيرها مما يهدد سلامة الممالك المجاورة ، بل على العكس يجب عليها ان تعمل على ابطال مثل هذه الحركات التى من شأنها ايقاد نار الفتن الداخلية فى تلك الممالك

الهاربون السياسيون اذا التجأوا الى مملكة وجب عليها أن لا تسمح لهم بالتآمر على مملكتهم ، ولا تسهل لهم سبيل الاستعداد والتسلح ، وانما تؤويهم ايواءً ليس الاَّ .

لا يمكن رفع دعوى على مملكة أمام محاكم مملكة أخرى لاستقلال الممالك بعضها عن بعض .

حق المحافظة والدفاع تخول للمملكة أن تقيم ما تشاء من الحصون والمعاقل ، وتجمع ما تشاء من الجيوش والأساطيل ، بلا ممانعة من مملكة أخرى لأى سبب كان .

جميع الممالك متساوية ليس لاحداها امتياز خاص على الاخرى ، مهما كانت هذه كبيرة وتلك صغيرة . ولا تفضيل للغة على لغة حتى أن معاهدة (ڤينا) سنة ١٨١٥ حرّرت باللغة الفرنساوية ولكن نص فى المادة (١٢٠) منها على ان ذلك لا يمس قاعدة المساواة القانونية بين الممالك . ومملكة هولاندا فضلت الحرب مع انجلترا فى القرن السابع عشر على قبول اقتراح انكلترا وجوب رفع اشارات التعظيم كلما مرّت سفينة انكليزية على أخرى هولاندية وبالعكس فى المياه البريطانية كما كان اصطلاح ذلك الوقت .

كل مملكة لها الحق فى امتلاك أراضٍ ومبانٍ ، ويجب ان تحترم أملاكها فى نظر القانون الدولى كاحترام أملاك الافراد فى نظر القانون المدنى .

كل مخالفة لما تقدم تعتبر فى عرف القانون الدولى اعتداء أو اهانة ، ويترتب عليها وجوب تقديم الترضية الكافية ، والاّ كان الحسام الفاصل بين الطرفين .

العلاقات الدولية فى حالة السلم

علمنا مما تقدم حقوق الممالك وصفتها وحدودها ونريد الآن معرفة كيف يمكن الاحتفاظ بها والتحقق من احترامها ومباشرة العمل بمنطوقها ومعناها. ذلك يتسنى بان يكون لكل مملكة وكلاء يمثلونها تمثيلاً حقيقيًّا. ولما كان الملك هو المثال الحى للحكومة، كان السفراء هم الذين يمثلونها لدى الحكومات الأجنبية لمباشرة الاشغال السياسية الخارجية، وكان القناصل هم الذين يمثلونها لحماية رعاياها والسهر على مصالح بلادهم التجارية.

الملوك — الملك رئيس الحكومة والسلطة العليا فيها. وكان فى سابق الأيام الكل فى الكل أعنى ان السلطة بأنواعها المختلفة كانت بيده. أما القواعد الحديثة فانها تفرق بين السلطتين التشريعية والتنفيذية وتكل كل سلطة منها الى هيئة منفصلة عن الاخرى.

وفى القانون الدولى لا فرق بين الملك والامبراطور والقيصر بل جميعهم سواء فى الحقوق. وكل مملكة لها أن تعطى ما تشاء لملوكها من الأسماء والألقاب، بشرط ان لا يؤثر ذلك فى حقوق الممالك الاخرى أو في منح نفس تلك المملكة سيادة عليا غير السيادة السياسية التى لغيرها، وقد جرى الاصطلاح ان تبلغ المملكة الدول

الاخرى ما تقره من تلك الالقاب ليعترفنَ لها بها حتى يكون لها قيمة حقيقية عملاً بقرار موئتمر (اكس لاشبّل) سنة ١٨١٨ ميلادية حيث اتفقت الدول الأوروبية على ان لا يقبل تغيير فى ألقاب الملوك فى المستقبل ، الاّ اذا تم الاتفاق بينها مقدماً على ذلك .

وأهمية الممالك اليوم بالقوة الحقيقية ، أما الالقاب فقد ضاعت معانيها ومحيت قيمتها

واذا كان السياسيون لا يعلقون أهمية كبرى على الالقاب فانهم يهتمون كثيراً بان يعرضوا تاج أية مملكة تخلو من مليكها على أمير من أمراء مملكة أخرى لأنهُ يزيدها قوة على قوتها فتحصل على شئ من السيادة والتفوُّق على غيرها . ففي سنة ١٨٣١ منعت الدول الكبرى (دوق نيمور) من قبول تاج مملكة البلجيك ، وفى سنة ١٨٦٢ انتخب بالاقتراع العام (البرنس ألبرت) ملكاً لليونان فعارضت فرنسا وروسيا ، وكذا رشح أمير من أمراء بيت هوهنزولرن لكرسى مملكة اسبانيا فكان ترشيحه السبب الظاهر لحرب فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠

امتيازات الملوك — للملوك امتيازات عظيمة فى مقابلاتهم وغدواتهم وروحاتهم ومعاملاتهم مصطلح عليها فى حكوماتهم وتختلف باختلاف الأمم فى أخلاقها وعاداتها ورقيها فاذا عزم ملك على زيارة مملكة غير مملكته دارت المخابرات بين الحكومتين ، لتقرير خطة السفر ، والمقابلة ، والتعظيم اللائق بمقام الملك

ولهم كذلك امتيازات فى البلاد الأجنبية ألا يحاكم أحدهم امام محاكمها ، ولو ارتكب جناية ، وهذا الامتياز يشمل رجال معيته أيضاً ، ولا يدفع ضرائب لها ، وبالجملة لا يخضع لقانون فيها بالمرة . والعلة فى احترام الملوك ، مجاملة أممهم لأنه لا اهانة اكبر من مصادرة أمة فى ملكها ، وهو رأسها واكبر مثال لها .

الوكلاء السياسيون — الوكالة السياسية — هى مباشرة الأعمال الدولية من حيث ضمانة حقوق الممالك وصيانة شرفها ومصالحها الشرعية بالبلاد الأجنبية .

فهى فن دقيق لأن التوفيق بين أطماع الشعوب المختلفة ، وادارة المفاوضات السياسية ، تحتاج الى حسن تميز واختبار كبير .

والموظف السياسى يجب أن يضع نصب عينيه مصلحة بلاده ، ولكن عليه أن لا يندفع مع تيار عواطفه القومية ، ولا ينسى أن الاحتفاظ بحقوق العدل والأنصاف هو المصلحة الأولى للأمم . لأجل هذا وجدت وظائف السفراء والقناصل من قديم الزمان . غير أن هذا النظام لم يقرر بصفة دائمة الاّ بعد معاهدة (وستفاليا) سنة ١٦٤٨ . وتعيين السفراء والقناصل يكون بأوراق رسمية مبين فيها حدود مأمورية السفير ، والمهمة التى اوفد من أجلها . وتقدّم هذه الأوراق لحكومة البلاد التى عيّن فيها .

ليس لمملكة أن توفد سفراء لدى مملكة أخرى الاّ اذا كانت

مملكة مستقلة استقلالاً تاماً ، ومعترفاً بها من الدول الأخرى . ولكل مملكة سفير واحد معتمد من قبلها لمباشرة مصالحها لدى مملكة أخرى ولا يتعدد السفراء من المملكة الواحدة الا فى المؤتمرات وحفلات التتويج والجنازات ونحوها .

يجوز ان يكون السفير نائباً عن مملكتين فأكثر .

الوكلاء السياسيون درجات (١) السفير (٢) الوكيل المفوّض (٣) الوزير المقيم (٤) الوكيل المكلف بمأمورية مستديمة أو وقتية . ولهم رئيس واحد هو ناظر الخارجية ، وهو يعطيهم جميع التعليمات التى تلزم لتأدية مأموريتهم .

جميع هؤلاء الوكلاء لهم الامتيازات المقررة فى القانون الدولى بلا تمييز لأحدهم على الآخر لأن كلاً منهم وكيل أمته فى مصالحها العمومية ، وانما يختلفون فى تقديم أوراق تعيينهم : فرجال الثلاثة الأنواع الأولى يقدمون أوراقهم للملك والآخرون يقدمونها لناظر الخارجية وللأولين رسوم خاصة بهم فى مقابلاتهم وتعظيمهم ، أرقى مما للآخرين بسبب سموّ مقامهم وطبيعة وظيفتهم .

الوكلاء السياسيون الذين من درجة واحدة يكون ترتيبهم فى الاحتفالات والتشريفات ، على خطة الأقدم فالأقدم ، وتعتبر الأقدمية بتاريخ تقديم أوراق التعيين .

متى حصل تغيير فى حكومة المملكة وجب تجديد اعتماد تعيين

السفراء المقيمين لديهـا . وقد وقع خلاف بين سفيرى انكلترا والبرتغال فى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٥ حين ارتقاء (الفونس الثانى عشر) على كرسى مملكة اسبانيا وكان الأول أقدم من الثانى الاّ ان أوراق تجديد اعتماد الثانى سبقت أوراق الأول ، فقرر مجمع السفراء بمدريد تأييد طلبات السفير الانكليزى .

وقد جرت العادة أن يؤخذ رأى الملك الذى سيعين السفير لديه ، حتى لا تكون الكراهة الشخصية عقبة فى سبيل تأييد السلم أو الوفاق بين المملكتين فيضر ذلك بمصالحهما العمومية .

وظائف الوكلاء السياسيين

(١) يجب على الوكيل السياسى أن يكون خبيراً بأمور المملكة التى هو معيّن لديها ، واقفاً على اسرارها كأن يعرف حالة الجيش وسائر الأحوال السياسية والتجارية وموارد الثروة ومواطن الضعف فيهـا وحركة الأعمال البشرية على اختلاف أنواعها ، ويقدّم تقاريره من وقت لآخر عن ذلك .

(٢) بما إنه وكيل لدولته ، عليه ملاحظة انفاذ المعاهدات السياسية والتجارية المعقودة بين المملكتين ، والسعى فى عقد معاهدات أخرى تفيد مصالح بلاده متى رأى ذلك ، وملاحظة كل ما من شأنه المساس بحقوق بلاده ومصالحها ، لينبه عليه ويرشد اليه .

(٣) حماية رعايا دولته اذا وقع على أحدهم جور أو اعتداء ، بشرط الالتجاء الى السلطة المختصة أولاً حتى اذا لم يجد انصافاً لجأ الى الطرق السياسية فى رد الظلم وتعويض الضرر

وتكون مفاوضات الوكلاء السياسيين مع نظار الخارجية بحيث يكون السفير هو الواسطة بين الحكومتين فى جميع مفاوضاتهما

جميع المفاوضات السياسية للملكة تنشر فى وقت معلوم من السنة فى كتاب يعرف اسمه بلون غلافه فيقال الكتاب الأزرق لانكلترا والكتاب الأصفر لفرنسا الخ

وليس للسفير أقل تداخل فى الشؤون الداخلية للملكة التى هو معيّن لديها .

امتيازات الوكلاء السياسيين

أولاً — للوكيل السياسى ويسمى أيضاً بالوزير العام حرمة الشئ المقدس : الحماية المطلقة والاحترام التام فهو امانة المملكة الموفدة له لدى شرف المملكة المعيّن لديها . كل اعتداء يقع عليه مادياً كان أو أدبياً يلحق بالمملكة النائب عنها . ولا يعتبر ذلك جريمة من جرائم القانون العام بل جريمة خارقة لحرمة القانون الدولى .

وتنظر محاكم البلاد فى مثل هذه الجرائم كما تنظر الجرائم العادية أما اذا كانت الاهانة وقعت من الحكومة نفسها فتقدّم الترضية

إما بالاعتذار او بايضاح يزيل سوء التفاهم

وتكون هذه الحرمة لشخص الوكيل السياسى بمجرد دخوله أرض المملكة التى هو معيّن لديها ولو لم يقدّم أوراق تعيينه . واذا استدعى لمملكة اخرى كانت له هذه الحرمة حتى يفارق أرض المملكة .

وتكون هذه الحرمة أيضاً لجميع موظفي مأموريته وأتباعه وسعاة بريده وكذلك سائر المحررات والعقود والأوراق الخاصة بوظيفته أو بشخصه لا تمس لاية علة كانت .

ثانياً — استقلال الوكيل السياسى — قلنا ان لكل مملكة السيادة الداخلية أى السلطة العليا على كل شخص تطأ قدمه أرضها ، ويستثنى من هذه القاعدة الوكلاء السياسيون في الأمور الآتية .

(١) المواد الجنائية — لا يحاكم الوكيل السياسى أمام محاكم المملكة التى هو معيّن لديها ولا تسرى عليه قوانين الشرطه (البوليس) .

نعم يجب على الوكيل السياسى أن يحترم لوائح البوليس بلا خلاف لأنها وضعت لحفظ الأمن والنظام . والامتياز الممنوح للوكلاء السياسيين لا يذهب بهم الى مجاوزة حدود النظام العام ، وانما في حالة مخالفة تلك اللوائح ، لا تتخذ مع الوكيل السياسى الاجراآت التى تتبع مع الافراد ، مثل تحرير المحاضر أو القبض عليهم ، بل يكتفى في ذلك بالاخطار أو التنبيه البسيط . واذا لم يفد وجب الالتجاء الى الطرق السياسية بواسطة المفاوضة مع نظارة الخارجية .

كذلك لا يحاكم الوكيل السياسى فى المسائل الجنائية أمام أية محكمة من محاكم السلطة المحلية . فاذا ارتكب جناية أو جنحة يطلب من حكومته استدعاؤه أو يُدعى الى مفارقة البلاد . الاَّ اذا كان الاعتداء مهدداً لسلامة الملك أو حكومته

كذلك لا يجوز اعلانه بالحضور بصفة شاهد فى قضية . فاذا كانت شهادته ضرورية لاثبات جناية طلب بالطرق السياسية بواسطة نظارة الخارجية .

ويدخل فى هذا الامتياز أيضاً موظفو السفارة أو الوكالة، ثم توسعوا بحكم العادات المرعية الآن الى ان أدخلوا أسرة الوكيل السياسى وتوابعه حتى غير الرسميين في هذا الامتياز، وللوزير العام الحق فى أحالة محاكمتهم على محاكم السلطة المحلية أو محاكم بلاده الداخلية .

(٢) المواد المدنية — كذلك فى المواد المدنيــة لا يجوز رفع دعاوى مدنية على الوكيل السياسى الاّ أمام محاكم بلاده . والاسباب :

أولاً — ان طبيعة وظيفته أو مأموريته تستدعى أن يكون آمناً من كل خوف حتى يكون مستقلاً لا يخشى تهديداً باعلانات قضائية أو حجوز أو نحوها .

ثانياً — انه يمثل حكومته وليس لحكومته على أخرى سيادة أو سلطة كما قدمنا .

ولذوى الحقوق الالتجاء الى نظارة الخارجيــة فى طلب حقوقهم

وهذه تخاطب الوكيل السياسى صاحب الشأن فان لم تجد نفعاً فى ذلك كاتب نظارة خارجية بلاده .

ويتمتع بهذا الامتيـاز كذلك مستشارو السفارات والوكالات السياسية وكاتمو أسرارها وأسرة الوكيل السياسى ومن فى خدمتـهِ الخصوصية .

جميع منقولات وأثاثات الوكالة السياسية سواء كانت للمصلحة أو لاستعمال الوزير العام الشخصية لا يجوز الحجز عليها مطلقاً .

ويستثنى مما تقدم المسائل العقارية فان قضاياها تنظر أمام محاكم السلطة المحلية ما عدا منزل السفارة أو الوكالة السياسية وملحقاتها لأنهُ يعتبر جزءًا من مملكة الوزير العام فلا يجوز الحجز عليهِ ولا رهنه ولا الدخول فيهِ الاّ باذن الوكيل السياسى ورضاه .

وللوزير العام أن يقبل فى الوكالة السياسية كل مجرم سياسى التجأ اليهِ وطلب حمايته دون المجرمين العاديين فانهُ يجب عليـهِ تسليمهم للسلطة المحلية بمجرد طلبها والاّ كان لها الحق فى محاصرة الوكالة والدخول بالقوة اذا اقتضت الظروف .

وكذلك جميع الاشغال التجارية التى يتعاطاها لمصالحه الشخصية تنظر قضاياها أمام المحاكم المحلية أيضاً .

الضرائب — يعفى الوكلاء السياسيون من جميع الضرائب الشخصية والرسوم الجمركية وبعض الممالك يعفيهم من كل ضريبة الاّ الضرائب العقارية .

القناصل

القنصل هو الوكيل العام المكلف برقابة مصالح بلاده التجارية في الخارج وحماية رعايا دولته .

والقناصل بعثت للبلاد الأجنبيـة من القرون الوسطى ، فنظامهم أقدم من نظام الوكلاء السيـاسيين . وهم أربع درجات : القنصل الجنرال ، والقنصل ، ونائب قنصل ، ومأمور أشغال قنصلية . وبالتبعية لاتساع دائرة اختصاص كل منهم يكون بعد القنصل الجنرال جملة قناصل وبعد القنصل جملة من نواب القناصل وهكذا .

اختصاصات القناصل — مأمورية القناصل تجارية صرفة لأنهم لا ينوبون عن حكوماتهم في مسائل السياسة العامة .

انما يجوز في البلاد التي لا يوجد فيها وكلاء سياسيون أن يكلف القنصل بالمأمورية السياسية بنص صريح في أوراق تعيينه علاوة علي أعمال وظيفته .

وفي هذه الحالة ، عليه تبليغ حكومته جميع المسائل التي لها مساس بسياستها ومخاطبة ناظر الخارجية كلما رأى مخالفة في تنفيذ المعاهدات المعقودة بين الحكومتين .

أما اختصاصهم في المسائل الأخرى فهي :

(١) المسائل التجارية — مأمورية القناصل في المسائل التجارية

اكبر مهمة فى وظائفهم ، فانهُ يجب على القنصل أن يبلغ حكومته عن الأحوال التجارية أو الصناعية فى المملكة التي يقيم بها مع بيان سير الرقى فيهما وحركة المعاملات وشروطها ، وأن يرسل لبلاده من وقت لآخر ، أشياء من المصنوعات أو المحصولات الأجنبية ، كلما رأى فائدة تعود على مصلحة بلاده التجارية من دراسة هذه الاشياء ، أو مقارنتها بمثلها عندهم . وعليهِ أن يعلن لمواطنيه وعلى الأخص أهل التجارة والملاحة صنوف الحقوق والفوائد المقررة بالمعاهدات ، وان يسهل لهم أعمالهم ويزيل بمهارته العقبات التى قد تعترض تقدم التجارة أو الملاحة .

(٢) المسائل الادارية — يختص القنصل بصرف جوازات السفر ، والتصديق على الشهادات ، وأعمال القرعة العسكرية ، وتسفير رعايا دولته الفقراء الى بلادهم ، وسائر الاعمال التى تختص بالسفن التجارية ، والحجر الصحى عليها وغير ذلك .

(٣) المسائل المدنية — كعقود الزواج والطلاق ، وقيد المواليد والوفيات ، والتصديق على العقود والوصايا ، والحجر على المعتوهين والسفهاء ، واقامة الأوصياء على القصر ، وحصر التركات . . ونحوها .

(٤) المسائل القضائية — ليس للقناصل اختصاص قضائى فى البلاد الأجنبية ، وعلى الاخص البلاد المسيحية . أما فى البلاد غير المسيحية فلهم اختصاص فى المواد يختلف باختلاف المعاهدات المحررة بهذا الشأن .

ففى مصر مثلاً ، للقناصل الحكم فى قضايا الجنح والجنايات التى تقع من رعايا ممالكهم ، أما المخالفات فتحكم فيها المحاكم المختلطة .

وكذلك لهم حق الفصل فى المسائل المدنية والتجارية ، الاّ ما يتعلق بالعقارات ، فانهُ من اختصاص المحاكم المختلطة ولو كان الطرفان من جنسية واحدة .

امتيازات القناصل

ليس للقناصل من الامتيازات الممنوحة للوكلاء السياسيين فى البلاد المسيحية ، الاّ بعض امتيازات قليلة ، مساعدة لهم فى اداء مأموريتهم . أما فى البلاد غير المسيحية ، وعلى الاخص بلاد الشرق الادنى ، فان للقناصل جميع الامتيازات التى للوكلاء السياسيين ، وذلك بمقتضى المعاهدات المعقودة بين دول أوروبا ودولة آل عثمان فى القرن السادس عشر للميلاد .

الباب الثامن

الدين العمومى

تولى المغفور له اسماعيل باشا خديو مصر الأول ، عقب وفاة المرحوم محمد سعيد باشا رابع ولاة مصر ، من الأسرة المحمدية العلوية وعلى مصر دين عمومى قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات أو يزيد قليلاً. الاَّ انهُ كان طموحاً الى العلى ، شغوفاً بمحاسن الحضارة العصرية فهمّ بتشييد القصور العديدة ، وحفر الترع العمومية ، لاسيما الاسماعيلية والابراهيمية ، وبانشاء معامل السكر بالوجه القبلى ، ومعامل حلج القطن ، وكوبرى قصر النيل ، ومدّ السكك الحديدية فى الوجهين ، وبتأسيس المدارس فى جميع أنحاء القطر . وساعد فى انشاء شركات المياه والنور بالقاهرة والاسكندرية ، الى غير ذلك مما لا يحصره هذا المؤلف الصغير ، هذا فضلاً عن انشاء المحاكم المختلطة وتعديل نظام الوراثة للأريكة الخديوية ، وفتح قنال السويس .

كل هذه الاعمال أفضت الى تثقيل كاهل الفلاح المصرى بأنواع الضرائب الفادحة ومع ذلك لم تسد حاجة اسماعيل ولا أرضت مطامعه فمدّ يده الى الماليين الأوروبيين واستدان ديوناً طائلة بفوائد وآجال

مختلفة ، ولم يمض اكثر من أربع عشرة سنة من تاريخ جلوسه على الأريكة الخديوية حتى بلغت الديون ٩١ مليوناً من الجنيهات واختلت أركان المالية المصرية. و بسبب قصر آجال بعض السلف، حلت مواعيد دفعها والخزينة خاوية على عروشها ، فتوقفت الحكومة عن الدفع ، فهاجت هذه العسرة أصحاب الديون وشرعوا فى مقاضاة الحكومة أمام المحاكم المختلطة ، وكان ما كان من اضطراب الأحوال واختلال الأمور التى أدت الى تداخل الدول فى شؤون الحكومة ، تارةً بتعيين مندوبين لفحص حساب الحكومة ، وتارة لتصفية ديونها ، وتارة لمراقبة أعمالها الى ان ختمت بعزل الخديو اسماعيل، وتولية المغفور له محمد توفيق باشا الذى عنى بالأمر ، وشكل لجنة لتسوية الديون جميعها من سائرة ومنتظمة ، وأصدر قانون التصفية الشهير بتاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ . وكان قبل ذلك قد تشكل (صندوق الدين) بناء على طلب الدول وأعضاؤه ستة ، كل واحد منهم مندوب عن دولة من الدول الكبرى .

وكان الغرض من ايجاد صندوق الدين ملاحظة حقوق الدائنين ، والدفاع عنها من جهة ، ومراقبة الحكومة المصرية وتصرفاتها من جهة أخرى

وبمقتضى قانون التصفية أصبحت الديون العمومية هى :

دين الدائرة السنية ، ودين الدومين (أراضى الميرى الحرة) ، والدين الموحد ، والدين الممتاز ، وزيد عليها بعداً الدين المضمون .

(١) أما دين الدائرة السنية فقد انتهى وبيعت الأراضى التى كانت مرهونة بسببه وكانت ٤٨٥,١٣١ فداناً

(٢) وأما دين الدومين فقد كان ثمانيــة ملايين ونصف من الجنيهات أخذت من بنك روتشلد لتسديد الديون السائرة ، ورهنت بسببها أطيان تنازل عنها الخديو اسماعيل عن نفسهِ وعن أعضاء اسرته للحكومة المصرية فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٧٨ مراعاة للأحوال المالية وقتئذٍ . وهذا الدين ينتهى فى ختام سنة ١٩١٢ وستباع أطيانه أيضاً وهى الآن ٢١٩,٧٨٨

(٣) الدين الموحد

يشمل ديون الحكومة التى اقترضتها فى سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧٣ وضمت بعضهــا الى بعض ووضعت لها قواعد واحدة من حيث الارباح ودفعها وطريقة الاستهلاك أى وُحدت . وخصص لاستهلاك هذا الدين صافى ايرادات الكمــارك وايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط . وقدر الدين المذكور بجملته ٦٠,٩٥٨,٢٤٠ جنيه مصرى

(٤) الدين الممتاز

هو عبارة عن جزء مخصوص من الدين العمومى ، رهنت وخصصت من أجل سداد أرباحه واستهلاكه دون غيره أى بالأفضلية على غيره ، ايرادات معينة نظير تنازل أصحابه عن بعض سنداتهم واستبدالها بأخرى أقلّ من الأصلية ، وجعلت فوائده ½ ٣ فى الماية وكانت ٥ ٪

وخصصت له ايرادات السكة الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية ، وبلغت جملته ٣١,٥٨١,٢٠٠ جنيه مصرى .

(٥) الدين المضمون

عبارة عن تسعة ملايين ونصف من الجنيهات اقترضت على أثر الحوادث العرابية وثورة السودان لدفع التعويضات ، واصلاح مالى اقتضتهُ الأحوال ، بضمانة انكلترا وفرنسا والمانيا وأيطاليا والروسيا . وقرّر لتسديده ان يؤخذ كل سنة ٣١٥,٠٠٠ جنيه من الايرادات المخصصة لضمانة القرضين الممتاز والموحد .

وفى سنة ١٩٠٤ تمَّ الاتفاق بين انكلترا وفرنسا على فك الرهن عن جميع المصالح والمديريات المخصصة للدين وان تحمَّل الأموال العقارية (ما عدا عشور النخيل) فى جميع المديريات ، الا مديرية قنا ، تسديد المقرّر السنوى للدين وهو ثلاثة ملايين ونصف تقريباً والزائد يدفع لخزينة المالية مباشرة .

وبمقتضى هذا الوفاق أصبحت الحكومة تقدّر مصروفات ادارتها بالطريقة التى تراها بلا دخل لصندوق الدين كما كان قبلاً ، ولها أن تقترض بغير اذن منه ايضاً

والخلاصة أن صندوق الدين أصبح بعد ذلك الوفاق لا عمل له سوى انه خزينة مخصوصة تتسلم من ايرادات الحكومة قيمة المقرر للدين وتقوم بتوزيعه على الدائنين .

﴿ تمَّ الجزء الثالث ﴾



مبادئ الاقتصاد السياسى

الباب الأول

« ١ — الاقتصاد السياسى »

الاقتصاد السياسى هو علم الثروة

لا بمعنى أن يصبح الانسان بواسطته غنياً من الاغنياء ، بل بمعنى علم يبحث فيهِ عن المنافع العامة للهيئة الاجتماعية سواء فى الصناعة او الزراعة او التجارة ، وعن علاقات العمال مع أرباب المصانع والمناجم ، وعن الاعتصابات او الاضراب عن العمل ، الى غير ذلك مما تقرؤه كل يوم فى الصحف السيارة .

وتعريفه عند علماء الاقتصاد ، انه علم يبحث بهِ عن القوانين الطبيعية ، وعلاقات الأفراد والمجاميع الخاصة بايجاد الثروة وتوزيعها وتداولها واستهلاكها ، ولذلك سمى الاقتصاد السياسى بعلم الثروة .

« ٢ — حاجات الانسان »

الانسان فى هذه الحياة له حاجات لا يحصل عليها الاّ بعمل يقوم بهِ أو مال ينفقهُ

فحاجته للغذاء دفع الجوع ، واللباس اتقاء البرد ، وللمسكن الالتجاء اليه هو وأسرته متى جن الليل ، أو اشتد هجير الصيف ، أو زمهرير الشتاء ، فهو بالجملة يكون مأواه ومأوى أسرته يدبرون فيه حاجة العيش وشؤون الحياة .

وليست الحاجة الى المأكل والملبس والسكنى كل ما يطلبه الانسان ، فى وسط من أوساط الحضارة ، بل الحضارة تجعله يشعر بحاجته الى التعلم والتروض ، وهذه الرغبة منه تخلق له حاجات فوق هذه الحاجات الثلاث .

اذاً حاجات الانسان كثيرة ، تختلف باختلاف الأوساط التى يوجد فيها . فالمتأخرون فى الحضارة لا يبحثون الاّ عن الغذاء ، وقد لا يهتمون باللباس أو السكنى ، على ان أهل الحضارة يرون حاجتهم للتعليم والتربية كحاجتهم للغذاء واللباس حيث يرون من ضرورات الحياة الأدبية ، اتساع القوى المنتجة فى الانسان التى عليها مدار تقدُّم الأفراد والمجاميع

فحاجات الانسان إما ضرورية ، أو نافعة ، أو مرغوب فيها ليس

الاّ ، كالحلى والجواهر . وسد تلك الحاجات يكون بعمل يقوم الانسان به ، كما يفعل الصياد اذا اصطاد طيراً ليأكله ، أو بصرف شئ من المال مناسب لقيمة تلك الحاجة ، فاذا كان المـال الذى أنفق اكثر منها كان اسرافاً وصاحبه يعد قليل الحزم

« ٣ — المنفعة والثروة والقوى المنتجة »

كل شئ يسد حاجة فهو شئ نافع

كل شئ نافع يعدّ ثروة

يجب التميز بين الثروة المادية والقوى المنتجة التى تولد الثروة

القوى المنتجة الأولى من نوعها ، هى قوة الانسان . فالغيط ثروة لأنه ينتج المحصول ، والقمح ثروة لأن فيـه الغذاء ، والمنزل ثروة لان فيه السكنى ، والآلة البخارية ثروة لأنهـا تولد القوة المحرّكة ، والجواهر ثروة لأنهـا تسد حاجة الرغبة في الزينة ، والكتاب ثروة لأنه يعلّم الانسان .

وهكذا يمكن أن يقال عن كثير من الاشياء ، حتى استشارة الطبيب فانهـا شئ نافع ، لان المريض ينتفع بمزايا العلم الذى قد يفيده الشفاء

وثروة كل أمة هى مجموع الاشياء النافعة التى تملكها .

وفى العادة يُقال ان الانسان غنى متى كان يملك أموالاً بكثرة وعند الاقتصاديين لا يقال فقير لمن لا يملك أموالاً بل عندهم ان ثوب الفقير وطعامه الذى قد تعافه النفس ثروة .

والثروة الطبيعية ، هى المنافع التى تجود بها الطبيعة . فالبلاد المعروفة بخصب أرضها أو معادنها تكون أغنى من البلاد القاحلة طبعاً .

الثروة التجارية ، أعنى الثروة التى تتداول فى المتجر ، هى الثروة التى يوجدها الانسان وعمله بواسطة الزراعة أو الصناعة أو التجارة التى يهيئها لسد حاجاته ، لأن الثروة الطبيعية تصبح ثروة تجارية متى هيأها الانسان وجعلها ذات قيمة بعمله ، وعلى هذا النوع تتكوّن ثروة الأمم .

والثروة تتكوّن من اشياء مادية – مثل الأرض فانها من عوامل ايجاد الثروة بتربتها وموادها الأولية وقوى الطبيعة المؤثرة .

ومثل الكسب[١] الذى هو ثمرة عمل الانسان كالقمح والفول وصنوف المحصولات والآلات الميكانيكية وضروب المصنوعات التى تصنع إما لانتفاع الانسان بها مباشرة ، او لتستخدم فى عمل مصنوعات أخرى .

ولتقدير موارد الثرود سواء للأفراد أو للأمم ، أو بعبارة أخرى لمعرفة القوة الاقتصادية – عند كل من الفريقين – لا يعوّل على ما يملكه الشخص أو الأمة حالاً بل المعوّل على القوة المنتجة –

---

(١) الكسب (produit) والكاسب (producteur)

مثال ذلك — رجلان أحدهما ورث مالاً قليلاً ولكنه جامد بليد وآخر لم يرث شيئاً الاّ انه تعلّم تعلّماً صحيحاً وهو ذو عزم وذكاء فلا يبعد ان يحصل مثل هذا بعمله على أضعاف ما ورثه الأول فى زمن قريب لما أودعه التعليم فيه من القوة المنتجة العليا . وفى الواقع يوجد نوعان من القوى المنتجة .

أولاً — قوى الطبيعة — كالضوء والحرارة والكهرباء — فهى من الثروة الطبيعية متى كانت غير مملوكة لأحد — والثروة التجارية متى هيأتها يد الانسان لغرض ما ، مثل استعمال الماء المنحدر فى ادارة الآلات الميكانيكية

ثانياً — القوى المنتجة التى يولدها عمل الانسان وادراكه ، وهى فى الحقيقة اكبر عوامل الثروة — لأن الانسان هو الذى يستخدم قوى الطبيعة والثروة الطبيعية والتجارية لايجاد ثروة أخرى .

فالقوة الاقتصادية للأمة اذاً تتكوّن من الثروة بأنواعها والقوى المنتجة .

« ٤ — الطبيعة والانسان »

الانسان يوجد الثروة باستخدام المواد وقوى الطبيعة .

توجد ممالك خصت بوفرة الثروة الطبيعية وأخرى جردت منها ، أعنى من العناصر الصالحة لايجاد الثروة .

جميع المواد التى تتكوّن منها الثروة أية كانت ، توجد فى الطبيعة وكذلك جميع القوى التى يستخدمها الانسان لتكوينها .

فالانسان عندما يوجد الثروة ، لا يخلق المادة ولا القوة ، لوجودهما فى الطبيعة ، وانما يستخدمهما فقط باستعمال القوة لتحويل المادة أو تشكيلها

ماذا يصنع النجار لصنع صندوق مثلاً ؟ يأخذ الواح الخشب المجلوبة من الغابات الطبيعية ، ويفصلها تفصيلاً بعدده ، ثم يأتى بالغراء وهو مادة عضوية مستخرجة من بقايا الحيوان ، ثم بالمسامير وهى من حديد مستخرج من معدن بالأرض . ومن ذلك يتضح ان الصانع لم يخلق الخشب ولا الغراء ولا الحديد ، انما استعملها لتحقيق غرضه وهو صنع الصندوق .

ومقاول بناء المنازل — لم يخلق الحجر ولا الأجر ولا الجير والجبس ولا سائر أنواع المؤونة وانما يستجلبها من محاجرها لاتمام مشروعه وهو بناء المنزل

هذا ما يسميه علماء الاقتصاد (بايجاد الثروة) اعنى تهيئة المواد الطبيعية وجعلها صالحة لمنافع الانسان ولذلك ترى كثرة السكان فى الممالك الخصبة ، أو التى خصت بالمعادن أو الفحم الحجرى ، وترى قلتهم فى البلاد القحلة حيث لا يجد الانسان من القوى الطبيعية ولا المواد الأولية ما يقوم بحاجاته

وعلى كل حال فان الانسان لا يوجد الثروة الاّ بقوة العمل

لأن المواد أو الثروة الطبيعية لا توجـد عادةً على سطح الارض فتكون سهلة التناول قريبة المأخذ .

المعادن لا توجد الاّ فى بطن الارض على أعماق مختلفة ، واستخراجها قد يستدعى مشقات جمة . كذلك الفضة ، فهى فضلاً عن تخللها أبعد الاعماق لا توجد الاَّ فى اراضٍ جبلية جرداء لا ماء فيها ولا زرع ، فتأمل كيف يكون العمل والعيش فيها .

« ٥ — التمدين »

التمدين الاقتصادى ينحصر في توفر أنواع الثروة والقوى المنتجة، ويحتاج ذلك الى نظام اجتماعى مفيد وانتشار التربية والتعليم وحكومة عادلة

مصر بلا شك من البلاد التى خصها الله بنعمائه وأجرى فيهـا النيل السعيد فأخصبت بهِ أرضها وعاش مواتها

ثم انظر كيف فعلت يد الانسان فزادت فى جمال الطبيعة . نرى فى الأقاليم السكك الحديدية والزراعية لتسهيل المواصلات وتقريب المسافات ، ودواب الحمل تنقل المحاصيل من أراضى المزارع الى القرى والبلدان ، والقناطر المشيّدة على النيل والترع لتدبير مياه الرى ولعبور الناس والدواب وقطارات السكة الحديدية من جهة لأخرى ، والسفن

التى تجرى فى النيل والترع الرئيسية لقضاء المصالح الزراعية والتجارية، وغير ذلك مما تقوم به الحكومة والشركات لراحة بنى الانسان ورفاهيتهم، ونرى فى الأقاليم كذلك المروج الأريجة والرياض الاريضة والمزارع النضرة، ونرى فى المدن المبانى الشاهقة والشوارع المنتظمة المرصوفة بالبلاط أو الاحجار المضغوطة وتحتها المجارى المعدة لتصريف مياه الامطار ونحوها — وأنابيب توزع المياه وغاز الاستصباح والكهرباء على المساكن، عدا أسلاك البرق (التلغراف) و(التلفون) ومركبات الركوب والنقل التى تجرى فى الشوارع وكلها منافع للناس، ومحال التجارة المنتشرة فى جميع انحاء المدن مما يحتاج اليه الشعب المتمدين على اختلاف مشاربه واغراضه

هذا ما يسمونه بالتمدين او الحضارة .

فالتمدين هو تراث الأولين منا وثمرة كدهم ومجهوداتهم منذ القرون الاولى جيلاً بعد جيل، كل جيل يأكل من غرس سابقيه وينعم بمنافع الاعمال التى أتمها ويتبع خطواتهم فى سبيل الرقى القومى

نبنى كما كانت اوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

والحضارة من الوجهة الاقتصادية تنحصر فى الآتى : —

أولاً — الثروة بأنواعها سواء كانت عقارات أو منقولات

ثانياً — القوى المنتجة التى تتولد فى الافراد بفضل التربية العلمية والادبية والنشاط وممارسة الفنون اليدوية والفنون الجميلة .

والحضارة درجات . الأمم السابقة لغيرها هى الأمم التى لديها ثروة اكثر من ثروة غيرها لا سيما القوى المنتجة التى تستلزم صفات معنوية خاصة كالعزم والثبات فى العمـــل والشعور والتبصر وارادة التوفير والاقتصاد وانتشار التعليم وحسن نظام المجتمع الانسانى ، لأن التعليم العام والتعليم الصناعى والنظام الاجتماعى هى أسّ التقدم فى الحضارة كما ان الحكومة الرشيدة هى أساس كل نظام اجتماعى مفيد .

الباب الثانى

ايجاد الثروة

« ١ — العمل »

لا يمكن ايجاد الثروة بغير العمل . العمل النافع هو الذى يوجد الشىء النافع .

قلنا ان العمل هو العامل الأول لايجاد الثروة ، وفى الواقع ان الانسان اذا لم يشتغل ، لا يمكن أن يجد فى الكون كل ما يحتاج اليهِ حاضراً . بل ان ما يوجد فى الكون انما هو المواد الأولية أو الثروة الطبيعية ، ويد الانسان هى التى تحولها الى ما تشاء حاجته وتهوى نفسه. فالأرض لا تخرج زرعها الاَّ اذا حرثهـا الانسان وبذرها وسقاها ، والذهب أو أى معدن آخر من المعادن النافعة ، لا يوجد حتى يستخرج من بطن الأرض بعد أعمال شاقة ومتاعب جمة وهكذا .

فالعمل النافع هو الذى يفيد صاحبه فى ايجاد الثروة التى ينشدها . والعمل غير النافع هو الذى لا ينال صاحبه فيهِ الاَّ التعب والنصب على

غير جدوى كمن يحرث أرضاً ثم لا يزرعها فماذا يفيده عمله هذا ؟ لا شيء ، فاذا دخلت دسكرة (عزبة) وجدت الفلاح الذى يزرع . ذلك الفلاح عمله نافع لأنهُ يوجد الغلال ، وكذلك الكاتب عمله نافع لأنهُ يقيد الحساب ويكتب المحررات ، وناظر الدسكرة (العزبة) عمله مفيد لأنهُ يراقب حسن ادارة الاعمال ، وعلى هذا يقاس .

« ٢ — العمل اليدوى والعمل العقلى »

كل عمل يحتاج لمجهود عقلى وجثمانى
التفاوت بين الناس فى القوى العضلية هو تفاوت محدود
والتفاوت بينهم فى القوى العقلية تفاوت غير محدود

كلما نمت القوى العقلية والأدبية فى الافراد أوجدت الثروة بكثرة وسهولة . ولأجل أن يكون العمل نافعاً يجب ان يديره رأس ذو ادراك ، ومهما كان العمل صغيراً كعمل الفاعل مثلاً ، فانهُ يحتاج لشيء من الادراك ولو قليلاً . يفهم ذلك بين فاعلين متفاوتين فى الادراك يحفران حفرة فترى أحسنهما ادراكاً يعمل بسهولة وسرعة بينما الآخر يعمل بتعب وصعوبة ، أو بين حمالين فى محطة أو ميناء ، ترى أحدهما يرفع عدة أشياء على كتفهِ أو ذراعيهِ بمهارة وترتيب لادراكٍ فيه ، بينما الآخر يرتبك فى رفع ثلاثة أشياء صغيرة

وكذلك الرجل السكير الذى يفقد ادراكه أحياناً تراه غير مستعد لاداء واجبه فى كل حين كما ينبغى .

فى كل عمل يقود العقل اليدين .

كلما كان العمل بقوة العضلات سمى العمل يدويًّا كعمل الفاعل والحداد والنجار فان ركن عملهم الأصلى القوى العضلية ، أما القوى العقلية فثانوية عندهم . وكلما كان العمل بقوة الفكر والعقل سمى عقليًّا ، كعمل المهندس والطبيب والمدرّس ، فان عماد أعمالهم العقل والادراك ، أما القوى العقلية فثانوية عندهم .

قلنا أن التفاوت فى القوى العضلية محدود ، بمعنى أن الفرق بين الرجل القوى البنية جدًّا والضعيفها جدًّا كالفرق بين ١ و ٣ لا أكثر أما التفاوت فى القوى العقلية فغير محدود ، بمعنى أن الفرق بين العامل الصغير الذى يرفع الأتربة بيديه و بين المهندس الذى يخترع آلة للحفر ترفع آلافاً من الأمتار فى الساعة الواحدة ، لا شك انه غير محدود ولا نهاية له ، وكذلك الفرق بين النوتى الصغير وربان سفينة من السفن الكبرى ، والفرق بين مديرى معملين من معامل الغزل أو الصناعات المختلفة فان تفاوت المعملين فى التقدم وكثرة الأرباح يتعلق بقوة المديرين العقلية وذكائهما .

وهذا التفاوت بين هؤلاء العمال منشؤه العلم الذى عليه المعول فى تثقيف العقل وتقوية الادراك .

« ٣ — عوامل الثروة »

العوامل الأصلية لايجاد الثروة هى العمل ورأس المال .

رأس المال بلا عمل لا يفيد شيئاً . والعمل بلا رأس مال يكاد لا يفيد شيئاً أيضاً

فالعمل هو الوسيلة الأولى لايجاد الثروة ، ولكنهُ لا يفيد شيئاً فى الغالب وحده . نعم أن الانسان المتوحش قد يحصل على قوتهِ بالصيد والقنص من الغابات ، و يعيش على ذلك عيشة البؤس والتعاسة ، ولكن فى بلاد الحضارة ماذا يصنع الفلاح اذا لم يكن له غيط يزرعهُ ، أو الصانع اذا لم يكن لديه العدد والمواد الأولية (الخامات) . اذاً فالثروة لا توجد الاّ بشيئين : العمل ورأس المال .

رأس المال على أنواع — أهمها للفلاح الارض ، وللصانع المواد الأوليـة ، وكل منهما يشترك مع الآخر فى العدد والآلات التى تساعدهما فى العمل ، والنقود الضرورية لدفع أجور العمال والنفقات الأخرى .

أيًّا كان نوع رأس المال فهو ثروة مستعملة لايجاد ثروة اخرى .

وعلى هذا يكون رأس المال عبارة عن مادة . والمادة فى حد ذاتها عقيمة لا تفيد شيئاً ، فالمطرقة لا تضرب الحديد وحدها بل يد الحداد هى التى تضرب ، وسلاح المحراث لا يشق وجه الأرض الاّ

بقوة الدابة المرتبطة به ، والآلة البخارية لا تتحرك الا اذا وضع العامل الفحم فى بيت النار والماء فى المِرْجَل .

فرأس المال لا يفيد شيئاً بغير العمل . والعمل بلا رأس مال لا يفيد تقريباً لأن الانسان بلا عدد وآلات أو مواد أولية يرجع الى حالته فى القرون الأولى . وانما باجتماع هذه العناصر ، توفرت أسباب الثروة كثيراً .

ففى عمل المنسوجات — تعدّ المبانى والآلات البخارية والأنوال ، آلات لايجاد الثروة ، والغزل والغراء مواد أولية ، والنسيج هو الكسب (المحصول) .

وفى الزراعة تُعد الزرائب والمخازن والمحاريث والماشية ، آلات لايجاد الثروة ، والبذور والسماد مواد أولية ، والغلال ونتاج المواشى هى المحصول .

« ٤ — رأس المال الثابت والوقتى »

رأس المال هو خادم العمل . وبه يستطيع العامل الواحد أن يأتى بكمية عظيمة من الفوائد .

الثروة تختلف باختلاف كثرة رأس المال او قلته .

رأس المال الثابت يستهلك شيئاً فشيئاً بمعنى انهُ يستعمل لايجاد الثروة غير مرة وزمناً طويلاً فى الغالب .

ورأس المال الوقتى . يستهلك فى الحال بمعنى أنهُ يستعمل مرة واحدة .

الأرض تدخل فى عداد رؤوس الأموال متى أحياها وهيأها الانسان .

فى الواقع ان الأرض فى حد ذاتها ثروة طبيعية وتصبح رأس مال بالعمل وتختلف عن باقى رؤوس الأموال بأنها ليست نتيجة العمل فى الأصل وانما يجد فيها الانسان المواد الأوَّلية ليس الاّ .

لنبحث الآن عن رؤوس الأموال المختلفة وعن عملها فى ايجاد الثروة فنقول :

اذا أصلح الانسان قطعة أرض تبلغ مائة فدان لتكون دسكرة (عزبة) وجعلها صالحة للزرع أمكن القول بأنها رأس مال يختلف فى نوعهِ عن باقى رؤوس الأموال الاخرى فاذا ردم ما بها من القطع المنخفضة بأتربة جيدة صالحة للزراعة فالأموال التى أنفقت تعدُّ رأس مال استعمل فى زيادة خصبها وصلاحيتها للانبات . والمبانى التى أقامها المالك فى العزبة تعدّ رأس مال ، وكذلك المركبات والمحاريث والسماد ، كلها رؤوس أموال لأنها ضرورية لاستغلال العزبة ، وكذا مواشى الحرث ومواشى الألبان وأغنام الصوف ، وكذا الأصناف التى توجد بالمخازن لعلف المواشى والأغنام ، كلها رؤوس أموال . أما ما يوجد فى المخازن من المحاصيل فان كان للبذر فهو رأس مال ، وان

كان للبيع فلا يعد رأس مال لانهُ ليس معداً لاستغلال العزبة بل هو محصول رؤوس الاموال .

قلنا أن بعضها يستعمل دائماً أو زمناً طويلاً و بعضها يستهلك فى الحال ففى مثال العزبة الذى ضربناه نجد أن الارض رأس مال ثابت أما السماد والبذور وعلف المواشى فكلها رأس مال وقتى ، حيث تتجدد عند كل زراعة أو تستعمل زمناً طويلاً أو قصيراً مثل المحاريث أو المركبات ونحوها ، ثم تستهلك و يستعاض بها غيرها .

وسواء كان رأس المال ثابتاً أو مؤقتاً فهو (خادم العمل) أى الذى يعينه على ايجاد الثروة بكثرة عظيمة . و يظهر الفرق فى ذلك بين مصنعين للمنسوجات أحدهما يشتغل بالأنوال العادية ، والآخر يستخدم الأنوال التى تدار بالمحركات الميكانيكية ، فانك تجد ما يصنعه المصنع الأول فى سنة ، قد يصنعه الثانى فى يوم أو بعض يوم ، والفضل فى ذلك للفرق بين رأسى مالهما طبعاً .

« ٥ — الآلات الميكانيكية والعلم »

المخترعات العلمية ولا سيما الميكانيكية ، قد أعطت العمل قوة غير محدودة

أصبحت المصنوعات بفضلها كثيرة العدد قليلة الثمن

المخترعات العامية تستلزم علماً راقياً ، ورأس مال وافراً ، واسواقاً عظيمة لتنفق فيها مصنوعاتها

قلنا ان العدد والآلات العادية رأس مال ، والآلات الميكانيكية هى عبارة عن عدد مستكملة تدار بواسطة محرّك ميكانيكى ، ولا شك ان جهد الانسان محدود ، ولكن قوة الآلات لا نهاية لها ، ولذلك قلنا ان المخترعات الميكانيكية قد أعطت العمل قوة غير محدودة

فالعامل الواحد ينشر بمنشاره مائة لوح من الخشب فى اليوم على أكثر تقدير ، مع ان المنشار الميكانيكى ينشر منهـا ألوفاً فى اليوم الواحد بلا تعب ولا نصب .

اذا كان العامل يغزل بمغزله فى اليوم خمسمائة متر من الصوف ، فانه يغزل بالمغزل الميكانيكى خمسة ملايين من الامتار فى اليوم الواحد . أنظر كيف كان نسخ المؤلفات العلمية فى القرون الوسطى حينما كان النساخ لا يكتب اكثر من أربعين صفحة فى اليوم ، وحالة المطابع اليوم وهى تطبع ملايين من الصحف فى بضع ساعات

قد وجد أرباب المصانع أنه لو جُمع حدادو فرنسا ووضعوا فى صعيد واحد ، وكلفوا بطرق كتل من الحديد يوماً كاملاً ، لما أتموا اكثر من عُشر ما تطرقه المطرقة الميكانيكيـة المعروفة عندهم باسم مارتو پيلون (Marteau - pilon) فى المدة عينها . على ان هذه

الآلة يديرها عامل واحد ليس له من عمل الاّ فتح لولب صغير او اقفاله

وقد أحصى فى فرنسا سنة ١٩٠٤ عدد الآلات البخارية على اختلافها (وهى جزء من الآلات الميكانيكية المستعملة) فكانت قوتها عشرة ملايين حصان بخارى وربع حصان . وهذه القوة تعادل قوة مائتى مليون صانع . على ان تعداد سكان فرنسا لا يتجاوز الأربعين مليوناً . ومن ذلك يتضح كيف ان الآلات الميكانيكية تضاعف كثيراً القوة المنتجة للانسان .

مما تقدم نعلم ان مزايا المخترعات العلمية هى : —

(١) تمكن الصنَّاع من العمل بكثرة فى الزمن القصير

(٢) كثرة المصنوعات وقلة الثمن

(٣) عمل ما لا يمكن عمله بغير الآلات الميكانيكية

(٤) تسهيل الأعمال على الصنَّاع والتقليل من متاعبهم

قامت ثورة العمال وهاج هائجهم عند ظهور الآلات الميكانيكية حيث ظنوا أنها معطلة لهم مقللة من أهميتهم مذهبة لمكاسبهم فما لبثوا ان عرفوا خطأهم واعترفوا بذنبهم اذ تعدَّوا على المصانع فهدموها ، واستولوا على الآلات فعطلوها ، حتى تداخلت الحكومات لتأييد الأمن وحفظ النظام أياماً معدودات . ثم ظهر خطأ التشاؤم من الآلات بعد قليل حيث تجلّت للصنَّاع ولأرباب المصانع وللناس

أجمعين منافعها بأجلى مظاهرها فكان منها سهولة العمل ووفرة المصنوعات وزيادة المكاسب ورخص الاسعار ، ثم تغيّر ما كان من اعتقاد أنها تقلل عدد العمال لأنهـا كانت سبباً فى زيادتهم وزيادة اجورهم أضعافاً مضاعفة لأن رخص المصنوعات زاد فى طلبها فعظم العمـــل

أنظر الحركة التى أوجدتها السكك الحديدية والمركبات الكهربائية (الترامواى) . نعم انقرضت بسببهـا طرائق النقل القديمة وكانت كثيرة المتاعب قليلة المكاسب ، لكن استبدل بها ما هو خير منها سرعة وراحة فى النقل وانتظام سير مع أجور مناسبة لجميع الطبقات . هذا عدا زيادة الاستعمار ونشر المدنية وتحسين أثمان الأراضى والأصقاع

انشاء المعامل ذات الآلات الميكانيكية يحتاج لرأس مال عظيم ، لأن هذه الآلات قيمتها عظيمة ولكنها تخرج من المصنوعات كميات وافرة ، وللحصول على أرباح تناسب رأس المال ، لا بد من وجود أسواق عظيمة لتصريف المصنوعات ، والأ كان مآلها الوقوع فى الافلاس لا محالة .

المخترعات الميكانيكية مؤسسة على نظريات علمية ، ومن أسباب رواج التجارة الاقتصاد فى المصروف ، لامكان الحصول على مصنوعات جيدة رخيصة ، حتى لا تجد فى الأسواق موانع من تصريفها .

مما تقدم يفهم جيداً الارتباط التام بين العلم والآلات ، فكلما

تقدم العلم دخل الاصلاح فى طرق تركيبها وادارتها ومواد وقودهـا ونحو ذلك

فالحركة العلمية من اكبر الضرورات للأمم التى تستعمل فى معاملها الآلات الميكانيكية ، ولا تنسَ فضل التطبيقات التى يهدى اليها علم الكيمياء وعلم الطبيعة ، كالكهرباء ، وفن التصوير الشمسى ، وقوانين تمدد السوائل ، والمعادن ، والغازات ، الى غير ذلك ، فأنها زادت عالم الصناعات قوة فوق قوته المستفادة من علم الميكانيكا .

الباب الثالث

توزيع الثروة

« ١ — الأجور والأرباح »

عند توزيع محصول أى عمل كان ، تكون الفائدة لرأس المال ، والأجرة للعامل ، والربح الصافى لمتعهد العمل أو المقاول له

العامل الصغير يتجر بذراعيه ، وصاحب العمل يتجر بمحصولاته أو مصنوعاته .

عرفنا ايجاد الثروة ونريد الآن معرفة من هى له ؟ أى مَن الموجد الحقيقى لها ؟

الصياد الذى يصطاد السمك أو الطيور بشبكته أو بفخه ، لا شك انها له دون سواه .

والفلاح الذى يزرع أرضاً هى ملكه بذراعيه ومحراثه لا شك ان المحصول يكون ملكه .

هذا فى الأعمال السهلة ولكن فى الأعمال الكبرى يتحتم وجود

عنصرين متلازمين فى اتمامها وهما العمل ، ورأس المال وقد يشترك جملة اشخاص في اتمامها . فكيف تكون نتيجة عملهم ؟

هناك تفصيل

اذا اشترك اثنان من البنائين ، بكفاءة واحدة ومع كل منهما عدده ، فى بناء منزل لآخر باتفاق بين الفريقين فمن البديهى ، أن ثمن المنزل لهما معاً ، كلٌّ يحق النصف . فاذا لم يدفع صاحب المنزل القيمة ، كانت الخسارة على الاثنين مناصفة كذلك .

أما اذا تم الاتفاق بين صاحب المنزل و بنّاء واحد ، وهــذا البنّاء اشترك معه فاعل لمساعدته ، وقام البنّاء بعمل الرسم ، وأحضر أدوات البناء والنجارة ونحوها ، فلا شك ان الربح لا يكون بينهما مناصفة ، بل الفاعل المساعد له ، أجر المثل فقط ؛ لأن المنزل من عمل البنّاء حيث قام بالبناء و بنفقاته . فاذا لم يدفع صاحب المنزل ما تعهد بدفعه ، كان الغرم على البنّاء دون سواه ، أما الفاعل فقد أخذ اجرته مقدّماً ، يومياً أو اسبوعياً .

ومما تقدم يُعلم ان قيمة العمل تقسم الى ثلاثة أنصبة ، رأس المال وله فائدته ، والعامل وله أجره ، والمتعهد وله صافى الربح .

« ٢ — معدل الأجور »

معدل الأجر يتعلق بقدرة العامل ووفرة رأس المال

وليس العمال هم الاجراء فقط بل كذلك الخدامون ومستخدمو المحال التجارية ومستخدمو الحكومة لأن كلاً من هؤلاء يتناول أجراً معلوماً متفقاً عليه مقدماً عن عمله ووقته

مدير المصنع الذي يتناول ثلاثين ألف فرنك فى السنة أجير كالعامل الصغير الذى يتنـاول فرنكين فى اليوم فالأجور تتفاوت بتفاوت الأعمال التى يؤديها الأجير

والأجور تختلف باختلاف الاشخاص والأزمنة والأمكنة ، فمنذ سنوات قلائل كان الفاعل يشتغل بثلاثة قروش فى اليوم وهو الآن يشتغل بخمسة أو ستة قروش . ثم ان الفاعل فى القاهرة يتناول أجراً اكبر من أجر مثله في القرى . وهكذا تختلف الاجور بحسب الصفات الشخصية للعامل كأن يكون ذكراً او انثى ، والعمر والقوة البدنية والمهارة الفنية والتمرين على العمل والسلوك والأخلاق (قيمة كل امرئ ما يحسنه)

فالأجرة لا تعطى للعامل لأنه يشتغل فقط بل على نسبة الفائدة من عمله .

وهناك أسباب أخرى تختلف باختلافها أجور العمال منها كثرة العمال ووفرة رأس المال أو قلته ، فكلما كثر العمال قلّت الأجور اتباعاً لقاعدة العرض والطلب لأننا نعلم ان الأجور تدفع عادة من رأس المال ولو تأملنا فى الحقيقة لوجدنا ان رأس المال كله مصروف فى أجور العمال تقريباً

وفى الواقع فان بناء المنزل يتركب من أجور الفعلة وثمن المواد — والمواد تتركب من خشب أو حجار وكلها صُنعت بأيدى عمال دُفعت لهم أجورهم .

وفى المدن الكبيرة تكون أجور العمال اكثر منها فى بلاد الارياف نظراً لوجود رؤوس الأموال بكثرة فى المدن الكبيرة

« ٣ — فائدة رأس المال »

من العدل ان يكون لرأس المال أجر .

أجر رأس المال هو الفائدة .

اذا كان المال ضروريًّا ومفيداً لايجاد الثروة ، فمن العدل أن يكون له نصيب من الربح كما يدفع للعامل أجراً على الخدمة التى يؤديها .

فائدة رأس المال من الضرورات ، لأنهُ اذا أمكن الحصول على اقتراض مركبة أو محراث أو نقود من صديق ، فان ذلك لا يتيسر لكل شيء وفى كل وقت لأن كل انسان انما يعيش من شغله ودخله وليس من الممكن أن يعطى كل النـاس رأس مالهم وأوقاتهم مجاناً بلا عوض .

اذاً من الضرورى ومن العدل أن يكون لرأس المال مكافأة .

وتختلف هذه المكافأة حسب الاتفاق بين صاحب رأس المال وصاحب العمل .

مكافأة رأس المال أو نصيبه من الثروة يسمى فائدة . فالفائدة هى أجر رأس المال .

ومعدل الفائدة كمعدل الأجور ، يختلف باختلاف الظروف ، وعلى العموم تكون الفائدة عظيمة كلما كانت رؤوس الاموال قليلة ومطلوبة بكثرة ، أو عرضة للضياع عند تسليفها . وبالعكس تكون الفائدة قليلة متى كانت رؤوس الأموال كثيرة أو غير مطلوبة ، أو مؤمناً عليها بضمانات قوية عند تسليفها .

« ٤ — التوفير وتكوين رأس مال »

العمل الذى هو موجد الثروة ، والتوفير الذى هو الحافظ لها مبدآن من المبادىء الضرورية للوصول الى الغنى واليسار سواء كان للأفراد أو المجاميع .

التوفير هو المصدر الأول لايجاد رأس المال .

اذا فرضنا رجلين ، كل منهما يشتغل بعشرة قروش فى اليوم ، أحدهما مقتصد لا يصرف فى يومه اكثر من سبعـــة قروش ويبقى ثلاثة لأيام المرض أو البؤس أو الغلاء ، والآخر يصرف كل مكسبه غير حاسب لأيام العسر حساباً ، لا شك أن الأول متبصر والآخر جهول غير بصير .

حال الرجل الاخير هى حال الفلاح فى مصر ويا للأسف. تجد الفلاح اذا أنتجت زراعته محصولاً وافراً فى سنة من السنين ثمل بخمرة الفرح وصرف ثمن محصوله فيما لا ينفعهُ في الغالبِ، أعنى فى الأمور الترف واللهو، غير حاسب للسنة المقبلة حساباً. وآفات الزراعة كثيرة كالشرق والغرق ودودة القطن والجراد وحريق الأجران وانخفاض الأسعار وكساد الأسواق والأمراض التى قد تعتريه أو تعترى أولاده، ونحو ذلك مما يجب على العاقل أن يجعله نُصب عينيه.

ولا أعجب من شيء عجبى من ذلك الجاهل الذى يستدين بالأرباح على محصول أرضهِ. على أن الفرق بين الناتجين كالفرق بين متواليتين أحداهما هندسية والاخرى عددية أساسهما واحد، هيهات ان تلحق الثانية الأولى.

وعندى أن الغنى من أيسر الأمور فى الدنيا وطريقه الوحيد هو الاقتصاد قال تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً).

« ٥ — صناديق التوفير »

صندوق التوفير هو مصرف لايداع المبالغ الصغيرة التى يقتصدها الافراد من مكاسبهم.

أن الرجل الواسع الارزاق لا يحتاج للاقتصاد لأنهُ لا يصرف

كل أرزاقه طبعاً ومع ذلك فان لاقتصاده أو زيادة دخله عن مصروفهِ فائدتين : الأولى لنفسه اذ مهما كان غنى الانسان فانهُ لا يأمن أزمان الشدة وأيام الازمات المالية ، والثانية للهيئات الاجتماعية التى تنتفع عادة من وفرة رؤوس الاموال على كل حال وهى لا تكون الاّ من التوفير والاقتصاد عند الغنى والفقير .

أنشئت صناديق التوفير بانكلترا فى أواخل القرن الثامن عشر وفى فرنسا سنة ١٨١٨ وانتشرت بعد سنة ١٨٣٥ حيث ظهر أول قانون وضع لنظامها .

وصندوق التوفير الأهلى أسس فى سنة ١٨٨١ ووجد فيهِ حينذاك ٣٠ مليوناً من الفرنكات بلغت فى سنة ١٩٠٢ الى أربعة مليارات ، بتسعة ملايين دفتر . هذا مقدار لا يستهـان بهِ تكوّن من دفع مقادير صغيرة من فرنك واحد الى (١٥٠٠) فرنك على حـد المثل الفرنسى المشهور (النهيرات الصغيرة تكوّن الانهار الكبيرة)

وفى سنة ١٨٧٤ تأسست صناديق توفير مدرسية (لكل مدرسة) وكلما تكوّن للتلميذ فرنك واحد يرسل لصندوق التوفير العام ويعطى التلميذ دفتراً لقيد حسابه .

« نظام صناديق التوفير فى مصر »

أنشىء صندوق التوفير فى أول مارس سنة ١٩٠١

وكلاء البريد مكلفون بأعمال صناديق التوفير فى كل بندر تقريباً ، وقد كلف صيارف الاموال المقررة بأعمال صندوق توفير مصلحة البريد الصادر عنهُ الامر العالى فى ١٤ فبراير سنة ١٩١٢ وذلك ابتداءً من أول ابريل سنة ١٩١٢

يعطى للمودع دفتر يسمى (دفتر التوفير) يثبت بهِ حسابه المدفوع والمسترد .

كيفية الدفع لصناديق التوفير .

(١) تقبل مصلحة البريد فتح حساب لكل شخص من ٥٠ مليماً الى ٥٠ جنيهاً فى السنة الواحدة بحيث أن مجموع حسابه بالصندوق فى أربع سنوات لا يزيد عن ٢٠٠ جنيه

(٢) تقبل الصيارف فتح حساب لكل شخص من ١٠ مليمات الى ٥٠ جنيهاً فى السنة الواحدة والى ٢٠٠ جنيه فى أربع سنوات .

(٣) يراعى فى الدفع عدم قبول كسور القرش . مثلاً اذا دفع شخص جنيهاً انجليزيًّا أى ٩٧٥ مليماً الزم بتكميله الى ٩٨٠ مليماً أو رد اليهِ ٥ مليمات ليكون المدفوع ٩٧٠ مليماً .

(٤) وضعت تذكرة (تذكرة توفير للأحداث) تلصق بها طوابع بوسطة الى أن تبلغ قيمتها ٥٠ مليماً ، وفى هذه الحالة يستخرج لصاحبها دفتر توفير اذا لم يكن له حساب ، أو تضاف الى حسابه كأنها نقود مدفوعة .

(٥) تعطى مكافأة عما يدفع الى الصندوق باعتبار ثلاثة فى المائة سنويًّا

« كيفية الاسترداد »

(١) كل صاحب حساب فى الصندوق له الحق فى استرداد كل ما دفعه أو جزء منه حسب طلبه فى أى وقت يريده

(٢) مصرّح لوكلاء البريد وللصيارف ان يصرفوا ما يطلب أصحاب الدفاتر استرداده فى أى ساعة من ساعات النهار والمقدار المصرّح باسترداده للطالب بدون استئذان عموم مصلحة البريد يجب ألا يزيد عن ٥ جنيهات فى أقاليم الوجه البحرى والأقاليم الواقعة بحرى اسيوط وعشرة جنيهات فى اسيوط والأقاليم التى تليها جنوباً وما كان اكثر من ذلك وجب أن يؤخذ به تصريح من عموم البوستة وفى الأحوال المستعجلة بمكاتب البريد يكون طلب الاستئذان تلغرافياً

(٣) أما فى الأحوال المستعجلة بالبلاد فيمكن للمودع أن يسترد من الصيارف مقدار ٣٠ جنيهاً وذلك بتصديق العمدة بدون انتظار التصريح من مصلحة البريد

« مزايا صندوق التوفير »

(١) أن يأمن الانسان على ما يدفعه لأنه بضمانة الحكومة وهى مسئولة عما يودع به

(٢) ان أمواله فى الصندوق لا يجوز الحجز عليها مطلقاً لا من المحاكم المختلطة ولا الأهلية ولا تستطيع الحكومة نفسها أن تأخذها بدل الضرائب الرسمية

الباب الرابع

نظام العمل

« ١ — تقسيم العمل والتعاون »

التعاون وتقسيم العمل يضاعفان قوة رجال الأعمال مضاعفة كبرى ولا يكون تقسيم العمل عظيماً الاّ بتقدُّم العلم . ووفرة رأس المال وغنى البلاد

فاذا أريد بناء منزل ، لزم اشتراك جملة اشخاص في بنائه : وهم البنّاء والفاعل والنجّار والحجّار والجيّار والحدّاد والسبّاك والمبلّط والنقّاش وغيرهم ، لأنهُ لا يتسنى لرجل واحد ، مهما كانت مقدرته ، أن يقوم بذلك منفرداً ، ولو قام به لاستلزم سنوات طوالاً حتى يتم بناء المنزل ، هذا ما يسمونهُ بالتعاون ، أعني تعاون الافراد للقيام بشؤون الحياة التي لا تحصى .

وقس على ذلك جميع الأعمال صغيرها وكبيرها . فبالتعاون يحصل الانسان على ما لا يمكنهُ الحصول عليهِ منفرداً .

كيف يعيش الانسان في مدينة لو لم يكن فيها الجزّار والخبّاز

والخيّاط ، وباقى الصنّاع الذين يقضون ما تنوّع من حاجات الانسان

ولتقسيم العمل مزايا كبرى فانه فضلاً عن توفير الزمن يمكّن كل انسان من اتقان صناعة يميل اليها ، وعنده استعداد فطرى لها

فالتعاون معناه أن يبيع كل انسان لغيره الصناعة التى تعلّمها وأتقنها ، فيحصل الانسان دائماً على كل ما يشتهيه من أجود صناعة و بأقل ثمن .

« ٢ — حرية العمل والمنافسة »

حق الشغل من أقدس حقوق الانسان

ولاستعمال هذا الحق وُضع نظام حرية العمل

والمنافسة التى هى أحدى نتائج حرية العمل من أهمّ أسباب رقىّ الصناعة ووفرتها ورخص البضائع

كانت للصنائع الى سنة ١٧٩١ بفرنسا طوائف ، وكل طائفة لها نظامات وقيود عاقت تقدُّمها زمناً طويلاً . ثم أُطلقت من تلك الاغلال ، وأعلنت (حرية العمل) بقرار من الجمعية الدستورية ، وأصبح العامل يشتغل أينما شاء ، وكيفما شاء ، لا يربطه الاَّ اتفاق قانونى عقده طائعاً مختاراً ، ينتقل من صناعة رغب عنهـا الى أخرى يرغب فيها ، بلا أقل عناء أو شروط تقف فى طريقهِ .

ومن مزايا حرية العمل ايجاد المخترعات ، وتشجيع الصناع على الاختراع الذى هو أهمّ عوامل التقدُّم والارتقاء ، لأن حرية العمل تسهل تقسيمه ، ومتى كانت الصناعات موزعة اشتغل كل فرد بما استعد وهيئ له بأصل فطرته وميله الغريزى ، وهــذا هو السبيل الوحيد للاختراع

والمنافسة هى تزاحم أهل الصناعة الواحدة فى تقديم مصنوعاتهم للناس ، فيضطرون الى اتقان صناعتهم ، وتخفيض أثمانها لزيادة الرغبة فيها والاقبال عليها ، فيكون من وراء ذلك منفعة للافراد ، وهى الحصول على حاجاتهم بأقل ثمن ومن أجود الاصناف

يشكو بعض التجار فعل المنافسة ، ويودون لو تكون التجارة احتكاراً . ولكن الناس يرونها خيراً وبراً بهم . والاّ بأى حق يشكو تاجر الانسجة فى بلد اذا زاحمه ثان وباع نفس الانسجة بأقلّ مما يبيع بهِ التاجر الأول ؟ لا شك ان فى ذلك منافع للناس كثيرة . والاحتكار ضد المنافسة . ويجب منعه بتاتاً

وللاحتكار ضرورات أحياناً . مثل احتكار انشاء السكك الحديدية ، لأنهُ لا يجوز ترك القطارات تسير على الخطوط الحديدية كما تسير المركبات والدواب . وللاحتكار أيضاً ظروف تبرره وان لم تكن ضرورية . مثل احتكار التبغ فان للحكومة منه مورداً عظيماً ولولاه لضربت الضريبة التى تجبى منهُ على اشياء ضرورية للمعيشة ، مع انه هو ليس من الضروريات

« ٣ — الشركات »

الشركات — هى ان يجتمع جملة اشخاص أو كمية من رؤوس الأموال للتعاون على اتمام مشروع من المشاريع اجتماعاً يزيد قوتهم المنتجة ومركزهم الاجتماعى

حرية العمل جعلته على اشكال مختلفة ، فان رجال الأعمال يمكنهم أن يشتغلوا منفردين ، أو مشتركين ، أو يستأجروا غيرهم ليشتغلوا تحت ارادتهم

مبدأ اباحة الشركات يتفق تماماً مع مبدأ حرية العمل ، أما الامتياز والاحتكار فانهما لا يتفقان معه ، لأن الشركات هى اجتماع جملة أشخاص او كمية من رؤوس الاموال كما قلنا يدفعها جملة أشخاص للقيام بمشروع تجارى . وللشركات أهمية كبرى فى النظام الاجتماعى ، والرقى الاقتصادى ، لأن اجتماع أرباب رؤوس الأموال مع أرباب الصناعات المختلفة يسهل كثيراً اخراج المشاريع الجسيمة ، فى أسرع وقت ، وبأقل نفقة . مثال ذلك شركات السكك الحديدية ، وشركات الترامواى ، والمياه ، والنور الكهربائى

أي فرد يمكنه أن يقوم بنفقات انشاء شركة كشركة الترامواى مثلاً ؟ ولكن جمع رأس مالها بواسطة الاكتتاب وبيع الاسهم والسندات التى أصدرتها ادارة الشركة أخرج المشروع فى أقل من

سنة واحدة . حينما شرعت فرنسا فى انشاء السكك الحديدية لزمها ثلاثة عشر ملياراً من الفرنكات — فلم يوجد طبعاً غنىّ فى استطاعته تقديم هذا المقدار الجسيم . ولو وجد بالمصادفة لما جسر مهما كان غناه ، ان يخاطر بجميع أمواله فى مشروع واحد . فلذلك فكروا فى ايجاد الشركات المساهمة . لأن فى مثل هذه الشركات ، لا يكون المساهمون مسئولين عن المشروع بضمانة أموالهم الخصوصية ، وانما مجلس الادارة ومدير الشركة هما المسئولان بضمانة الاموال المكتتب بها فقط .

وفى هذه الشركات يقسم رأس المال الى حصص بعدد عظيم جداً وكلها أجزاء متساوية ذات قيمة واحدة يسمونها (أسهماً) .

فاذا أريد جمع مقـدار خمسمائة مليون من الفرنكات أخرجوا مليوناً من الاسهم ، كل سهم بخمسمائة فرنك ، وفى نهـاية كل عام تقسم الارباح على أصحاب الاسهم قسمة مناسبة .

وشركات المساهمة من أكبر العوامل لاخراج المشاريع الكبرى كالسكك الحديدية ، والقنوات (القنالات) البحرية ، والمعـامل ، والمصارف المالية (البنوك) ، ويدخل فى ذلك شركات التعاون والنقابات الزراعية وغيرها .

الباب الخامس

تداول الثروة

« ١ — المقايضة »

المقايضة هى اعطاء صنف من الثروة وأخذ صنف آخر عوضاً عنه باتفاق يتم بين البائع والمشترى .

وقد كانت المقايضة هى أساس التعامل فى القرون الاولى قبل اختراع النقود وكانت تعرض فى الاسواق جميع الأصناف فيتناول الناس حاجاتهم بعضهم من بعض .

لكن فى هذه الايام التى فيها الحاجات كثيرة ومتنوعة ومبدأ تقسيم العمل قد جعل الصناعات مشتتة بين أيدى الصناع ، أصبح الانسان لا يتيسر له بل يستحيل عليه قضاء حاجاته بالمقايضة ولذلك اخترعوا النقود ، وأصبحت هى عامل المقايضة الوحيد .

فالعامل الذى يشتغل بخمسة قروش فى اليوم ، عمله هذا مقايضة لأنه يعطى عمله ويأخذ أجره ، والمستأجر الذى يدفع أجر المنزل أو الأرض، عمله هذا مقايضة، لأنهُ يدفع نقوده مقابل انتفاعه بالمنزل او

الأرض ، والأم التى تدفع للطبيب الذى عالج ولدها أجره ، عملها هذا مقايضة ، لأنها تدفع نقودها للخدمة التى أدّاها الطبيب .

والمقايضة غالباً تكون بين شخصين بائع ومشترٍ ، فهى اذاً عمل تجارى ذو وجهتين بيع وشراء ، به تنتقل الثروة من مالك لمالك آخر ، وهذا ما يعبر عنه بتبادل الثروة .

« ٢ — النقود والثمن »

الثمن هو قيمة الشئ مقدراً بالنقود

والنقود هى العامل المشترك للقيم المختلفة والعيار العام لجميع المقايضات .

والمعادن النفيسة فيها دون غيرها الصفات المطلوبة لتكون نقوداً جيدة .

بعد اختراع النقود ، لم نعد نسمع أن بقرة تساوى حمارين ، أو أن أردب قمح يساوى أردبا ونصفاً ذره ، او ثوباً يساوى عشرين دجاجة ، بل المسموع الآن ان البقرة تساوى عشرة جنيهات ، والأردب القمح يساوى مائة وخمسين قرشاً ، وهكذا .

فبالنقود الآن تقارن البضائع والخدم أعنى يعبر بها عن القيم المختلفة

قيمة الشئ بالنقد تسمى ثمناً .

مما تقدم تعلم السهولة التى أوجدتها النقود فى التعامل حتى يمكن

القول بأنها (حياة التجارة) .

بما ان قيمة النقود ثابتة لا تتغير بتغير السوق ، فهى ذات المزية الكبرى فى جعل القيم قابلة للمقارنة بسهولة .

نجد فى علم الحساب أن كل كميتين تساويان كمية ثالثة تكونان متساويتين اى اننا اذا قلنا ان طربوشاً يساوى عشرين قرشاً ، وأربع دجاجات تساوى عشرين قرشاً كان الطربوش يساوى أربع دجاجات

النقود سهلت المقارنات بين الاشياء ، حتى التى لا ارتباط بينها . مثلاً أية علاقة فى القيمة بين ثمن كسوة (بدلة) ورحلة بين الاسكندرية ومرسيليا ؟

أن المقارنة فى هذه الحالة سهلة جداً باستعمال النقود : فاذا اعتبرنا أن الكسوة تساوى ثلاثة جنيهات ونفقات الرحلة بين هاتين المدينتين تساوى ستة ، فلا حرج علينا اذا قلنا ان قيمة الرحلة بينهما تساوى كسوتين (بدلتين) ، ولذلك قلنا ان النقود هى العامل المشترك بين القيم المختلفة .

يظن بعضهم أن الحكومات تضع قاعدة النقود باختيارها كما تشاء وهذا الظن خطأ محض لأن النقود لم تخرج عن دائرة القوانين العامة للمقايضة .

فالنقود يجب ان تكون فى حد ذاتها ذات قيمة مساوية لقيمة الشيء المشترى بها .

فاذا قيل ان سمكة تساوى عشرة قروش كان معناه أن عشرة القروش حقيقة ذات قيمة تساوى قيمة السمكة .

مما تقدَّم ، يعلم انهُ لا يمكن ضرب نقود من معادن ليس لها قيمة حقيقية ، أو ان قيمتها لا يعتد بها ، ولذلك بحثوا عن معادن ذات قيمة ، سهلة الحمل ، فاتفقت جميع الأمم المتمدينة على اختيار الذهب والفضة وهما من المعادن النفيسة ، والكمية القليلة منها ذات قيمة عالية بخلاف ما لو ضربت النقود من الحديد كما فعل أهل اسپارطه فى القرون الأولى من تاريخ اليونان ، فان الرجل اذا اضطرَّ لشراء شئ يساوى جنيهاً أو اثنين لزمتهُ (مركبة) لحمل النقود ، عوضاً عن كيس جلد لطيف يحفظ بالجيب .

وللمعادن النفيسة كذلك خواص تجعل الرغبة فيها عظيمة وهي الصلابة وعدم التغيير مع الزمن أو تتغير ولو قليلاً فتصهر وتشكل بالاشكال المرغوبة قطعاً قطعاً ذات قيم محدودة ، وقاعدة النقود بمصر سهلة فالسكة الذهبية الجنيه المصرى وقيمته ص ١٠٠ ونصف الجنيه وقيمته ض ٥٠ والسكة الفضية هى الريال وقيمته ص ٢٠ والقطعـة ذات عشرة القروش وذات خمسة القروش والقرش الواحد .

والنيكل والبرنز يضرب منهما أجزاء القرش الواحد .

والنقود الذهبية لها قيم حقيقية لا تنقص عما اذا كانت سبائك الاَّ قليلاً ، نظراً لضرورة ادخال بعض معادن بكمية صغيرة جدًّا على

الذهب والفضة لكى يكونا ذوى صلابة تقوم حركة المعاملات بها .

أما النقود الفضية فلها قيمة أقلّ من قيمتها الحقيقية ولا ضرر من ضربها كذلك ، لأنها ذات قيمة قليلة فى حد ذاتها وضربها على هذا العيار الآن يمنع تداولها خارج القطر فتحفظ النقود الفضية داخل البلاد ولا تخفى أهمية ذلك .

ولتقليل المضار التى تلحق الأفراد منها من الوجهة المالية منعت قوانين الحكومة أن يجبر أحد على استلام نقود فضيــة من احدى خزائن الحكومة أو صيارفها بأكثر من جنيهين مصريين .

« ٣ — التسليف والمصارف المالية (البنوك) »

تسليف النقود أو الأعمال من أهم العوامل المسهلة لتداول الثروة .

والبنوك هى مصارف مالية لتسليف النقود . فالسلفة هى مقدار يدفع للكاسب لتسهيل تداول كافة أنواع الكسب (محصولاً او مصنوعات) .

فالعــامل الذي يقبض أجرته كل خمسة عشر يوماً يضطر لأن يشترى من الخباز آجلاً ما يحتاج اليهِ من الخبز كل يوم ويدفع اليهِ مطلوبه كل خمسة عشر يوماً وذلك لأنهُ لا يستطيع ان يدفع كل يوم .

ينقد بعض الاقتصاديين هذا النوع من التسليف اعتماداً على ان الرجل الذى يأخذ حاجاته آجلاً لا يقتصر على الضرورى له بل يتوسع فى مطالبه الى ان يحرج نفسه فى النهاية و يعجز عن ايفاء دينه ، وحقاً انها نظرية مشاهدة بالعيان ومعلومة بالتجربة .

العامل يسلف كذلك عمله لصاحب المعمل انتظاراً ليوم دفع الاجور لأنهُ لو كلف صاحب المعمل أن يدفع كل يوم أجور عماله لكان فى ذلك تحميله مشقة تزيد ادارته صعوبة .

الكاسب الماهر اذا لم يكن لديه رأس مال لا يمكنهُ تحسين حالتهِ ، فاذا وجد من يقرضه مقداراً من المال أمكنهُ التوسع فى عمله حسب مقدرته فتزيد مكاسبه فيدفع دينه ويرقى بالباقى حالته وعمله فالاقتراض اذا كان بقصد ايجاد الثروة وليس الغرض منه الصرف فى الشئون الشخصية كان نافعاً ومفيداً ولا ينال صغار العمال منهُ ضرر ما

فاذا فرضنا ان تاجراً كبيراً لديه بضائع بمقدار مائة ألف فرنك يمكنه تصريفها فى سنة واحدة ثم يشترى غيرها بعد ان يكسب منها ١٥٠٠٠ فرنك وأراد أن يستعمل مبدأ السلفة فأعطى ما عنده من البضائع لمعامليهِ سلفاً بسند على ان يدفعوا له ثمنها بعد مضى ثلاثة أشهر من تسليمها فالتسهيل الذى عمله التاجر لمعامليه سمح له بتصريف بضائع بمقدار ١٠٠ ألف فرنك اثناء ثلاثة أشهر

والوعد بالدفع الذي يحصل عادة بصيغ مختلفة حسب الأحوال

يسمى (أوراقاً تجارية) تكون بالنسبة للمشترى تعهداً بالدفع وللبائع ضمانة لاسترجاع دينه . وهذا التاجر يمكنه بالطريقة عينها أن يطلب من المحال التى يتعامل معها بضائع أخرى اما بتعهده بدفع قيمتها بعد مضى ثلاثة أشهر واما ان يحوّل اليها ما بيده من الأوراق التجارية المأخوذة على معامليه وبهذه الطريقة يمكنهُ أن يصرّف بضائع بمقدار ٤٠٠ ألف فرنك فى السنة أى أربعة أضعاف بضاعته الأولى فاذا اكتفى بربح ١٠ في المائة بدلاً من ١٥ رأفة بمعامليهِ كان مكسبهُ فى العام ٤٠ ألف فرنك عوضاً عن ١٥ ألفاً من الفرنكات . ومما تقدم يعلم ان السلفة عامل مهم فى تداول الثروة بسرعة وهمة .

وأساس نجاح التسليف الأمانة التى يجب أن يتصف بها التجار والاّ امتنع أرباب رؤوس الأموال عن التسليف فتقف حركة الأعمال .

والتسليف يحتاج أيضاً لفضيلة التبصر لأن التاجر الذى يستلف لآجال قصيرة ليشترى بضائع ثم يبيعها لآجال طويلة أو بأثمان بخسة لا شك أنه يقع فى الافلاس المعيب .

ولما كانت السلف نافعة ومفيدة كانت المصارف المالية التى من وظيفتها التسليف نافعة ومفيدة أيضاً لايجاد الثروة . فالمصارف المالية تقبل الأمانات والودائع التى تسلم اليهــا وتدفع عنها أرباحاً سنوية لأربابها . ثم هى تسلف تلك الودائع لآخرين ، وتأخذ منهم أرباحاً سنوية ، وتشترى الأوراق التجارية فتدفع قيمتها مقدماً بعد خصم

مقدار زهيد من قيمتها (الحطيطة) لانتظار حلول ميعاد دفعها ، وامثال هذه من الاعمال التى تسهل الحركة الاقتصادية والتجارية .

والبنك الأهلى المصرى هو الوحيد المخوّل له دون أمثاله حق اصدار أوراق مالية تعرف (بالبنكنوت) تتداول فى أيدى الناس كما تتداول النقود الذهبية . وهذه الأوراق بقيم مختلفة : —

١٠٠ جنيه ٥٠ جنيه ١٠ جنيه ٥ جنيه وجنيه ونصف جنيه

وطريقة اصدار هذه الأوراق مأخوذة عن طريقة بنك انكلترا المعروف (ببنك البنوك) مع بعض تعديلات

يحفظ البنك فى خزائنه نصف قيمتها ذهباً . أما باقي التأمينات فهي ضمان الحكومة المصرية بوسائل أقرتها عند تأسيس البنك لاطمئنان الجمهور .

ولهذه الأوراق فى ادارة البنك قسم خاص يراقبه مندوبان من قبل الحكومة .

وتبلغ قيمة الأوراق المتداولة اكثر من مليونى جنيه مصرى ويُصدر البنك فى كل شهر احصاء خاصاً بحساب الأوراق المتداولة لتعلم حركتها .

« ٤ — طرق المواصلات »

طرق المواصلات المنتظمة من أهم أسباب تقدم التجارة

كانت المواصلات قبل الآن بين القاهرة والاسكندرية أو القاهرة والصعيد كلها بالسفن الشراعية والجمال والدواب ، وكان ذلك من اكبر أسباب كساد التجارة ، وموات الزراعة ، وكسل الأهالى فلما أنشئت السكك الحديدية سهلت المواصلات ، فراجت التجارة وأقبل الناس على الزراعة ايما اقبال ، ودبت فيهم روح العمل ، وكثر الأخذ والعطاء فكان هذا الرقى الاقتصادى الذى نشاهده الآن .

حَفْر قناة السويس وفَتْحها للملاحة كان سبباً فى انقلاب اقتصادى كبير ، جعل لمصر أهمية عظمى ، فنقلت محاصيل الشرق الأقصى الى أوروبا ، ومصنوعات أوروبا الى أسواق الشرق الأقصى .

نعم أن نفقات هذه المشاريع عظيمة ، الاّ انها أفادت الحركة التجارية ، وكان وراء ذلك أرباح عظيمة جدًّا قامت بنفقات العمل فى زمن قليل .

« ٥ — التجارة »

تداول الثروة بواسطة التجارة ، عليهِ مدار الحياة الاقتصادية للأمم وبه تزداد رفاهية الأفراد .

تجارة الأمة عبارة عن مجموع المقايضات التى تحصل فى بضائعها .

وتستعمل طرق المواصلات لنقل البضائع والنقود

وأوراق البنك والتسليف للمقايضة .

التاجر كذلك كاسب كالصانع ، وهو كاسب مفيد أيضاً ، لأن عمله هو استجلاب البضائع أو المحاصيل من البلاد التى تكثر فيها ، الى البلاد التى تحتاج اليها ، أو حفظها الى الوقت الذى يحتاج فيه اليها

كثير من المحاصيل قد تكون له قيمة قليلة أو لا تكون له قيمة بالمرة فى البلاد التى نبت فيها ، ولكنه اذا نقل الى بلاد أخرى كان ذا قيمة ، فالربح الذى يكتسبه التاجر فى مثل هذه الأحوال ، ربح حلال فى مقابلة نفقاته ومتاعبه

والتجارة نوعان : تجارة داخلية ، وتجارة خارجية ، الأولى عبارة عن التجارة المتداولة بين الناس داخل المملكة ، والثانية عبارة عن التجارة المتداولة بين المملكة والممالك الأخرى . والخارجية قسمان : صادرات وواردات ، ويمكن حصرها من احصاء الجمارك . أما الداخلية فلا يمكن حصرها على الدوام . الأمم الكبيرة تكون تجارتها الداخلية أهم بكثير من تجارتها الخارجية . وقد بلغت التجارة الخارجية فى فرنسا سنة ١٩٠٥ أحد عشر ملياراً من الفرنكات

أما تجارة مصر الخارجية فتعلم من الجدول الآتى

	الواردات	الصادرات	المجموع
سنة ١٨٩٦	٩,٨٢٩,٠٠٠	١٣,٤٤٢,٠٠٠	٢٣,٢٧١,٠٠٠
« ١٩٠٠	١٤,١١٢,٠٠٠	١٧,١٢٤,٠٠٠	٣١,٢٣٦,٠٠٠

	الواردات	الصادرات	المجموع
سنة ١٩٠٥	٢١,٥٦٤,٠٠٠	٢٠,٣٦٠,٠٠٠	٤٨,٩٢٤,٠٠٠
« ١٩٠٦	٢٤,٠١١,٠٠٠	٢٤,٩٧٧,٠٠٠	٤٨,٨٨٨,٠٠٠
« ١٩١٠	٢٣,٥٥٣,٠٠٠	٢٨,٩٤٤,٠٠٠	٥٢,٤٩٧,٠٠٠
« ١٩١١	٢٧,٢٢٧,٠٠٠	٢٨,٥٩٩,٠٠٠	٥٥,٨٢٦,٠٠٠

« حركة النقود »

	الوارد	الصادر
سنة ١٩١٠	١٢,٩٦٤,٠٠٠ ج . م	٧,٠٤٦,٠٠٠ ج . م
« ١٩١١	٧,٢٤٢,٠٠٠ «	٧,١٣٢,٠٠٠ «

يشاهد ان وارد النقود فى سنة ١٩١٠ كان عظيماً لأن محصول القطن فيها كان عظيماً ايضاً فقد قدر ثمنه بمبلغ ٣٥,٨٤٠,٠٠٠ ج . م وهو ثمن أعظم محصول فى السنين الماضية

ولأجل معرفة فضل التجارة فى رفاهة الافراد ، يكفى النظر الى حاجات الانسان الصغيرة ، فيرى أنها من واردات القارات الخمس فى المعمورة .

« حرية التجارة »

حرية التجارة : هى ترك موانى المملكة مفتوحة لخروج الصناعات

الوطنية ، ودخول الصناعات الأجنبية ، بلا قيد ولا شرط سوى دفع الرسوم الجمركية العادية .

أتى على رجال الاقتصاد حين من الدهر ، كانوا يرون أفضلية حماية الصنائع الوطنية لاحيائها أو ترويجها بضرب ضرائب على الصنائع الأجنبية ، أو منح الأولى امتيازات خاصة . ثم بان لهم وجه الخطأ وعرفوا ان حماية المصنوعات الوطنية ، ومنع الصادرات الى الخارج ، وكل احتياط يقصد به محاربة حرية التجارة أفضى الى اضرار بينة ، وأخطار محققة . وفى الحقيقة ان أهم اسباب رواج البضاعة اتقانها لتجرف أمامها تيار كل منافسة .

مبدأ حماية التجارة لا يتفق مع المصلحة العامة ولا الخاصة للأفراد وقد يكون له بعض الفائدة ولكن ضرره اكبر من نفعه

لحرية التجارة مزايا منها :

(١) أنها تزيد فى رؤوس أموال الأفراد لأنهُ بزوال القيود التى توضع عادة لحماية التجارة ، يكون كل فرد حرًّا فى ابتياع ما يريد بالثمن الأقل ، سواء كان ذلك من الصنائع الوطنية أو الأجنبية

(٢) كل بلاد خصت بثروة طبيعية كما قدمنا ومن مصلحتها اشتغال أفرادها باستغلال ثروتها ، والانتفاع بكنوزها . فأن مصر خير لها أن يشتغل أهلها باستغلال أرضها ، واحياء مواتها ، والاتجار بمحاصيلها ، من اشتغالهم بالصنائع الأجنبية مثل عمل الآلات البخارية

مثلاً ، وترك متسع عظيم من الأراضى غير صالح للزراعة وهو لا يحتاج الاَّ لعناية أهل البلاد ، بينما صناعة الآلات تكلفهم استجلاب الحديد والفحم بأثمان عالية ونفقات طائلة ، ثم نجد الآلات المصنوعة خارجاً تباع بأقل منها ثمناً .

(٣) كل رسوم تضربها الحكومة على الواردات الأجنبية يضيفها التاجر الى ثمنها طبعاً — ومن ذلك يتضح أن الغرم يقع على رؤوس الأفراد لا على التاجر ، ويكون الضرر أشدّ اذا كانت البضائع من الحاجيات ، لأنها تمس الغنى والفقير .

(٤) مبدأ حماية التجارة يخص فئة من الأمة ، بمنحها امتيازاً خاصاً يساعدها على زيادة مكاسبها من خسارة الآخرين ، وهذا ليس من العدل . والاَّ فما هى حكمة الحجر على الافراد حتى لا يشتروا الا بضائع وطنية بثمن غال وفى الامكان الحصول عليها بثمن أقلّ وصناعة أجود .

وبالجملة فان حرية التجارة تؤدى دائماً الى انخفاض الاسعار ، وعليهِ مدار رغد المعيشة كما لا يخفى .

الباب السادس

استهلاك الثروة

« ١ — الاستهلاك »

كل ثروة قابلة للاستهلاك .

والاستهلاك ان كان بقصد الاستغلال (ايجاد الثروة) واستعمل بعقل وذكاء ، كان طريق الغنى واليسار . وان كان لشئون المعيشة وجب ان يكون فى الغاية من الاقتصاد . وان كان القصد منهُ الكمال وزاد عن الحاجة كان هاوية الدمار والافلاس .

كل ثروة معدة للاستهلاك اما فى الحال ، واما بالتدريج شيئاً فشيئاً . فأكل الخبز استهلاكه ، والمعنى الاقتصادى للاستهلاك (انتهاء المنفعة) أعنى الخاصية التى للدقيق المخبوز مع الماء والملح فى ايجاد المادة المغذية ، فالخبز ينعدم ولو أن المواد التى هو مكوَّن منها تحوَّلت الى شكل آخر بفعل الأكل والهضم .

المادة على العموم لا تنعدم أصلاً وكل ما يحصل هو تغير فى

شكل المادة ، فاشعال عيدان الكبريت هو اتلافها أو كما يقول علماء الاقتصاد استهلاك منفعتها أعني خاصية توليد النار ، ولكن يخطئ من يظن ان المادة انعدمت مع المنفعة ، لأن المادة الكبريتية والخشب انما تحولا بالاحتراق الى غازات تنتشر فى الجوّ وتبقى بهِ مدة ، حتى تتحوَّل بفعل الانبات ، وتعود الى خشب مرة أخرى . سنة الله فى خلقهِ ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

والآلة البخارية التى تشتغل منذ خمس عشرة سنة ، وأصلحت غير مرة ، لا شك أنها تستهلك شيئاً فشيئاً ، الى أن يبطل عملها ويستبدل بها غيرها . هذا معنى قولهم ان الاستهلاك اما فورى ، واما تدريجى .

قلنا ان الاستهلاك يختلف باختلاف الغرض المقصود . ومنهُ ما يعرف (بالاستهلاك المنتج) .

مثلاً صانع الانسجة الذى يشترى مائة قنطار من القطن لنسجها لا شك انهُ استهلك القطن ، ولكنهُ استهلاك منتج بقصد ايجاد ثروة أخرى . وقيمة القطن أضيفت الى مصروفات العمل ، وستؤخذ مع الثمن عند تصريف الانسجة فكأن الاستهلاك المنتج ، عبارة عن سلفة مقدمة لايجاد الثروة ، ومتى استعملت بعقل وذكاء ، حصل الغنى واليسار منها .

والاستهلاك (لشؤون المعيشة) ضرورى وشرعى بلا نزاع ، لأن الغرض من العمل وايجاد الثروة ، هو القيام بضرورات الحياة . وانما استهلاك الثروة فى شؤون المعيشة ، يختلف باختلاف مالية الاشخاص ، وعلى كل حال يجب ان يكون بنظام واقتصاد ، لأن الاسراف يذهب بالثروة بغير جدوى .

واستهلاك الثروة للترف (الكماليات) كشراء الحلى والجواهر ، واقتناء النفائس الأثرية ، والانفاق على الملاذ النفسية ، ان لم يكن باعتدال تام ووفق ثروة الشخص، فانهُ يؤدى الى الخراب والافلاس . واعتبر ذلك فيما جرى ويجرى تحت نظرك كل يوم ، لبعض ابناء السراة الذين ترك لهم آباؤهم مالاً جمًّا ، وأرضاً واسعة ، تغنى عشرات من الناس فيعيشون فى أرغد عيش ، وأتمّ سعـادة . ألقوا بأنفسهم فى مهاوى الملاذ ، بمصاحبتهم ذوى الاخلاق الفاسدة وأهل اللهو ، فأضاعوا ثروتهم ، فى لمح البصر ، وأصبحوا فى ضنك وعيش مرّ ، يترددون الآن على منازل ذويهم وأصحابهم ، سائلين العطف عليهم والبرّ بهم ، ولم يخطر ببال أحدهم حين سالمتهُ الليالى ، أن يفكر فى مستقبل أيامه ، فكان كالمنتحر الذى أضرَّ بنفسه وأسرته

« ٢ — الاستهلاك للوقاية من الأخطار »

هذا النوع من الاستهلاك من أهمّ الأمور التى يجب

ان تكون فى (ميزانية) الأسرات (العائلات) .

التبصر شعور شريف فى الانسان وهو احدى الفضائل النافعة لوجوده فى هذه الحياة الدنيا . فبهذه الفضيلة يوجد الانسان النظام فى حياتهِ ، وفى المجموع ، لأن التبصر كما يُعلّم الانسان التمسك بفضيلة الاقتصاد لمستقبل الأيام بحجز شىء من مكاسبهِ ، فانهُ يحضهُ كذلك على استهلاك شىء منها ، لوقاية شخصه وأمواله من كارثات الدهر .

فالرجل البصير يدفع لاحدى شركات التأمين كل سنة مقداراً زهيداً من المال ، اما للتأمين على حياتهِ ، واما للتأمين على منزل له ، خشية الحريق أو الزلازل أو الغرق ، فاذا ما وقع حادث قضى فيهِ على حياتهِ دفعت الشركة لورثته المال المتفق عليهِ فيعيشون فى رغد وهناء بينما غيره ممن أهمل هذا الاحتياط ، ولم ينظر فى العواقب ، يصبح ورثته بلا مال يدفعون بهِ غوائل الفقر .

وكذلك الرجل الذى يؤمن على منزله خشية الحريق فانهُ اذا شبت النار فى المدينة ، فأحرقت جملة منازل ، وأصبح أهلها بلا مأوى ولا ملجأ ، لا يهمهُ من الأمور شىء ، الاّ العمل لنجاة نفسه وأهله وجيرانه فقط ، لعلمه ان شركة التأمين ملزمة بدفع التعويض المتفق عليهِ ، ولا يلبث متى تسلمهُ ان يبنى خيراً من منزله الأول .

ولذلك قلما تجد عند الافرنج شخصاً بصيراً غير مؤمن على حياتهِ وأملاكه ، فكثير من الأنفس والمنازل والمعامل والمخازن والمحال

التجارية والسفن موءن عليها ، مقابل دفع مقادير زهيدة من المال لشركات التأمين .

اتفق ذات يوم ان شخصاً عُرض عليهِ أمر التأمين على حياته ، منذ خمس عشرة سنة ، ثم فكر فيهِ أخيراً ، حينما مرض مرضاً أنذره بقرب منيته ، فطلب من الشركة نفسها التأمين على مقدار ٤٠ ألف فرنك ، وطلبت منهُ أن يدفع سنويًّا ١٣١٢ فرنكاً فعارض بحجة ان الشركة طلبت منـهُ منذ خمس عشرة سنة ٨٨٣ فرنكاً لا غير ، فأجابت الشركة بأن القسط السنوى يزاد بتقدّم السن ، فكلما كان الطالب شاباً كان القسط قليلاً ، وكلما طعن فى السن زاد ، لأن موته أصبح قريب الاحتمال ، فلم يسعه الاّ ان عقد الاتفاق وبعد ثلاث سنوات توفى ، فدفعت الشركة لورثته ٤٠ ألف فرنك ، فحمدت زوجته وأولاده المولى جل شأنه على تبصر زوجها ، وقد كان خلواً من المال وكانت هى ضعيفة الثقة بفكرة التأمين .

فجميع العمال وأهل الصنائع ومن فى حكمهم ، اذا لم يتبصّروا ويحصّنوا مستقبلهم بالتوفير والتأمين ، فان مستقبلهم مظلم حالك . وكثيراً ما شوهد ان عدم التبصّر يفتك بطبقات العمال كما يفتك الوباء والجدرى ، فاذا رغب العمال فى التبصّر قلّت ويلاتهم ، ولم يبقَ فيهم للبوءس محل يعتد بهِ .

ومما تقدّم يعلم ان الهيئة الاجتماعية من مصلحتها انتشار روح

التبصّر ، وتشجيع العمال على النظر فى مستقبل الأيام ، كما يدفع مرض الجدرى بالتطعيم ، وذلك بواسطة انشاء صناديق التوفير ، وشركات التأمين . ولكن المدار على القوة الأدبيـة عند الأفراد (كالارادة والتبصّر وسائر الفضائل) ، لأن كل فرد يجب أن ينظر لمن هو أقلّ منهُ مالاً ، فيهنأ عيشه وتطيب حياته ، وما عليه الاّ الاقتصاد من ملاذه التى ليست من الضرورات للحياة .

فى فرنسا يعودون الأطفال الاقتصاد منذ نشأتهم . وقد أسسوا لهم صناديق التوفير المدرسية ، والتعاون المدرسى ، لكى يضمنوا لهم وسائل المعيشة فى الشيخوخة . فالتلميذ الذى يريد أن يحفظ لنفسه الحق فى الاستيلاء على معاش قدره فرنك كل يوم ، أعنى ٣٦٥ فرنكاً سنويًا بعد الخامسة والستين من عمره يدفع اسبوعياً كالآتى :

« قانون سنة ١٨٩١ »

عمر التلميذ	المبلغ المطلوب دفعه اسبوعياً ورأس المال غير محفوظ	المبلغ المطلوب دفعه اسبوعياً ورأس المال محفوظ
من ٣ سنوات	من ١٦ سنتيماً	من ٢٣ سنتيماً
« ١٠ «	« ٢٢ «	« ٣٢ «
« ١٥ «	« ٣٠ «	« ٤٥ «

رأس المال المحفوظ يدفع لأسرة صاحب التأمين عند وفاته ، أما غير المحفوظ فلا يردُّ اليها .

والطفل الذى يدفع عنـهُ مائة فرنك بحساب رأس المال غير المحفوظ يكون له الحق فى معاش طول حياته قدره ١٩٠ فرنكاً (بنسبة ٣٫٥ ٪ فى المائة) عند بلوغه الخامسة والستين من عمره ، اذا كان سنه وقت الدفع ثلاث سنوات .

والأطفال الذين عمرهم فوق ذلك ، يدفعون مقادير أزيد من ذلك بقليل. وكذلك الاشخاص الذين فى الثلاثين من عمرهم يمكنهم الحصول على معاش طول حياتهم قدره ١١٦ فرنكاً عنـد بلوغهم الخامسة والستين ، اذا دفعوا ١٠ فرنكات سنويًّا (لصندوق معاشات الشيوخ الأهلى) المؤسس بواسطة الحكومة .

أما جمعيات التعاون المؤسسة بواسطة الافراد فهى عديدة فى فرنسا ، وجميعها تحت مراقبة الحكومة ورعايتها ، وهى تضمن للمشتركين فيها العناية بهم اذا مرضوا ، كدفع أجر الأطباء وثمن الأدوية ودفع تعويض لا يتجاوز عادةً رزق ثلاثة أشهر . ويختلف من فرنك واحد الى فرنكين فى اليوم .

وكذلك تقوم بنفقات دفن الموتى منهم ، وتدفع أحياناً مكافآت لزوجاتهم . و بعض هذه الجمعيات تدفع (لصندوق معاشات الشيوخ) مقادير بقصد الحصول على مرتبات لأعضائها فى شيخوختهم والحكومة تمد يد المساعدة لهذه الجمعيات بدفع اعانة سنوية لصندوقها

والاشتراك فى مثل هذة الجمعيات ، يكون بدفع مقادير زهيدة من فرنك الى فرنكين شهريًّا .

والحكومة الفرنسية تبحث الآن فى تعميم (المعاشات) للعملة ، عند سِن الشيخوخة ، بواسطة تكليف العمال أنفسهم ، وأرباب المعامل والحكومة ، بدفع مقادير لصندوق معاشات الشيوخ .

« الضرائب وميزانية الحكومة »

الضرائب هى أموال تدفع باسم القانون ، بنسبة السكان ، وتخصص لنفقات الحكومة ، لكى تقوم بالشؤون العامة الموكولة لعهدتها ودفع الضرائب واجب على كل وطنى ، كما ان حسن التصرُّف فيها واجب على الحكومة .

تكلمنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، عن وظيفة الحكومة وواجبها ، ونظامها . ولا شك ان القيام بمثل هذه الشؤون يستدعى نفقات كثيرة ليتسنى توطيد الأمن ، وتأييد النظام ، واقامة العدل ، وتنظيم الجيش لحماية البلاد ، ونشر التعليم ، ومساعدة البائسين ، وحفر الترع ، وانشاء الجسور والقناطر والسدود ، وغير ذلك . هذا ما يعرف فى علم الاقتصاد (بالاستهلاك العام) ، وهو من نوع الاستهلاك المنتج للثروة ، لأن وظيفة الحكومة من الضرورات لحياة الافراد والمجاميع ولولاها لاختلّ النظام واعتدى القوى على الضعيف ، وعندها لا يوجد عمل ولا رأس مال ولا ثروة .

ودفع الضرائب واجب على الوطنى الصادق فى وطنيته ، لا يتخلى

عنهُ أو يسعى فى التخلص منه الاّ المارق الذى يريد أن يلقى على عاتق غيره ما يجب عليهِ .

والضرائب إما مقررة وهى ما يفرض على الأموال الثابتة . وإما غير مقررة وهى ما يفرض على مواد الاستهلاك الواردة والصادرة

أما واجب الحكومة نحو هذه الضرائب فهو .

أولاً — الاّ تجمع منها الاّ الضرورى

ثانياً — الاّ تنفقها الاّ فيما يعود بالمنفعة على المجموع

« ملخص (ميزانية) الحكومة المصرية لسنة ١٩١١ »

بلغ دخل الحكومة ١٦,٧٩٢,٧٥٠ جنيهاً مصرياً منها

جنيه	
٥,٢٠٥,٢٦٢	أموال أطيان وعشور النخيل
٣٢٢،٩١٢	عوائد الاملاك
٢,١٦٨,٧٧٩	الجمارك
١,٦٦٨,٥٦٨	الدخان والتمباك والسجاير
٣,٧٢٨,٨٩٤	السكك الحديدية
١٢٦,٩٦٦	التلغرافات
٣١٢,٣٣٣	البوستة

والباقى (ايرادات) متنوعة

وبلغت مصروفاتها ١٤٫٨٧٢٫٠٥٥ جنيهاً مصرياً منها

جنيه	
٢٨١٫٧٢٠	مخصصات ومرتبات الأسرة الخديوية
٤٫٩٦٣٫٠٠٨	مصروفات الادارة العمومية للحكومة
٢٫٤٦٠٫٦٨٨	« المصالح ذات الايرادات (السكك الحديدية والتلغرافات والبوستة)
٣٫٩٢٣٫٦٤٦	الدين العمومى
٦٦٥٫٠٤١	ويركو الاستانة

والباقى مصروفات متنوعة

فتكون زيادة الدخل على الخرج ١٫٩٢٠٫٦٩١ جنيهاً

اما ايرادات الحكومة فى الماضى فتعلم من البيان الآتى

٢٫١٤٣٫٠٠٠	جنيه	فى	سنة	١٨٥٢
٢٫١٥٤٫٠٠٠	»	»	»	١٨٦٠
٥٫٣٨٩٫٠٠٠	»	»	»	١٨٧٠
٨٫٥٦١٫٦٢٢	»	»	»	١٨٨٠
٩٫٥٠٠٫٠٠٠	»	»	»	١٨٩٠
١٠٫١٦٤٫٠٠٠	»	»	»	١٩٠٠
١٥٫٩٦٥٫٠٠٠	»	»	»	١٩١٠

الباب السابع

المشاريع الاقتصادية فى مصر

« ١ تكاثر سكان القطر المصرى »

ولى محمد على باشا ملك مصر وأهلها يزيدون عن مليونين من النفوس قليلاً والمعمور من الأراضى الزراعية ١,٩٥٦,٦٤٠ فداناً يدفع عنها من الأموال ٦٥٩,٧٠٧ جنيهات مصرية . وذلك من اختلال الأمن وسوء ادارة حكومة المماليك وترك الأوبئة ولا سيما الطاعون تفتك بأهالى القطر بلا مساعدة من الحكومة على مقاومتها أو تخفيف وطأتها مما يجرى اليوم فى جميع الحكومات المتمدينة

ولما استتبّ الأمن وتأيد النظام، زادت الأنفس واتسع المعمور شيئاً فشيئاً، وزاد بالتبعية دخل الحكومة وتيسر لها الشروع في الاعمال ذات المنافع العمومية كما يعلم من البيان الآتى :

السكان		المعمور بالفدان	
سنة ١٨٢١	٢,٥٣٦,٤٠٠	سنة ١٨١٣	١,٩٥٦,٦٤٠
« ١٨٤٦	٤,٤٧٦,٤٤٠	« ١٨٤٠	٣,٧٩١,٢٢٦
« ١٨٨٢	٦,٨٣٣,١٠١	« ١٨٧٤	٤,٦٢١,٨١٦
« ١٨٩٧	٩,٧٧٤,٤٠٥	« ١٩٠٣	٧,١٣٥,٠٧٢
« ١٩٠٧	١١,٢٨٧,٣٥٩		

قال (نابوليون بونابرت) اذا حكمت هذه البلاد (بلاد القطر المصرى) بحكومة منتظمة مثل حكومات فرنسا وايطاليا والنمسا وانكلترا زاد سكانها واتسع المعمور فيها اضعاف ما هما عليهِ اليوم

وحقًّا ان الحكومة الخديوية لم تألُ جهداً ولم تدخر وسعاً عن العمل لاستتباب الأمن وتمكين الراحة وهما أساس العمران ، وتحسين الأحوال الصحية كاصلاح مياه الشرب بالمدن بواسطة المشاريع البلدية، وبالقرى بتعميم استعمال الطلمبات الحبشية .

وليس اصلاح مياه الشرب هو الاصلاح الصحى الوحيد بل ردم البرك والمستنقعات بالقرى والمدن من أهمّ الاسباب التى تذهب بخطر تفشى الامراض الوبائية والحميات ، وكذلك جميع الوسائل التى تتخذها عند ظهور أى مرض وبأى ، وانشاء المستشفيات فى حواضر المديريات وغير ذلك .

وناهيك بعملية تطعيم الجدرى باللقاح المستحضر بالمعامل الكيماوية وقد ظهرت فائدته للعيان ونجحت تجاريبه نجاحاً تاماً فى ٩٥ بالمائة .

ومن احصاء مصلحة الصحة العمومية ان وفيات الاطفال كانت فى القاهرة وحدها سنة ١٩٠٦ — ١٤,٩٢٧ . أما الآن فقد نقصت نقصاناً بيناً بفضل التدابير الصحية .

والأمل عظيم فى اطراد التحسين كلما انتشرت مستوصفات رعاية الاطفال بجميع أنحاء القطر .

وقد روى بعضهم ان الطواعين لم تظهر فى القطر المصرى الاّ بعد القرن الخامس من الميلاد . وهو الزمن الذى أبطل فيهِ المصريون عادة الدفن فى الحواجر ودفنوا موتاهم فى أراضى المزارع .

« ٢ — الأطيان والضرائب »

كانت أرض مصر من عهد الفتح الاسلامى على نوعين خراجى وعشورى . فالاطيان الخراجية هى ما كان لمالكها حق المنفعة فقط وأما حق الرقبة فللامام . وعليها من الخراج ما يقدّره لها ديوان الخراج والأطيان العشورية يكون لمالكها حق المنفعة والرقبة معاً وخراجها عُشر محصولها .

ولما ولّى محمد على باشا ملك مصر وجد جميع أطيانها غير مملوكة لأحد ما بل تطرح أطيان كل بلد سنوياً للمزاد بين أهلها قبل الفيضان . فيزرع كلّ الأرض التى يرسو مزادها عليهِ . فرأى بصائب فكره ان هذه الحال لا تتفق مع مصلحة العمران فأمر بوضع ضرائب ثابتة على جميع الأطيان بعد مساحتها وقيّدها باسماء واضعى اليد عليها . وهذا ما يُعرف فى دفاتر الحكومة بتاريخ سنة ١٨١٣ واعتبرت بهِ جميع الأراضى المقدّرة خراجية الاّ مقادير استثنيت لاسباب مخصوصة أنعم بهـا الوالى على رجال دولته (عيناً ومنفعة) وسميت بالأراضى العشورية أو الأباعد . وكان بمقتضى هذا النظام لكل واضع يد حق

الانتفاع بما تحت يده من الأراضى مدة حياتهِ بدون ان يكون له حق رهنه أو بيعه . واستمرّ الحال على ذلك الى سنة ١٨٤٦ حيث أصدر الوالى رحمه الله اللائحة الأولى للأراضى وخوّل واضعى اليد حق رهنها غاروقة أو التنازل عنها لغيره بعقد شرعى .

وفى سنة ١٨٥٨ ظهرت اللائحة السعيدية التى منحت واضعى اليد جميع حقوق المالك بما فى ذلك انتقال وضع اليد الى ورثته من بعده ما عدا امتلاك ذات العين (أى حق الرقبة)

وفى سنة ١٨٧١ رأت الحكومـــة ان تقترض من واضعى اليد مالاً مقابل اعطائهم حق ملكية الأراضى التى فى حيازتهم فجمعت سبعة عشر مليوناً من الجنيهات وهى المعروفة (بمال المقابلة) غير ان هذه الضريبة لم يقرّها قانون التصفية بل اعتبرها غير شرعية وألزم الحكومة بردها لمن أخذت منهم شيئاً فشيئا فى كل عام .

وفى سنة ١٨٩١ صدر أمر عال بجعل أصحاب الأراضى الخراجية كأصحاب الأراضى العشورية فى حقوق الملكية التامة

وقد ظلت الضرائب على هذين النوعين من الأطيان متباينة تبايناً كليًّا وعلى غير أساس معقول حتى فكرت الحكومة فى تعديل الضرائب بطريقة عادلة فشرعت أولاً فى فك زمام القطر وكان ذلك سنة ١٨٩٢ بواسطة مصلحة المساحة على قاعدة تقسيم أراضى البلدة الواحدة الى حياض بشرط ان تكون أطيان كل حوض متماثلة فى اعتباراتها الزراعية والطبيعية

وفى سنة ١٨٩٦ تم تقدير الايجارات بواسطة لجان عينت لكل مديرية من مديريات القطر وعندها وصلت الحكومة الى تقرير ان ضريبة الفدان عبارة عن ١٨٫٦٤ من قيمة ايجاره .

ولما كان مجموع الضرائب التى تجبى من القطر خمسة ملايين من الجنيهات تقريباً ، وزعت على أطيانه على تلك النسبة وتحملت الاطيان العشورية جانباً عظيماً من أموال الاطيان الخراجية ، وزال الفارق بين النوعين وأصبحا فى خبر كان

أما تحصيل هذه الضرائب فيختلف باختلاف المديريات حيث قسمت الى أربعة وعشرين قيراطاً . يحصل فى كل شهر عدد من القراريط متناسب مع موسم الزراعة والمحصولات .

« أعمال الرىّ »

وادي النيل : هو كل ما يرويه النيل أى القطران المصرى والسودانى ، من منابعهِ الى مصباتهِ . قال هيرودوت (ان مصر هدية النيل) ولولاه لأصبحت وادياً غير ذى زرع . حيث لا نهر غيره يجرى ولا غيث يهمى كما هو الشأن في كثير من البلدان .

ينحدر وادي النيل من أعاليه الى الشمال بمعدل متر واحد كل عشرة كيلومترات ولذلك كان أفق مدينة أصوان فوق أفق القاهرة بمقدار مائة متر تقريباً لأن المسافة بينهما ألف كيلومتر .

مما تقدّم يعلم السرّ فى ان طريقة رىّ الأراضى بوادينا السعيد من قديم الزمان واحدة لا تتغيّر . يؤتى بأفمام الترع والجداول من الجهة القبلية لرىّ أراضى الجهة البحرية بمعدل أربعين كيلومتراً على التقريب

فترعتا الرمادى أو الابراهيمية مثلاً ، يأخذ فم الأولى من جبل السلسلة والأخرى من مدينة أسيوط . على ان الأولى تروى مديرية قنا ولا تنتفع منها مديرية أصوان الاّ باجزاء الموازنات على القناطر والثانية تروى القسم البحرى من مديرية أسيوط ومديريات المنيـا وبنى سويف والفيوم والجيزه . وأما الأراضى المجاورة للفم الى ديروط فلا تروى منها بغير الآلات الرافعة أو النيل العالى

انحدار الوادى يزيد فى سرعة جريان المياه لا سيما زمن الفيضان فيغيّر النيل مجراه على الدوام حتى كان فى الأزمان السابقة يجور على أحد الشاطئين فيكون تارة أقرب الى الجبل الغربى وتارة أقرب الى الجبل الشرقى وطوراً يتوسط بينهما .

أما فى هذه الأيام فلمصلحة الرى عناية كبرى بتنظيم مجرى النيل بو[illegible]ائط مخصوصة كوضع رءوس من الأحجار على شاطئ النهر أو بالتكسيّات لتحويل قوة التيار الى الاتجاه المرسوم وبهذه الواسطة وغيرها حفظ النيل مجراه وسلم كثير من أراضى الجزائر الصالحـة للزراعة .

(فيضان النيل) — يبتدئ نزول الأمطار التي تكوّن الفيضان ببلاد السودان من شهر مارس لغاية سبتمبر

والزمن المعروف عند أهل الزراعة (بنزول النقطة) هو الوقت الذى يظهر فيهِ أول زيادة محسوسة في القاهرة وتكون غالباً فى منتصف شهر بؤنة ويستمر فى الزيادة الى ان يبلغ نهايته العظمى فى يوم ٢٦ سبتمبر (١٧ توت) ويُعرف (بيوم الصليب للنيل) .

ويبتدئ الفيضان بمصر فى شهر اغسطس وينتهى فى أوائل نوفمبر ويكون الفيضان عالياً اذا بلغ فى مقياس أصوان ١٨ ذراعاً فما فوق ومتوسطاً اذا لم يزد عن ١٧ ذراعاً .

الأعمال الصناعية

« الغرض من السدود والقناطر »

لما رأى المغفور له محمد على باشا ضرورة التوسع فى الزراعة الصيفية بالوجه البحرى لزيادة ثروة القطر ، شرع المهندسون فى حفر الترع الصيفية على أعماق كبيرة لدخول مياه التحاريق فيها ، ولكن شوهد بالتجارب صعوبات جمة كصعوبة تطهير هذه الترع العميقة ومشقة رفع المياه منها بالآلات لرى الزراعة حيث كانت ترفع من عمق ستة أمتار تقريباً .

وكان معظم الترع الصيفية آخذاً من فرع دمياط وقليل منها يأخذ من فرع رشيد على ان هذا الأخير لانخفاض مجراه ينحدر فيه نحو ثلثى ماء الفيضان .

وفى ذلك الوقت كان الفلاح المسكين يشتغل فى حفر جسور النيل والترع من أول اغسطس لغاية نوفمبر ثم يشتغل فى أعمال التطهيرات من ديسمبر لغاية آخر مارس أى ثمانية شهور كل سنة ولا يتفرّغ لزراعته الاّ من ابريل لغاية يوليو فقط . هذه المشقات وغيرها حركت الهمم نحو تقليل متاعب الفلاح فشرع فى بناء القناطر الخيرية .

ولما كانت مياه النيل من بداية الفيضان الى نهايته تستمر تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط وتذهب سدى حيث يكفى لامتلاء الحيضان نصف مياه الفيضان فقط فاذا جاء فصل الصيف واشتدت الحاجة الى المياه لرى الزراعات الصيفية لم يوجد الكافى منها ، نبهت هذه الحال أولى الرأى من قديم الى وجوب عمل سدود على النيل لحجز الماء الى زمن الحاجة كما سيجيء تفصيله .

« ١ — قناطر الدلتا »

وكانت تسمى قديماً القناطر الخيرية وهى عبارة عن سدين عظيمين من البناء بالجهة المعروفة بفم البحر على بُعد عشرين كيلومتراً

شمالى القاهرة : أحدهما على فم فرع رشيد وطوله ٤٦٠ متراً و به ٦١ عيناً وهويسان لمرور المراكب ، وثانيهما على فم فرع دمياط وطوله ٥٤٥ متراً و بهِ ٧١ عيناً وهويسان .

وشرع فى بنائهما فى شهر يونيو سنة ١٨٤٧ تحت ملاحظة المهندس الفرنسى (موچل) بسبب الصعوبات التى اعترضت المهندسين فى وضع أساساتها الى ان فرغ منها فى سنة ١٨٦١ وصرف عليها اكثر من مليون جنيه خلاف أنفار العونة .

ولم يتيسر لمصلحة الرى الانتفاع التام بهذه القناطر حتى سنة ١٨٨٤ بسبب ظهور خلل فى مبانيها وفرشها . وفى سنة ١٨٨٧ شرعت الحكومة فى ترميمها وحفر الرياح التوفيقى تحت ملاحظة (الكولونيل وسترن) وبلغت النفقات مليون جنيه وتسنى لمصلحة الرى أن تحفظ مياه النيل أمام هذه القناطر على منسوب ١٣,٦٠ فى زمن التحاريق .

ولكن ظهر بعد ذلك خلل فى فرش القناطر فاستقرّ الرأى على عمل سدود من الخلف لتقويتها عملاً بمشورة (الميچر براون) وذلك سنة ١٩٠٠ وبهذه الطريقة أمكن رفع منسوب التحاريق أمام القناطر لغاية خمسة أمتار عن موازنته الأصلية فتدخل المياه فى الرياحات الثلاثة وهى رياح البحيرة ويروى مديرية البحيرة ورياح المنوفية ويروى مديريتى المنوفية والغربية والرياح التوفيقى ويروى مديريات القليوبية والشرقية والدقهلية .

وتقفل عادة في شهر مارس وتبقى لغاية الأسبوع الأول من شهر يونيو حيث تكون مياه النيل أخذت في التناقص و بدأت مياه الخزان فى تغذية النيل فى أوائل مايو فيحفظ منسوب المياه أمام القناطر على ١٥,٥٠ وهو أعظم منسوب يوافق الرى بالوجه البحرى و يبقى كذلك لغاية منتصف شهر أغسطس حتى تصل زيادة النيل اليها ويكون المنسوب الامامى ١٦ متراً وهى الدرجة التى تروى عليها الرياحات الثلاثة بالراحة وما زاد يصرف خلف القناطر الخيرية حتى يتم فتحها كلها تدريجيًا .

« ٢ — الخزان أو سد اصوان »

خزان اصوان هو عبارة عن سد من بناء فى النيل بطول ١٩٥٠ متراً فوق الشلال الأول بهِ ١٨٠ عيناً وهو يس لمرور المراكب وكان ارتفاعه ٢٢ متراً من فرش النيل ثم صار تعليته بمقدار ستة أمتار وكان يحجز الماء على منسوب ١٠٦ فصار يحجز الآن على منسوب ١١٣ متراً فوق سطح البحر الملح .

بدئ فى بنائهِ سنة ١٨٩٨ وانتهى العمل منهُ فى سنة ١٩٠٢ و يقفل عادة من نوفمبر عقب انتهاء الفيضان مباشرة لغاية شهر ابريل، وعند ذلك يكون النيل فى حاجة الى الماء فيعطى له الامداد الكافى تدريجيًا فى مايو ويونيو ويوليو وكان الخزان يحجز من الماء مقدار مليار

وكسور من الأمتار المكعبة وتكفى لامداد النيل مدة مائة يوم فى كل يوم عشرة مليون متر مكعب

ونظراً لانتهاء تعليته بمقدار ستة أمتار فوق البنـاء الأصلى أصبح يحجز الآن ضعف هذا المقدار .

(٣) قناطر أسيوط — هى عبارة عن سد من بناء فى النيل بطول ٨٣٣ متراً وبهِ ١١٠ عيون عرض كل عين خمسة أمتار ، وهو يس شمال مدينة أسيوط . وارتفاع الماء أمامه عن التسوية الخلفية (أى فرق التوازن) ٢٫٥ متر وتقفل عادة فى شهر فبراير ويصل أعلى منسوب للمياه أمامها وتفتح فتحاً تاماً فى أوائل أغسطس .

وقد بلغت نفقاته مع خزان اصوان الذى شرع فى بنائهما معاً ٣٫٤٣٠٫٨٦٤ جنيهاً مصرياً

والغرض من بناء خزان اصوان وقناطر اسيوط : هى أولاً امداد أقاليم الوجه البحرى بالماء الصيفى ، ثانياً تحويل الرى فى المديريات الوسطى وهى القسم الشمالى من مديرية اسيوط ومديريات المنيا وبنى سويف والجيزة بواسطة الترعة الابراهيمية من رى الحيضان الى الرى الصيفى ، والمنسوب الكافى لرى منطقة هذه الترعة هو ٤٧ زمن التحاريق ومع كلّ فقد أفادت الميـاه مديرية الفيوم أيضاً ، وقدّرت الاعمال الجديدة بهذا الاقليم فقط بنحو مليونين من الجنيهات .

وكانوا فيما مضى يفضلون النيل العالى أما اليوم فيقول رجال الرى

بأن النيل الواطئ قليلا تفوق فوائده مضاره كثيراً بعد ان وجدت وسائل التحكم بماء الفيضان ولا سيما وان الفيضان الواطىء قليلاً يخلو من الخطر ويقلّ بهِ النشع وتسلم منهُ المحصولات التى تزرع بالسواحل

(٤) قناطر اسنا — عبارة عن سد من بناء فى النيل شمال مدينة اسنا ، شرع فى بنائهِ سنة ١٩٠٦ بطول ٩٠٠ متر وبهِ ١٢٠ عيناً عرض كل عين خمسة أمتار وهويس للملاحة . ويحجز من الماء أمامه متراً ونصفاً عن التسوية الخلفية .

والغرض منهُ مساعدة ماء الفيضان فى الوقت الحاضر برفع منسوب المياه فى النهر لامكان رى أراضى الحياض الشمالية حتى فى سنى الفيضان الواطىء .

والمنسوب الكافى لمنع الشراقى بمديريتى قنا وجرجا هو منسوب ٨١ أمام هذه القناطر . وبلغت نفقاته مليون جنيه وفى المستقبل ربما كان لهذه القناطر وظيفة قناطر أسيوط . وتروى الآن ٣٥٠ ألف فدان .

(٥) قناطر زفتى — سد من البناء بالفرع الشرقى ، بحرى مدينة زفتى بنحو ثلاثة كيلومترات ، طوله ٣٢٥ متراً وبهِ ٥٠ عيناً كل عين عرضها خمسة أمتار . ويمكنهُ ان يتحمل حجز الماء لغاية أربعة أمتار .

وقد حفرت ترعة مهمة أمام هذا السد سميت بالرياح العباسى وهى لتغذية بحر شبين خلف قناطر السنطة . وعمل كذلك فم آخر للترعة

المنصورية أمام هذا السد أيضاً لامداد الرياح التوفيقى لمنفعة أراضى الدقهلية .

والغرض منها هو اعطاء رياح المنوفية والرياح التوفيقى الماء الكافى من شهر أغسطس لزراعة الذرة النيلي مبكراً لأن طول الرياحين وكثرة الزمام الموجود عليهما يؤخر تلك الزراعة .

(٦) وينتظر عمل سدين آخرين أحدهما على فرع النيل الغربى أمام محلة الأمير لتغذية ترعة المحمودية بمديرية البحيرة والبحر الصعيدى وفروعه بمديرية الغربية . والآخر على فرع النيل الشرقى أمام فارسكور لتغذية الشرقاوية بالدقهلية وترعة الساحل (ترعة شربين) بالغربية .

والغرض من هذين السدّين هو اعطاء هذه الترع ايراداً كافياً في زمن التحاريق وامدادها بالطمى الكثير الذى تكتسبهُ أراضى البرارى مدة الفيضان .

« ٤ — حياة القطر المصرى »

حظ الانسان فى هذه الحياة مرتبط تمام الارتباط بالأرض التى يعيش عليها .

فالمصرى فلاح لأن أرضه زراعية وليس فيها معادن الاّ القليل.

والانجليزى ملاح أو صانع لأن بلاده جزيرة وسط الأوقيانوس.

وأرضه غنية بمعادنها. نشاهد ذلك حتى من الوجهتين الادبية والاخلاقية

أنظر الى أقدم بلاد الأرض حضارة وهما مصر و بلاد اليونان فمن خصب أرض مصر والحاجة الى احداث طرق الري الصناعية فيها وضرورة تنظيم جريان النيل والمحافظة على جسوره أيام الفيضان ، نشأت فكرة (السخرة) وكان منها أن وجد المصرى من العهد الأول مسخراً فكانت أيامه كلها حفراً وردماً و بناءً وهدماً فأثرت تلك الحال في طبيعته وأخلاقه ولم يذق للحرية طعماً الاّ من زمن قريب .

وعلى العكس أخوه اليونانى طبع على الحرية ، لأن الزراعة فى بلاده على الأمطار اذا جادها الغيث اخضرت وان هو أمسك عنها أجدبت . ولقلة موارد الرزق عنـدهم لجأوا الى الهجرة للاسترزاق واستباق الخير من الآفاق فاعتادوا الاغتراب واقتحام الأسفار .

هذه الأرض الجدباء وهذه السماء الهاطلة أعتقت أهلها من نير الاسترقاق والاستعباد فنشأوا أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

قلنا ان القطر المصرى زراعى . اذاً فالطريقه الوحيدة للرقىّ والسعادة فيه طريق الزراعة بلا شك .

وليس الغرض من الزراعة الاقتصار على زراعة القطن كما هو الميل السائد اليوم ، لأن التوسع أو الاقتصار على زراعته يصرف جمهور الزرّاعين عن زراعة الأصناف الأخرى مثل القمح والفول والشعير وسائر أنواع الحبوب وهى ضرورية لحياة البلاد. والقطن الجيد لا ينبت

فى كل جهات القطر وعلى الخصوص جنوبى اسيوط ، فان الأحوال الجوّية غير موافقة لزراعة القطن كما يقول الخبيرون والاّ كانت النتيجة الاكثار من أصنافه غير الجيدة فتسقط أسعاره فى الأسواق العمومية ولا تعوّض أثمانه ما يدفعه الفلاح ثمناً للغلال متى قلّت أو استجلبت من الخارج لارتفاع أسعارها وقتئذٍ وهى من الحاجيات .

هذا وجعل ثروة البلاد معلقة على محصول واحد لا يخلو من خطر وقوعها فى الازمات المالية الشديدة كما لا يخفى .

للقطر المصرى مصادر عديدة للثروة غير القطن — كزراعة قصب السكر التى تقدّمت تقدُّماً عظيماً فى مديرية المنيـا ونجحت فيهـا نجاحاً تاماً لا سيما قصب (جمائيكا) . ويوجد بالصعيد جملة معامل لعصير السكر وتكريره أشهرها الحوامديه والشيخ فضل ونجع حمادى ومعامل الدائرة السنية . هذه الزراعة من اكبر موارد الثروة للبلاد .

كذلك زراعة أشجار التوت وتنجح كثيراً فى غالب بلاد القطر وعلى الخصوص ببلاد الصعيد وهى مفيدة لتربية دودة القز أو دودة الحرير التى تعيش وتتكاثر فى الأقاليم القبلية المصرية لقلة الامطار والعواصف المتلفة لها فى أمريكا . لا سيما وان زراعة الاشجار العالية بالصعيد تقيه وخامة الأهوية الجنوبية وتلطف أرياح السموم .

ثم صناعة الحرير : وهى من اكبر موارد الثروة واذا وجهت اليها

العناية أفادت البلاد بمثل ما تفيدها زراعة القطن وان المرحوم محمد على باشا بدأ سابقة فى زراعة التوت وتربية دودة القز بوادى الطميلات بالشرقية ثم أهملت تلك الزراعة من بعده .

ثم زراعة الكرم والزيتون والورد بأقليم الفيوم ، لموافقة تلك الزراعة النافعة لاستخراج الزيوت والأعطار ، وكزراعة الارز بالجهات الشمالية لمديريات البحيرة والغربية ، فان محصول تلك الجهات يفوق أرز ايطاليا وأمريكا وبلاد الهند اذا رقيت زراعته .

ومثل تربية الاغنام واستجلاب أنواعها من الهند الشرقية أو من بلاد اسبانيا لا سيما المعروفة باسم (المارينوس) كما فعل أدوارد الرابع ملك انكلترا وأهل هولاندا وكان لبلادهم من وراء ذلك أكبر الخيرات بتقدّم صناعة الصوف .

ومثل انشاء معامل الغزل ، فانها لوجود المواد الأولية وهى القطن والصوف والحرير تنجح نجاحاً تاماً بخلاف صناعة الآلات البخارية مثلاً فان المادة الأولية وهى الحديد غير موجودة ببلادنا واذا استجلبت تحمّلت الصناعة نفقات كثيرة وكانت المصنوعات الأجنبية خيراً منها جودةً ورخصاً .

هذا عدا تربية الخيول والنحل والدجاج الى غير ذلك .

حياة القطر المصرى بهذه الأنواع من الزراعات كلها لا تفضيل لنوع منها على آخر ، كما لا تقدّم الاّ اذا اشتغل بالزراعة كبار المزارعين

والاّ فاذا أصبحت جميع الأطيان بين أيدى صغار الفلاحين كان البحث فى طرق ترقية الزراعة، والاشتغال بعلوم الزراعة ، وتأسيس الجمعيات الزراعية، عملاً بغير جدوى، اذ كيف يتيسر للفلاح الصغير ان يأتى بأجود أصناف البذور ، وأحسن أنواع السماد ، و يقتنى الماشية الجيدة ، ويعتنى بتربيتها وتحسين نوعها ، أو كيف يمكن ادخال الآلات الزراعية الحديثة ما دام الأغنياء وأرباب الأطيان بعيدين عن الزراعة وأهلها .

نرى كل يوم الغنى الأروبى أو الأمريكى الذى تفوق أرباح أمواله فى اليوم الواحد رأس مال أغنى أغنيائنا ، يأتى مصر أو السودان لأرض موات يشتريها ، أو لشركة يعقدها ، أو لمعدن يستخرجه . لِمَ ذلك ؟ لأنهُ لا يودّ ان يكون عضواً أشل بل يبغى أن يكون عضواً عاملاً وأن يشتغل حبًّا بالشغل وحبًّا بتقدّم العلم الصناعى أو الزراعى لعلمه انهُ بما رزقه الله من سعة المال يستطيع اخراج اعمال يعجز عنها غيره ؟

« تمّ الكتاب »

فهرست

الجزء الثالث

صفحة

صفحة

library (GOAL

صفحة

الباب الثانى

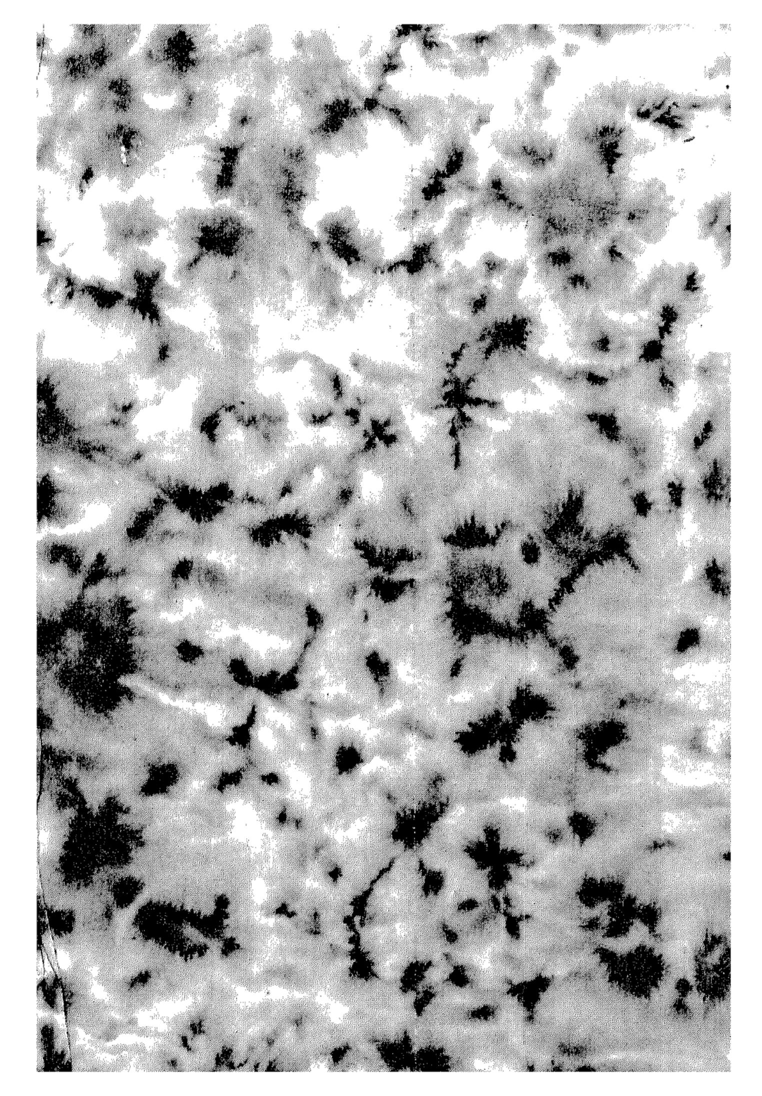
الباب الثالث

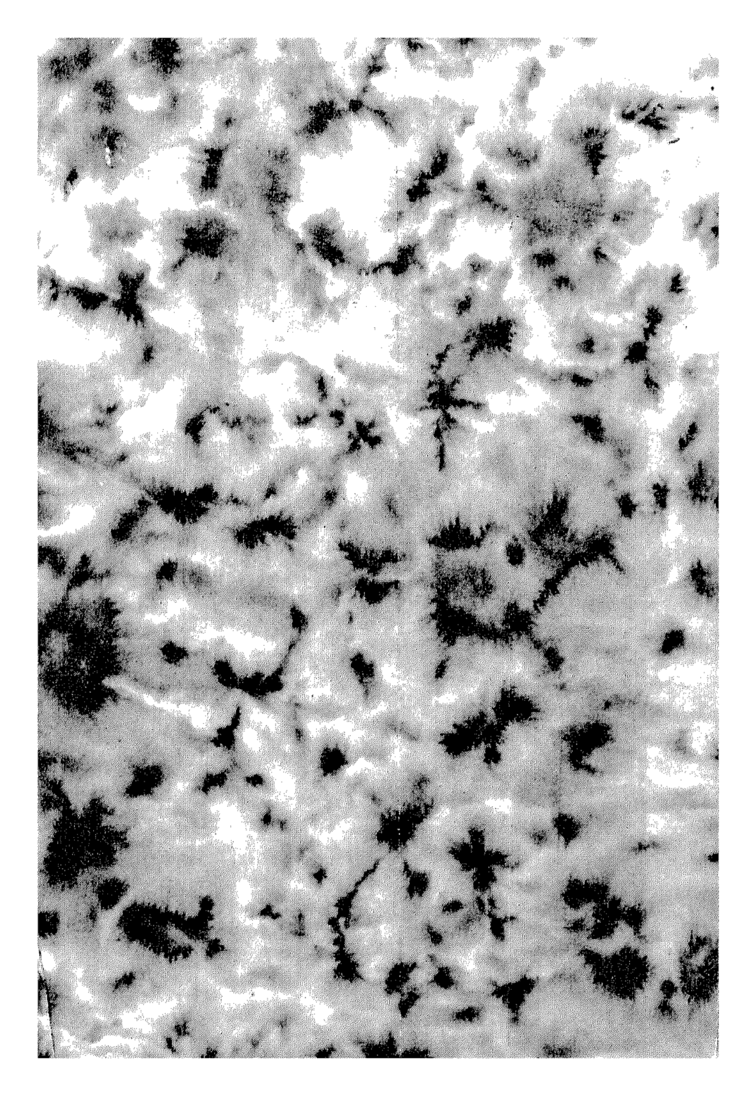
الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع






Bibliotheca Alexandrina
04332451